تمهيد المكان والزمان

إن «التأريخ القديم» الذي يبدأ منذ ظهور اقدم انسان علىٰ سطح الارض ويمتد، بالنسبة الىٰ العراق وبقية أجزاء الوطن العربي، حتىٰ ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي،لايعترف بالتقسيمات السياسية الحاضرة التي جزأت المنطقة الىٰ عدد من الأقطار والبلدان المستقلة عن بعضها وأثبتت حدودها واطلقت عليها تسميات معينة قد يكون بعضها قديماً، فهذه التقسيمات والحدود حديثة نسبياً وغالباً ماتكون اعتباطية املتها الظروف السياسية، ولاسيما تلك التي اعقبت الحرب العالمية الاولىٰ، فهي لاتنطبق علىٰ ما كانت عليه المنطقة في العصور القديمة. لذلك، فإن حدود العراق الحاضرة لاتوازي او تطابق حدود الدول والممالك القديمة التي تأسست فيما عرف بالعراق في العصور التالية، بل كانت حدود تلك الدول والممالك تتسع وتتقلص تبعاً لقوة تلك الدول أو ضعفها وغالباً ما ضمت، في حالات قوتها، جميع اراضي وادي الرافدين، أي أراضي العراق الحاضرة مضافاً اليها الاراضي الواقعة في اعالي مابين النهرين دجلة والفرات، طالما كانت هذه المنطقة تؤلف وحدة جغرافية محورها الاساس وديان هذين النهرين العظيمين. ومع ذلك، فسيقتصر حديثنا علىٰ تأريخ العراق القديم بحدود العراق الحاضرة كلما كان ذلك ممكناً.

يمثل العراق جزءاً مهماً مما اصطلح علىٰ تسميته بالشرق الادنىٰ الذي يمتد من سواحل البحر الابيض المتوسط حتىٰ هضبة ايران، وقد كان له دور بارز وفاعل في تأريخ المنطقة كلها وفي حضارتها. ففي هذا الجزء المهم من العالم القديم الذي عرف فيما بعد بالعراق، وبصورة خاصة في قسمة الجنوبي، كان مولد حضارة اصيلة تمتد بجذورها الىٰ عمق عصور ماقبل التأريخ، بل لانتجاوز الحقيقة إن قلنا ان هذا الجزء من العالم القديم مع وادي النيل قد شهد حقاً مولد الحضارة الانسانية.[1]

---

(١) انظر فرانكفورت، هـ، فجر الحضارة في الشرق الادنىٰ، بيروت، ١٩٥٩، ص ١٣.

وقد نمت هذه الحضارة ببطء وتوءدة عبر العصور المتتالية ونضجت لتبزغ مع بداية العصور التأريخية في الألف الثالث قبل الميلاد ، واستمرت تنبض بالحياة لعدة آلاف من السنين محافظة طوال الوقت علىٰ وحدتها الحضارية علىٰ الرغم من التجزئة السياسية احياناً ومن كل الهزّات التي تعرضت لها بسبب الاضطرابات السياسية والغزو الاجنبي والتحركات العرقية في المنطقة . وظلت المراكز الحضارية الرئيسة التي قامت وازدهرت في بلاد بابل وآشور تشع بحضارتها علىٰ الشرق الادنىٰ القديم برمته من مواقعها علىٰ ضفاف دجلة والفرات او بالقرب منها ، بل امتدت تأثيراتها الىٰ الاقطار البعيدة ايضاً فأخذ عنها الفرس الاخمينيون الشيء الكثير وخاصة عند احتلالهم بلاد بابل وآشور، وفي عصر السيطرة المقدونية ، تأثر الاغريق تأثراً واضحاً بما كان لدىٰ العراقيين القدماء من علوم ومعارف فنقلوا عنهم عناصر حضارية مختلفة ولاسيما في علوم الطب والفلك والرياضيات والتأريخ وغيرها ثم طبعوها بطابعهم الخاص حتىٰ نسبت خطأ اليهم وغدت جزءاً من حضارتهم التي كانت الأساس الذي قامت عليه الحضارةالغربية الراهنة .

وقبل الحديث عن الحضارة العراقية الاصيلة التى أثرّت في الحضارات البشرية كلها ، لابد من توضيح ما يقصد بعنوان الكتاب"العراق في التأريخ القديم"بشكل علمي دقيق، ذلك أن المقصود بمصطلح «العراق» جميع الأراضي التي تضمها حدود جمهورية العراق الحديثة . ويرقىٰ تأريخ أول استخدام لهذا المصطلح الىٰ مدة الاحتلال الساساني (٢٢٦ – ٦٣٧ م) وتكرر استخدامه في الشعر الجاهلي ، ولكنه لم يكن يحمل المعنىٰ نفسه ، فقد اطلق اسم العراق علىٰ الاقسام الوسطىٰ والجنوبية فقط مما يعرف بالعراق الآن ، وكان البلدانيون العرب ينعتونه احياناً بالعراق العربي تميزاً له عن «عراق العجم» الذي كان يقصد به الجزء الجنوبي من ايران . أما القسم الشمالي من العراق الحاضر فكان يسمىٰ «الجزيرة» وكان الحد الفاصل بين الجزيرة والعراق حسبما جاء في كتابات البلدانيين العرب الخط الوهمي المار من الفلوجة علىٰ نهر الفرات غرباً الىٰ تكريت علىٰ نهر دجلة شرقاً ، والفلوجة وتكريت يقعان ضمن حدود العراق . ثم اتسع مدلول التسمية تدريجياً وامتدت حدود العراق شمالاً فأصبح يشمل الجزيرة ايضاً ودخلت ضمن أراضيه جميع الأراضي الواقعة بين الموصل شمالاً ومدينة عبادان جنوباً ومن عذيب القادسية غرباً الىٰ -لوان ، قرب قصر شيرين شرقاً ، أي مايوازي حدود العراق الحاضرة تقريباً . وفي العصر الـ لجوقي ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين امتدت حدود العراق لتشمل

الاقسام الجبلية من ايران الىٰ همدان ، وفي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تبلورت حدود العراق الحاضرة .[١]

أما اصل كلمة (عراق) ، فقد اختلفت آراء الباحثين بشأنه ، فهناك من يرىٰ أن أصل الكلمة عربي بمعنىٰ (الشاطئ) او (الجرف)[٢] في حين يرىٰ آخرون أن الكلمة من أصل فارسي وأنه من أيراه التي عربت الىٰ ايراق ثم عراق ، أو أن التسميتين ايران وعراق من الكلمة ايراك ، بالكاف الثقيلة ، التي تعني البلاد السفلى . أما استاذنا المرحوم طه باقر فقد رأى احتمال أن يكون اصل كلمة (عراق) من التراث اللغوي العراقي القديم وإنه ربما اشتق من كلمة (اوروك) التي تعني المُسْتَوْطَن وهي نفس الكلمة المستخدمة في تسمية مدينة الوركاء والداخلة في تركيب اسماء جملة مدن قديمة مثل اور ولارسا ، الا أن التسمية اوروك لم تستخدم لدى العراقيين القدماء للدلالة على القطر كله بل على مدينة واحدة[٣] وقد رأى اولمستد أن التسمية ربما كانت مشتقة من الاسم اريقا الذي ورد في احدىٰ الوثائق التأريخية الراجعة الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد للدلالة على اقليم معين[٤] .

وقد شاع استخدام تسمية (العراق) منذ القرنين الخامس والسادس الميلاديين ومهما كان اصل اشتقاق كلمة (عراق) ، وما كانت تعنيه عبر العصور الا انها حديثة نسبياً مقارنة مع تأريخ العراق الطويل الذي يمتد الىٰ عشرات الألوف من السنين. ومن الواضح أنه لاسبيل الىٰ معرفة ما كان يطلق علىٰ العراق ، أو علىٰ اجزاء العراق المختلفة ، من تسميات قبل أن تبتدع الكتابة . وبعد ان استخدمت الكتابة ذكرت لنا النصوص المسمارية التسميات المختلفة التي اطلقت علىٰ اجزاء العراق خلال العصور القديمة .

---

(١) انظر طه باقر، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ط ٣ ، ج ١ ، ١٩٧٣ ، ص ١٢ – ١٥ .

(٢) انظر ابن منظور، لسان العرب ، ج ١ مادة عرق : «العراق شاطئ الماء وخص بعضهم شاطئ البحر، وقيل سمي عراقاً لقربه من البحر وأهل الحجاز يسمّون ما كان قريباً من البحر عراقاً. وقيل سمي عراقاً لانه استكنف ارض العرب. وقيل سمي به لتواشج عروق الشجر والنخل به كأنه اراد عرقا ثم جمع علىٰ عراق..... وقيل العراق شاطئ النهر او البحر علىٰ طوله . وقيل لبلد العراق عراق لانه علىٰ شاطئ دجلة والفرات عداء حتىٰ يتصل بالبحر» .
انظر كذلك ، سامي سعيد الاحمد ، المدخل الىٰ تأريخ العالم القديم ، القسم الاول ، العراق القديم ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٧ و ص ١٦٦ – ١٦٧ .

(٣) طه باقر، المقدمة ، ص ٨٧

(٤) Olmstead, E.T: History of Assyria, Chicago, 1923, p. 60

ويبدو أن (بلاد سومر) أقدم التسميات المعروفة التي اطلقت علىٰ المنطقة الواقعة في أقصىٰ جنوب العراق (وقد وردت هذه التسمية باللغة السومرية علىٰ هيئة ki.en.gi وهي تعني حرفياً (ارض سيد القصب) وكتبت باللغة الاكدية علىٰ هيئة (مَت شومبرم matŠumērim (بلاد السومريين) ، ومن أهم مدن بلاد سومر نفرواوروك ولارسا وايسن وادب وشروپاك ولجش واوما واور واريدو، ومنذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، وعندما تأسست مدينة أكد عاصمة للدولة الاكدية الجديدة ، اطلق علىٰ القسم الوسطي من العراق ، من شمال بغداد قليلاً الىٰ جنوب مدينة بابل،اسم (بلاد أكد) الذي دون بالسومرية ki.uri . وورد بالاكدية بصيغة (مَت اكّديم mat Akkadim) أي (بلاد الاكديين) نسبة الىٰ مدينة أكد ، العاصمة . ومن أهم مدن بلاد اكد اضافة الىٰ العاصمة التي لم يكشف عنها بعد ، مدينة سپار وكوثا وبابل وكيش وبورسبا ودلبات ومَرَد .

ومنذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، استخدم مصطلح (بلاد بابل) ، نسبة الىٰ مدينة بابل ، للدلالة علىٰ بلاد سومر واكد وغدت التسمية تضم الاقسام الوسطىٰ والجنوبية من العراق ، وعند سيطرة الكشيين علىٰ بلاد بابل في حدود ١٦٠٠ ق. م ، اطلقوا علىٰ بلاد بابل الاسم الكشي كارد نياش اي (بلاد دنياش) وهو احد الآلهة الكشية .

اما القسم الشمالي من العراق فقد عرف باسم (بلاد آشور) مت آشور mat Assur ، نسبة الى مدينة آشور أول عاصمة آشورية . وقد وردت تسمية اخرىٰ ، ربما كانت تطلق علىٰ منطقة الجزيرة العليا شرقي دجلة ، علىٰ هيئة بلاد سوپارتوم[1] ، واستخدمت في بعض النصوص البابلية مرادفة لبلاد آشور احياناً الا أن الآشوريين انفسهم لم يستخدموا هذه التسمية الا استثناءً . واستعمل عدد من الكتاب الكلاسيكيين مصطلح بلاد بابل (بابلونيا Babylonia) و بلاد آشور (أسّيريا Assyria) للدلالة على القطر كله ، كما استعملوا اسم (كلدية Chaldea) اي بلاد الكلديين للدلالة علىٰ بلاد بابل فقط .

كما استخدم الكتاب الكلاسيكيون مصطلح ميزوپوتاميا Mesopotamia للدلالة علىٰ المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات من الشمال الىٰ حدود بغداد تقريباً ، أي ما يقابل مصطلح (الجزيرة) عند البلدانيين العرب ، ثم شاع استخدام المصطلح للدلالة علىٰ

(١) انظر تفصيل ذلك ، طه باقر، المقدمة ، ص ٧٧. جمال رشيد أحمد، دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦ وما بعدها.

العراق بصورة عامة . أما الاوربيون فقد استخدموا المصطلح المذكور على نحو خاص بعد ترجمة التوراة الى اللغة اليونانية واللغات الاوربية الاخرى بالمعنى نفسه .

ويبدو أن المصطلح جاء اصلاً من تسمية وردت في التوراة وهي (ارام نهريم) [1] التي تعني (ارام النهرين) أي (بلاد مابين النهرين) ، التي ترجمت الى اليونانية على هيئة ميزوبوتاميا ، غير أن المقصود بهذا المصطلح في التوراة هو الاشارة الى الاقليم الذي يقع بين نهري الفرات والخابور ، أو بين نهر الخابور والبليخ ، ومع ذلك فقد استخدم المصطلح خطأً للدلالة على الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات [2] .

ومن التسميات الحديثة المقبولة التي اطلقت على العراق وبصورة خاصة عند الحديث عن تأريخه القديم تسمية (وادي الرافدين) اشارة الى وادي النهرين الرئيسين اللذين يشقان العراق من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب وهما دجلة والفرات ، وهي تسمية تؤكد وحدة المنطقة الجغرافية التي غالباً ما كانت تؤلف وحدة حضارية متماسكة ، ومع ذلك ، فإن أكثر التسميات ملاءمة للاشارة الى تأريخ هذا الجزء المهم من العالم القديم هي (العراق) لانها تسمية تعني بمدلولها الحاضر جميع الاراضي التي سنتكلم عليها المتمثلة ببلاد سومر وأكد (بلاد بابل) وبلاد آشور ، كما أنها تسمية تؤكد ارتباط ماضي العراق العريق وتأريخه الطويل بحاضره المزدهر ، لان الحضارة الاصيلة التي قامت في العراق منذ اقدم العصور ونمت وازدهرت ، ليست حضارة ميتة ، كما يحلو للبعض أن يصفوها [3] ، بل أنها حضارة اثرّت وماتزال تؤثر في الحضارات المعاصرة والتالية لها الى الوقت الحاضر من اليسير على الباحث أن يتلمس تأثيراتها الواضحة في حياتنا الحاضرة . كما ان مصطلح (وادي الرافدين) مصطلح مناسب للحديث عن تأريخ العراق القديم . وهو يشير بصورة خاصة الى الجانب الحضاري من تأريخ المنطقة الذي لايتحدد بحدود سياسية معينة .

---

(١) سفر التكوين ، ٢٤المقالة — موجز تاريخ العراق القديم

تاليف — د. عامر سليمان

الجزء الاول

(٢) ويشير فلكنشتاين الى أن مصطلح ميزوبوتاميا قد يكون ترجمة لتسميات عراقية قديمة بالمعنى نفسه وردت على هيئة (بيريت نارم) او (مَت بيريم) او (بيريتم) ويعني كل منها (بلاد مابين النهرين) . انظر :

— Finkelstein, JJ., Mesopotamia, Journal of Near Eastern Studies, 21 (1962) p. 73 ff.

(٣) انظر مثلاً عنوان كتاب L.Oppenheim ، الالماني اليهودي ، الذي عاش في امريكا واختص بتأريخ العراق القديم وكتب عنه بحوثاً ودراسات كثيرة مهمة ، فقد عنون كتابه بالانكليزية Ancient Mesopotamia , Portrait of a Dead Civilization أي (ميزوبوتاميا ، وجه حضارة ميتة ، شيكاغو ١٩٦٤ . وقد ترجمه سعدي فيضي الى العربية بعنوان (بلاد مابين النهرين) .

أما المقصود بالتأريخ القديم هنا ، فهو تأريخ العراق منذ أقدم استيطان الانسان فيه في العصور الحجرية القديمة حتىٰ تحرير العراق من الاحتلال الاجنبي ودخوله دائرة الاسلام بعد معركة القادسية عام ٦٣٧ م ، وهو الحدث الاهم في تأريخ المنطقة بحيث عدّه الباحثون الحد الفاصل الذي يؤشر نهاية التأريخ القديم وبداية التأريخ الجديد .

١

جغرافية العراق التاريخية

من المؤكد ان للعوامل الجغرافية في اي بلد من البلدان اثرها الكبير والواضح في نشوء ونمو وازدهار الحضارة. ومع ذلك، يبقى دور الانسان العامل الحاسم والفاعل فيها، فالحضارة هي نتاج تفاعل الانسان مع بيئته الطبيعية وتحديه لها وتسخيرها لخدمته، وان كيفية التفاعل واسلوب التحدي وطرق تسخير الطبيعة لخدمة الانسان هي التي تكسب الحضارة طابعها الخاص. وما ينطبق على الحضارات المعاصرة يصدق على الحضارات القديمة، ومنها حضارة العراق، بل إن تأثير البيئة الطبيعية بعواملها الجغرافية المختلفة على سير الحضارة واتجاهاتها كان اكثر وضوحاً وأعمق اثراً في العصور القديمة نظراً لأن الانسان تمكن خلال العصور التأريخية المتتابعة حتى الوقت الحاضر من اختراع واكتشاف طرق ووسائل السيطرة على العوامل الجغرافية المختلفة والحد من تأثيراتها على حياته ومعرفة أسلوب تسخيرها لخدمته دون عناء كبير.

العوامل الجغرافية المؤثرة في تأريخ وحضارة العراق القديم :

عند دراسة تأريخ العراق القديم لابد من إلمامة سريعة بالعوامل الجغرافية المختلفة التي كان لها تأثير واضح على تأريخ الانسان وتأريخ حضارته . فالعراق ، وبقية اجزاء الشرق الأدنى القديم ، من أماكن العالم القليلة التي يظهر فيها تأثير الجغرافية على التأريخ واضحاً ، فقد كانت نشاطات الانسان في هذه المنطقة ، كما نرى ، مشروطة ومحدودة الى درجة كبيرة بما كانت تمليه عليه طبيعة الأرض وطبيعة تربتها وكمية الأمطار ومناطق توزيعها وخطوط توزيع الينابيع والآبار ومسارات الانهار وفيضاناتها وملاءمة المناخ وتقلباته ومدى تأثير ذلك على الزراعة الى غير ذلك من العوامل الجغرافية والطبيعية المؤثرة .[1] وفيما يأتي نبذة عن أهم هذه العوامل التي اثرت في تأريخ وحضارة العراق القديم :

١ – الموقع :

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا ، وقد كانت لهذا الموقع اهمية استراتيجية وتجارية كبيرة لأنه يقع على الجسر الأرضي الذي تلتقي فيه القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا ، كما انه يقع عند ملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى باتجاه البحر الأبيض المتوسط من خلال الخليج العربي ، وكان لهذا الموقع اهميته في اتصال أبناء العراق بغيرهم من الأقوام عن طريق التجارة ، فكان ان انتقل العديد من العناصر الحضارية من والى العراق ، نتيجة احتكاك العراقيين القدماء واتصالهم بالأقوام الأخرى . كما أن وقوع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية ، ولاسيما سهله الرسوبي الممتد بين منطقتين تفتقران لهذه الموارد الطبيعية ، هما المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي والمنطقة الصحراوية في الغرب والشمال الغربي،قد اثّر في تتابع الهجرات والغزوات عليه وكانت ردود فعل الملوك والحكام سريعة فقد قاموا بحملاتهم العسكرية المستمرة لصد الغزو والحد من الهجرة ونجحوا احياناً وفشلوا أحياناً أخرى .

---

(١) أنظر: جورج رو، العراق القديم ، ١٩٦٣ ، ترجمة حسين علوان حسين ، بغداد ، ١٩٨٤ ص١٩ .

٢- التضاريس :

للتضاريس كما للموقع أثر كبير وواضح في سير حياة الانسان وتأريخ حضارته ، فقد تجعل تضاريس معينة هذا البلد مثلاً إقليماً مفتوحاً تسهل الهجرة اليه كما تسهل عملية غزوه إن لم يوفر الانسان الحماية اللازمة لحدوده ، وقد تجعله اقليماً مقفلاً أو معزولاً ، كما كانت عليه الحال في وادي النيل ، فقد كانت تضاريسه سدّاً منيعاً ضد الأقوام والقبائل المهاجرة او الغازية . كما ان تأريخ تكوين هذه التضاريس يحدد تأريخ استيطان الانسان بشكل تقريبي .

أ- التكوين الجيولوجي لأرض العراق :

لقد تمت دراسات عديدة حول تكوين ارض العراق ، وبصورة خاصة فيما يتعلق بتكوين السهل الرسوبي ، الا ان نتائجها كانت متضاربة وآراءها مختلفة مما يشير الى ضرورة القيام بدراسات اخرى وصولاً الى نتائج مقبولة - وتتفق جميع الدراسات على أن أرض العراق لم تكن في الدهور والعصور القديمة كما هي عليه الآن ، فقد شهدت أيامئذ تغيرات جيولوجية واضحة حتى استقرت على ماهي عليه الآن منذ بداية العصور التأريخية .

وتدل الدراسات الجيولوجية على أن ارض العراق بأكملها كانت في وقت ما مغمورة بالمياه حتى أواخر الدهر الجيولوجي الأول ، ثم بدأت مياه البحر بالانحسار منذ حوالي ٦٠ مليون سنة ، فظهرت الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من العراق متمثلة بالمنطقة الجبلية وذلك في أواخر الدهر الجيولوجي الثاني وأوائل الدهر الجيولوجي الثالث .

وتكاملت عملية ظهور المنطقة الجبلية في الدهر الجيولوجي الرابع في دوره الأخير المسمي بلايستوسين ، وهو الدهر الذي تقع فيه العصور الجليدية والعصور الحجرية القديمة .

أما المنطقة الوسطى والجنوبية أو مايعرف عادة بالسهل الرسوبي ، فقد أشارت النظرية السائدة حتى عام ١٩٥٠ ، إلى أنه منخفض حوض كانت تغمره مياه البحر في العصور الحجرية القديمة وكان ساحل البحر يمتد الى الخط الوهمي الذي يصل مابين هيت وسامراء وبلد وذلك قبل نصف مليون سنة . وخلال العصور الحجرية القديمة والحديثة ، ونتيجة تراكم الترسبات الغرينية التي يحملها باستمرار النهران الرئيسان دجلة والفرات تكوّن

السهل الرسوبي تدريجياً ، فزادت مساحة اليابسة وانحسر ساحل الخليج نحو الجنوب حتى أصبح في العصر الحجري المعدني يتمثل بالخط الوهمي المار بين مدينتي أور والعمارة او الكوت . اي ان ارض القسم الجنوبي من العراق لم تكن صالحة للاستيطان قبل الألف الخامس قبل الميلاد نظراً لأنها كانت مغمورة بالمياه وهي في تزايد مستمر طالما استمرت الترسبات الغرينية تتراكم في مصبات الأنهار.[1]

وفي عام ١٩٥٢ تقدم العالمان الجيولوجيان ليس وفالكون بنظرية جديدة عن تكوين السهل الرسوبي تناقض النظرية السابقة تماماً وملخص النظرية الجديدة . أن حدود ساحل الخليج العربي لم تكن في أي وقت مضى أبعد شمالاً مما هي عليه الآن بل إن ساحل الخليج كان على العكس من ذلك يقع الى جنوب حدوده الحاضرة ، وان اليابسة كانت في تناقص مستمر نتيجة التعرية المستمرة والتآكل الذي تحدثه المياه في مصبات الأنهار.

أما ما يقال عن المواد الغرينية التي ترسبها مياه دجلة والفرات سنوياً، فالمعروف أن السهل الرسوبي هو في هبوط او انخساف مستمر. الا أن التوازن بين هذا الهبوط المستمر وبين تراكم الترسبات الغرينية قد تم بشكل حافظ على مستوى السهل الرسوبي ، واذا كانت الحال كذلك ، وهذا ما يؤيده معظم الباحثين في الوقت الحاضر، فمن المحتمل جداً أن مياه الخليج بوضعه الحاضر كانت تغطي بعض معالم استيطان الانسان القديمة ، وان التنقيبات المقبلة في قاع الخليج ستكشف لنا عن تلك الآثار التي تسبق أقدم ماهو معروف لدينا حتى الآن .[2]

وهناك نظرية ثالثة بشأن مياه الخليج ترى أن مياه البحار نتيجة انخفاض درجات الحرارة الكبيرة في العصر الجليدي الرابع (١٤٠٠٠ – ١٣٠٠٠ سنة ق.م) ، وانجماد المياه أصبحت دون مستوياتها الحاضرة بأكثر من مائة متر، وحيث ان الخليج العربي لايزيد عمقه في الوقت الحاضر عن مئة متر، فقد كان في ذلك الوقت منخفضاً جافاً ، وفي نهاية العصر الجليدي ساد الدفء وذابت الثلوج وعادت المياه الى ماكانت عليه وارتفعت

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص١٦ – ١٧ .

(٢) حول رأي هذين العالمين Lees and Falcon, The Geographical History of the Mesopota mian Plains, Geogra phical Journal, 1962,pp. 24 – 29 وأنظر كذلك : احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ١٩٦٣ ، ص١٣٢ – ١٣٩ .

مستوياتها وأخذ منخفض الخليج العربي يمتلئ تدريجياً الى ان وصل الى مستواه الحاضر بحدود عام ٥٠٠٠ ق.م.[1]

وكيفما تكون السهل الرسوبي فإنه قد يسّر سبل الاتصال البحري باقطار الخليج العربي والأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة والهند. وتدل نتائج التنقيبات التي اجريت في السنوات الأخيرة في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولا سيما في الأجزاء الساحلية من الخليج على وجود آثار عراقية من الألف الخامس قبل الميلاد (عصر العبيد) في عدة مواقع كما وجدت آثار عراقية من عصور لاحقة في واحة البريمي في الامارات العربية وفي البحرين في حين تشير النصوص المسمارية الى اتصال العراق بعدد من الأقاليم الواقعة في ما وراء الخليج منها مكّان ودلمون اللذان يتفق الباحثون على انها عمان والبحرين في الوقت الحاضر، فضلاً عن ميلوخا التي يظن انها وادي السند او بلاد الحبشة.

ب- أجزاء العراق الطبيعية :

تضم أراضي العراق تضاريس متباينة في أجزائها المختلفة وهي ثلاثة أنواع طبيعية من التضاريس التي يتكون منها سطح الأرض. ففي الشمال والشمال الشرقي تمتد الجبال الالتوائية، وفي الغرب يوجد الامتداد الشمالي لهضبة شبه الجزيرة العربية وبين المنطقة الجبلية والهضبة الصحراوية تمتد السهول، أي بين وادي دجلة والفرات، وفيما يأتي وصف موجز لكل من هذه الأقسام الطبيعية :

١ - المنطقة الجبلية وشبه الجبلية :

وتشمل هذه المنطقة الجبال العالية والمرتفعات شبه الجبلية الممتدة في الأقسام الشمالية والشمالية الشرقية من العراق، وتؤلف بمجموعها ٢٠٪ من مساحة العراق الكلية، وتتصل بحدود العراق مع كل من سوريا وتركيا وايران وتمتد جنوباً وغرباً الى حدود السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية، وتتألف حدودها الجنوبية من سلاسل جبلية واطئة مثل سلسلة جبال حمرين وجبال مكحول والعطشان وتلعفر وسنجار. وكلما اتجهنا نحو الشمال والشمال الشرقي زاد ارتفاع الجبال التي يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠٠ - ٣٦٠٠٠ متراً. وتكسو قمم الجبال المرتفعة الثلوج طيلة ايام السنة وتغطيها الغابات والحشائش. وتخترق هذه المنطقة روافد دجلة كلها وهي الخابور والزاب الأعلى والزاب الاسفل والعظيم وديالى.

---

(١) انظر: نقي الدباغ، البيئة الطبيعية والانسان في حضارة العراق، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ص٣٩- ٤٠.

وتتخلل المنطقة الجبلية وشبه الجبلية سهول خصبة مثل سهل شهرزور وسهل رانية وسهل كركوك وأربيل ومخمور، وهي تتمتع بمعدلات جيدة من مياه الأمطار مما يساعد على نمو كثير من النباتات والأشجار وزراعة الحبوب على اختلافها ، كما كانت المنطقة ملائمة جداً لعيش وتكاثر الحيوانات التي عاش انسان العصر الحجري القديم على صيدها . وتنتشر في المنطقة الجبلية الكهوف والمغاور التي التجأ اليها انسان العصر الحجري القديم ، وعلى اطراف هذه المنطقة عند سفوح الجبال وبالقرب من السهول الخصبة قامت أولى مستوطناته الزراعية في العصر الحجري الحديث .

٢ – الهضبة الصحراوية :

وهي أوسع المناطق الطبيعية في العراق ، وتبلغ مساحتها اكثر من نصف مساحة العراق ، وهي جزء متمم لبادية الشام التي تمتد في اراضي الأقطار العربية المجاورة.وأراضي الهضبة الصحراوية متموجة تقطعها مجموعة من الوديان الطولية وتظهر فيها بعض التلول الصغيرة والكثبان الرملية ، ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٠٠ – ١٠٠٠ متراً .

وينحدر سطح الهضبة بصورة عامة من الغرب الى الشرق وينتهي بالسهل الرسوبي . وأمطار هذه المنطقة قليلة نسبياً تسقط بعنف في فترات قصيرة وهي في الشمال اكثر منها في الجنوب ، ويخترق المنطقة نهر الفرات من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي ، ولا تساعد تربة المنطقة الرملية او الكلسية على نمو النباتات الا في بعض الواحات . وتنتهي المنطقة بمنخفضات واسعة كمنخفض الحبانية وهور ابي دبس ومنخفض الثرثار.

وكانت هذه الهضبة الصحراوية مسرحاً شهد هجرة الاقوام الجزرية (العربية القديمة) من شبه الجزيرة العربية إلى أرض العراق فقامت على الطريق الذي سلكته مراكز حضارية مهمة كمدينة ماري مثلاً على نهر الفرات .

٣ – السهل الرسوبي :

يحتل السهل الرسوبي وسط وجنوبي العراق وتبلغ مساحته خمس مساحة العراق ، ويمتد من الخط الوهمي الذي يصل بين هيت وسامراء شمالاً حتى ساحل الخليج العربي جنوباً . ويبلغ طوله زهاء ٦٥٠ كيلومتراً بينما يتراوح عرضه بين ٤٥ – ١٤٠ كيلومتراً . ويخترقه النهران دجلة والفرات ويجريان في أرض منخفضة لايتجاوز ارتفاعها ٣٢ متراً عن سطح البحر بينما لايزيد ارتفاع اي جزء من السهل عن مائة متر فوق مستوى سطح البحر.

وإذ يرتفع وادي نهر الفرات في القسم الشمالي من السهل على وادي دجلة ، فقد افاد العراقيّون القدماء من هذه الظاهرة وقاموا بشق الجداول والأنهار من نهر الفرات باتجاه نهر دجلة ، وفي الأجزاء الجنوبية من السهل تنقلب الصورة حيث يصبح وادي دجلة اكثر ارتفاعاً من وادي الفرات ، ولهذا شقت القنوات والجداول من دجلة باتجاه الفرات .

وفي القسم الجنوبي من السهل الرسوبي توجد منطقة الأهوار والمستنقعات التي تشغل مساحة كبيرة من السهل وتعيش فيها انواع معينة من النباتات والحيوانات ويكثر فيها البردي والقصب بالدرجة الاولى ويعيش فيها الجاموس فضلاً عن الحيوانات المائية كالاسماك والطيور وغيرها ، وقد طوّر سكان المنطقة منذ اقدم العصور حياتهم البدائية بصورة عجيبة لتلائم طبيعة المنطقة القريبة .

تتميز تربة السهل الرسوبي الغرينية بخصوبتها المتناهية المتجددة سنوياً حتى سميت بأرض السواد لكثرة نباتاتها ، وقد ساعد ذلك على نشوء اولى القرى الزراعية في العصر الحجري المعدني . وشهد السهل الرسوبي نمو وازدهار اقدم حضارة اصيلة معروفة فقد قامت فيه اولى المدن المتقدمة التي كانت نواة دول المدن السومرية كما سيأتي ذكر ذلك بالتفصيل .

جـ – أنهار العراق :

يخترق ارض العراق النهران الرئيسان دجلة والفرات ، وتصب فيها داخل الأراضي العراقية عدة فروع رئيسة . ولهذه الأنهار أهمية كبرى في تاريخ الحضارات التي نشأت في وديانها الى درجة سمى الاغريق بلاد بابل وآشور ببلاد (مابين النهرين) ، كما سميت (وادي الرافدين) . وترجع اسماء معظم الانهار وروافدها الى العصور القديمة وربما يرجع بعضها الى عصور ماقبل التأريخ ، فقد ورد اسم نهر الفرات في النصوص المسمارية على صيغة بُرانُن Buranun أو بُرانُنّا Buranunna وبالصيغة الأكدية پُراتِ Purati او پُراتُم Puratum . اما دجلة ، فقد ورد اسمه على هيئة إدجنَ Idigna .[1] كما وردت اسماء الزابين في النصوص الأكدية .

ينبع نهر دجلة من المرتفعات الواقعة جنوبي شرقي تركيا وتصب فيه فروع عدة تغذيه بالمياه قبل ان يدخل الأراضي العراقية فيتكون مجراه الرئيس الذي ينحدر باتجاه الجنوب الشرقي ويدخل الحدود العراقية قرب بلدة فيشخابور. ويبلغ طول دجلة الكلي ١٧١٨

(١) انظر طه باقر، المقدمة ، ص ٧٤– ٧٦.

كيلومتراً منها ١٤١٨ كيلومتراً داخل الحدود العراقية والباقي في الأراضي التركية والسورية. ويصب في دجلة بعد دخوله الأراضي العراقية نهر الخابور ثم الزابان الاعلى، او الكبير، عند الموضع المسمى بالمخلط جنوبي مدينة نمرود، والأسفل، أو الاصغر، جنوبي الشرقاط. اما نهر العظيم فيصب في دجلة بين بلد وبغداد ويلتقي نهر ديالى بنهر دجلة جنوبي مدينة طيسفون بقليل. وكان مجرى دجلة في منطقة الكوت هو المجرى الشرقي الذي يمر الآن بمدينتي الكوت والعمارة غير انه غيّر مجراه في اواخر العهد الساساني الى المجرى الغربي المسمى الآن الدجيلة ثم عاد ثانية في القرن السادس عشر الميلادي الى مجراه الأول. وينتهي دجلة عند القرنة فيصب بشط العرب.

وتنبع جميع روافد دجلة، باستثناء العظيم، من المناطق الجبلية الشرقية الواقعة خارج الحدود العراقية، وتروي مساحات واسعة من الأراضي المحيطة بها.

أما نهر الفرات، فينبع من الأجزاء الشمالية الشرقية من بلاد الأناضول ويتألف في منابعه العليا من فرعين رئيسين هما فرات صو ومراد صو اللذين يكونان مجراه الرئيس. ويبلغ طول نهر الفرات ٢٣٢٠ كيلومتراً منها ٤٥٥ كيلومتراً داخل الأراضي التركية و ٦٧٥ كيلومتراً داخل الاراضي السورية و ١٢٠٠ كيلومتراً داخل الأراضي العراقية. وتصب في الفرات عدة فروع خارج الحدود العراقية أهمها البالیخ والخابور. ويجري الفرات من بعد اتحاد فرعيه الرئيسين باتجاه الجنوب الغربي ثم يغير اتجاهه الى الجنوب الشرقي ويكون كثير التعرج والالتواء وهو يقطع الحدود التركية – السورية عند مدينة جرابلس (كركميش) ومن هناك يتجه نحو الغرب ثم الى الشرق ويستمر باتجاهه هذا حتى يخترق سهل سوريا واقليم مابين النهرين (الجزيرة) ثم يتجه نحو الأراضي العراقية فيأخذ مجراه باتجاه الجنوب الشرقي، وكان الفرات قد غيّر مجراه في السهل الرسوبي عدة مرات، والمنطقة المحصورة بين الفرات ورافده البالیخ والخابور ذات اهمية خاصة فقد قامت فيها مراكز حضارية مهمة اثّرت في سياسة الدولة الآشورية تأثيراً واضحاً.

وقد كان النهران الرئيسان دجلة والفرات يصبّان بشكل منفصل في الخليج ولا يعرف متى كان التقاؤهما وتكوينها شط العرب. عند القرنة ويمتد شط العرب حوالي ٢٠٤ كيلومترات ويصب فيه نهر السويب والكارون الذي يصب فيه عند المحمرة ويتراوح عرض الشط بين ٤٠٠ متر عند مدينة العشار الى ١٥٠٠ متر عند مصبه في الخليج.

٣- المناخ :

تؤكد الأبحاث الآثارية والجغرافية الخاصة بالمنطقة أن مناخ العراق لم يتغير تغييراً جوهرياً منذ العصر الحجري الحديث غير أن المناخ في العصور السابقة كان يختلف تمام الاختلاف نتيجة الزحوف الجليدية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية والتي حدثت في مدة العصور الحجرية القديمة. فقد بينت الأبحاث الجيولوجية انه كان قد حدثت أربعة عصور، او زحوف جليدية متتابعة، وكانت تفصل كل عصرين من العصور الجليدية مدة يحل فيها دفء نسبي. وكان يقابل كل عصر جليدي في الأجزاء الشمالية من اوروبا وامريكا عصر ممطر ورطب في الشرق الأدنى، بما فيه العراق، بينما كان الجفاف يحل في الشرق الأدنى في مدد الدفء التي تفصل كل عصرين جليديين وقد حلت مدة الجفاف الأخيرة في الشرق الادنى منذ الألف العاشر قبل الميلاد، اي قبيل بداية العصر الحجري الحديث وهكذا كان تأثير الزحوف الجليدية واضحاً على مناخ العراق وعلى حياة الانسان والحيوان والنبات فيه أيضاً.

فبعد ان كانت المنطقة تنعم بالأمطار الغزيرة والنباتات الكثيفة التي عاشت عليها الحيوانات المختلفة واعتمدت عليها وعلى الحيوانات حياة الانسان، حلّ الجفاف في بعض مناطق الشرق الأدنى القديم فاضطر الانسان الى ايجاد وسائل جديدة لتوفير القوت، فكان أن اهتدى الى الزراعة والتدجين.

ويتباين مناخ العراق من منطقة الى اخرى ويمكن وصفه بصورة عامة بأنه مناخ قاري شبه مداري، تشبه امطاره في نظامها مناخ البحر المتوسط، ومناخ المنطقة الجبلية شبيه بمناخ البحر الأبيض المتوسط حيث الشتاء بارد والثلوج كثيرة والصيف معتدل والأمطار غزيرة. اما منطقة السهوب فتتمتع بمناخ انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي الحار وتقل فيها الأمطار قياساً مع المنطقة الجبلية. أما المنطقة الصحراوية والسهل الرسوبي فتتمتع بحرارة شديدة وتقل فيها الامطار وتزداد الرطوبة النسبية.

أثر الخلفية الجغرافية في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة

يؤكد هذا الاستعراض الموجز لأهم العوامل الجغرافية في العراق مدى تأثير هذه العوامل في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة وطبعها بطابع خاص مميز، غير ان ذلك لايعني أن الخلفية الجغرافية كان لها الدور الأول والأساس في نشوء وتطور الحضارة بل لابد من التأكيد ثانية أن العامل الفاعل والأساس في نشوء الحضارات بصورة عامة وتطورها كان ومازال هو الانسان. ولعل دور الانسان العراقي القديم في وضع الأسس التي قامت عليها حضارته الاصيلة كان اكبر واعمق اثراً من غيره في المناطق الاخرى نظراً لما امتازت به طبيعة ارض الرافدين الجغرافية، لاسيما قسمها الجنوبي، من عنف وقسوة وتباين في التضاريس والمناخ من منطقة الى اخرى حتى يصعب استغلالها وتسخيرها لخدمة الانسان مما دفع الى بذل المزيد من الجهود والعمل المثابر الدؤوب، بل ان حياة الانسان في العراق القديم كانت صراعاً طويلاً وعنيفاً مع الطبيعة، كما تعكس ذلك قصصه واساطيره، وكانت الغلبة في النهاية للانسان، وكان من نتائج ذلك الصراع والتفاعل مع الطبيعة حضارة العراق الاصيلة.

ومن الممكن للباحث ان يتلمس مواطن تأثير العوامل الجغرافية والبيئة الطبيعية في حضارة العراق القديمة في الجوانب الآتية:

١- في التركيب السكاني:

يقع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية، ولا سيما سهله الرسوبي، بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية نسبياً على الرغم من اختلافهما البيّن في المناخ والتضاريس، الاولى هي المنطقة الجبلية في أطراف العراق الشمالية والشمالية الشرقية والثانية البوادي الصحراوية في الأطراف الغربية والجنوبية الغربية، وبين هاتين المنطقتين يمتد السهل الرسوبي اقليماً مفتوحاً لايفصله عنها أي حاجز طبيعي، باستثناء نهر دجلة بالنسبة للمنطقة الجبلية ونهر الفرات بالنسبة للمنطقة الصحراوية، وهكذا تتابعت هجرة الاقوام الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي والاقوام الهندية- الاوربية القادمة من الشرق والشمال الشرقي على مر العصور، وكانت الهجرات الجزرية على نطاق واسع الى درجة انها كوّنت في نهاية الأمر الجزء الأعظم من سكان العراق في حين تغلغلت بعض

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

الاقوام الهندية – الاوربية واستقرت بين السكان في اثناء الغزو الذي تعرض له العراق من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية وكان لذلك اثر كبير وواضح في التركيب السكاني في العراق.

٢ – في نشوء أول انظمة الحكم :

يعد العراق من البلدان الغنية جداً بمياهها العذبة وتربتها الخصبة مما ساعد على توجه سكانه منذ اقدم العصور نحو الزراعة في اراضي العراق التي تشقها انهار عدة ، ففضلاً عن النهرين الرئيسين دجلة والفرات اللذين يمتدان على طول اراضي القطر ويجريان من الشمال الى الجنوب هنالك روافد دجلة الرئيسة التي تحمل كميات هائلة من المياه لتصبها في نهر دجلة . كما أن معدلات سقوط الامطار في القسم الشمالي باكمله كافية لنمو الحبوب والبقول والبساتين على اختلافها مما دفع السكان الى الاعتماد على الزراعة الديمية خاصة وان الأراضي الزراعية المحيطة بشواطئ الانهار مرتفعة نسبياً عن مستوى المياه ومن ثم يصعب سقيها سيحاً بوساطة القنوات والجداول . وقد كان من نتائج ذلك ان ظلت القرى الزراعية المنتشرة في القسم الشمالي من العراق صغيرة ومعتمدة كلياً على مياه الامطار ومكتفية ذاتياً ، وما تصرفه من جهود لايعدو حراثة وزراعة الأرض والانتظار حتى يحين موعد الحصاد ، لذلك لم تكن حاجة السكان ماسة لايجاد طرق ووسائل لادارة شؤون المجتمع تشمل عدداً كبيراً من القرى ، بل اكتفت كل قرية او مدينة صغيرة بما لديها وعاشت بهدوء واطمئنان ، اما في القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، فإن معدل سقوط الأمطار كان ومازال غير كاف لأي نوع من انواع الزراعة لذا كان لابد للانسان بعد ان استقر في هذا الجزء من العراق منذ الألف الخامس قبل الميلاد ان يعمل على ري الأراضي الزراعية بالطرق الاصطناعية فيشق الترع والجداول ويقيم الأسداد لتوجيه مياه الأنهار الى الأراضي المزروعة ، وقد ساعده في ذلك طبيعة الأراضي المحيطة بنهري دجلة والفرات حيث كانت منخفضة بالنسبة لمستوى المياه فكان بالامكان شق القنوات والجداول من النهر وري الأراضي سيحاً دون الحاجة الى وسائل اخرى لرفع منسوب المياه . وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت المنطقة باكملها مهددة بأخطار الفيضانات المدمّرة والمفاجئة وكان على الانسان اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتصريف المياه الفائضة واقامة السدود ودرء اخطار الفيضانات وكان القيام بأي مشروع من مشاريع الري يتطلب جهوداً كبيرة تفوق جهود الأفراد والجماعات الصغيرة ، وكان لزاماً على الافراد والجماعات الصغيرة ان تتكاتف وتتعاون وتعمل سوية

لتنفيذ مثل هذه المشاريع فظهرت الحاجة الى نوع من الادارات المركزية للاشراف على تنظيم تلك الجهود وتوجيهها بما يخدم مصلحة الجماعة فعمدوا الى انتخاب واحد او اكثر من بينهم للقيام بهذه المهمة وكان ذلك النواة التي نما منها أول انظمة الحكم.

ولما كان السكان موزعين على المناطق المختلفة وكان توزيعهم يحدد بالدرجة الرئيسة وجود مصادر المياه الكافية لري الأراضي ، ونظراً لتعدد الأنهار وكثرة الاهوار والمستنقعات ، فقد نمت اكثر من ادارة مركزية واحدة في المنطقة ، كانت كل منها نواة لقيام دولة مدينة صغيرة تتمركز حول احدى المدن الرئيسة. وهكذا كان لطبيعة ارض العراق وانهارها ومناخها الاثر الكبير في نشوء أول انظمة الحكم في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير في حين تأخر ظهور هذه الأنظمة في القسم الشمالي من العراق عدة قرون.

٣ – كثافة السكان :

تعتمد الحياة في وادي الرافدين بالدرجة الاولى والأساس على خصوبة التربة ووفرة المياه ، وحيث ان التربة متوفرة في معظم انحاء العراق ، ولا سيما في سهله الرسوبي ، فقد كانت مصادر المياه ، اي الانهار، هي التي تحدد توزيع السكان على المناطق المختلفة ، ولهذا توزعت القرى والمدن على شواطئ الانهار. وقد كان من مميزات انهار العراق انها تنقل كميات هائلة من الطمى والغرين سنوياً يترسب بعضها في قيعانها فتسبب بذلك مشاكل كثيرة منها ارتفاع قيعان النهرين دجلة والفرات عن السهل الرسوبي مما يزيد في خطورة الفيضانات وقد يؤدي ذلك الى تدمير القرى والمدن ومنها تكوين الجزر الرملية في مجاري النهرين. كما كان من النتائج الخطيرة للرواسب تبديل الانهار لمجاريها في مدد زمنية مختلفة الأمر الذي يدعو الى هجرة السكان للمدن والبحث عن مستوطنات جديدة تقام على شواطئ مجاري الأنهار الجديدة.

وقد بدل نهر دجلة مجراه بين المجرى الرئيسي ومجرى الدجيلة ثم عاد الى مجراه القديم وبدل الفرات مجراه اكثر من مرة في ازمان مختلفة ومن الممكن تتبع مواقع المدن القديمة المهجورة والواقعة الآن وسط ارض جرداء في حين كانت فيما مضى تقع على ضفاف النهر مثل مدن نفر والوركاء وايسن وغيرها.

كما ادرك العراقيون القدماء منذ فترة مبكرة من العصور التاريخية خصائص النهرين الرئيسين دجلة والفرات الطبيعية وارتفاع وادي الفرات عن وادي دجلة في السهل الرسوبي ابتداء من منطقة الفلوجة – بغداد فاستغلوا هذه الظاهرة وشقوا الكثير من الانهار والجداول من نهر الفرات باتجاه دجلة لري اراضي شاسعة تقع بين النهرين ويمكن مشاهدة آثار تلك الانهار والجداول واطلال المدن والقرى التي كانت قائمة على شواطئها. كما افاد العراقيون القدماء من بعض المنخفضات الطبيعية القريبة مثل منخفض الحبانية وهور ابي دبس. وفضلاً عن ذلك، فقد تركزت مواقع استيطان الانسان، ولاسيما في المدد المبكرة، على ضفاف نهر الفرات، الذي كان اقل انحداراً من نهر دجلة فكانت فيضاناته اقل عنفاً وتقلباً.

كما كان لمشكلة ملوحة التربة اثرها في توزيع السكان وانتقالهم من منطقة الى اخرى. فالمعروف أن زيادة نسبة الملوحة في التربة عن حد معين يجعلها غير صالحة للزراعة مما كان يضطر السكان الى هجر المدن والقرى الانتقال الى مناطق اخرى اقل ملوحة وكانت نسبة الملوحة تزداد سنة بعد اخرى وتهدد السكان بقلة خصوبة الأرض وكان من اسبابها حرارة الجو وزيادة تبخر الماء وعدم معرفة القوم بوسائل التصريف، اي البزل، الذي ينبغي ان يكون ملازماً لمشاريع الري. وان هذه المشكلة كانت وماتزال الى الآن تزداد بجسامتها وزيادة اخطارها، وقد عدّها العراقيون القدماء من علامات غضب الآلهة عليهم، كما ذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنها كانت السبب في انتقال المراكز الحضارية في عصور فجر السلالات من الجنوب الى الشمال تدريجياً.[1]

٤ – التأثير النفسي:

اتصفت البيئة الطبيعية في العراق، ولاسيما في قسمه الجنوبي، بالقسوة والعنف. فضلاً عن تباين مناخ المواسم المختلفة والتفاوت الشديد بين درجات الحرارة صيفاً وشتاءً ونهاراً وليلاً، وتباين المناطق المختلفة التي يتكون منها العراق، فقد اتسمت فيضانات انهاره بالعنف والقوة وعدم الانتظام في المواعيد وعدم ملاءمة مواعيد الفيضانات لمواسم الدورة الزراعية خلافاً لما كانت عليه الحال في مصر المعتمدة على نهر النيل في حياتها. فالمعروف ان نهر النيل يتصف باطراد فيضانه وانتظامه وبأنه يحدث في وقت يلائم الدورة الزراعية، وكان من نتائج هذا العنف والقسوة في طبيعة وادي الرافدين، ان اتصفت

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٣٨– ٣٩.

الحضارة التي قامت في السهل الرسوبي بالعنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت وطغت عليها الناحية العملية في الحياة ، وقد انعكس ذلك على نفسية الفرد العراقي ، في حين ان حضارة مصر قد اتسمت بالهدوء والطمأنينة والسيطرة على البيئة والتفكير بالخلود فيما بعد الموت .

٥ – المعتقدات الدينية :

اثرت طبيعة ارض الرافدين وقسوتها وصعوبة السيطرة عليها في معتقدات القوم الدينية وتصوراتهم واتجاهات تفكيرهم ، فجاءت القصص والاساطير الدينية مليئة بالصراع والاحتراب من اجل البقاء . كما شغلت العراقيين القدماء الحياة وقسوتها فلم يفكروا الا بها وبما تتطلبه من صراع وكفاح فلم يبلوروا فكرة واضحة عن الحياة الثانية بعد الموت بل ظنوا ان العقاب والثواب سيكونان في هذه الدنيا فقط خلافاً لما كانت عليه الحال عند المصريين القدماء الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بالحياة الثانية وعدّوها اكثر اهمية من الحياة الاولى ، وما تشييدهم الاهرامات الضخمة والمدافن الكبيرة واستخدامهم التحنيط للمحافظة على جثث الموتى الا أمثلة على هذا الاهتمام .

٦ – الحياة الاقتصادية :

على الرغم مما امتاز به العراق من خصوبة تربته ووفرة مياهه ، الا أنه ، ولا سيما قسمه الجنوبي يفتقر الى المواد الأولية الضرورية لقيام ونمو الحضارة كالمعادن والأخشاب والاحجار على اختلافها . وكان على العراقيين القدماء ان يستوردوا هذه المواد من البلدان والأقاليم المجاورة ، فنشطت التجارة الخارجية ونظمت القوافل التجارية ووضعت القواعد الرصينة لمثل هذه التجارة . وقد أدى افتقار العراق للمواد المذكورة الى سعي الحكام والملوك على السيطرة على طرق المواصلات المؤدية الى مصادر هذه المواد ، فقامت الحروب والمنازعات بين الدول والممالك الصغيرة المتجاورة ، وكان ذلك من اسباب توحيد الدول الصغيرة في دولة واحدة . مالبث ان غدت امبراطورية واسعة تسيطر على جميع الطرق التجارية التي تصل بين البحر الاعلى (الأبيض المتوسط) والبحر الاسفل (الخليج العربي) ، وهذا هو ماحدث في عهد الدولة الأكدية وعهد سلالة اور الثالثة وسلالة حمورابي وغيرها . بل ان العراقيين القدماء ، ولنقص المواد الاولية عندهم قد اقاموا لهم مراكز تجارية خارج العراق ،

فقد اثبتت التنقيبات الاثرية وجود اكثر من عشرة مراكز تجارية آشورية من العصر الآشوري القديم (حدود ٢٠٠٠ – ١٨٠٠ ق.م) في اقليم كبدوكيا جنوب شرقي الاناضول، كما كانت علاقات بلاد سومر واكد ببلدان الخليج وما وراء الخليج قوية جداً، مثل علاقاتهم مع دلمون (البحرين) ومگان (عمان) وميلوخا (وادي السند او الحبشة).

أما في داخل العراق، فلقد كانت خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ حوافز وعوامل وجهت السكان بصورة عامة الى الزراعة وانتاج الحبوب وزراعة البساتين. ولموقع العراق التجاري المهم اهتم سكان بلاد بابل بالتجارة، وبغية تنشيط التجارة وتنظيمها، صدرت القوانين والمراسيم الملكية لوضع الضوابط الخاصة بالتجارة باشكالها المختلفة حتى غدت النظم التجارية العراقية القديمة مثلاً اقتبست منه الأمم الاخرى، بل ان بعض الباحثين المحدثين اطلقوا اسم مجتمع التجار على المجتمع العراقي في العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م).

٧– طرق المواصلات:

وفّرت انهار العراق الرئيسة دجلة والفرات، والفرعية طرقاً مائية جيدة قليلة التكاليف لنقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين كما استخدمت لأغراض الصيد والحرب. ومما زاد من اهمية المواصلات النهرية ان معظم مدن العراق القديم كانت تقع على شواطئ الانهار او قريباً منها. ولقد طوّر العراقيون القدماء وسائط النقل النهرية منذ مدد مبكرة فصنعوا القارب الشراعي منذ الألف الرابع قبل الميلاد، كما صنعوا قوارب مختلفة الاشكال والأحجام لنقل البضائع والافراد واستخدموا السفن الشراعية والاكلاك والعوامات والقفف والقرب المنفوخة. وقد نظمت القوانين البابلية القديمة اسلوب استخدام السفن والقوارب واجور ملاّحيها وصانعيها مما يشير الى اهمية وسائط النقل النهرية قياساً لغيرها في المجتمع العراقي القديم.

ولم يقتصر استخدام وسائط النقل النهرية على داخل القطر بل ان السفن والقوارب استخدمت للاتصال بالبلدان والاقاليم المجاورة ولاسيما في الخليج العربي وبلاد الشام، وقد تفاخر سرجون الأكدي بأن سفن دلمون ومگان وميلوخا كانت ترسو في ميناء اكد.

٨- الآثار الباقية :

من المؤكد لطبيعة مناخ العراق ونوعية تربته وافتقار أرضه الى الأحجار والمعادن اكبر الاثر في الآثار التي خلفها لنا العراقيون القدماء. فرطوبة الجو والتربة تسببت في تلف جميع المواد العضوية التي خلفها الانسان. وندرة الاحجار ادّت الى توجه العراقيين القدماء لاستخدام الطين المجفف بالشمس مادة اساسية للبناء ، والمعروف ان الطين الذي يعرف عادة باللبن لايقاوم عوامل التعرية الطبيعية الا مدة محدودة من الزمن ، فكان ان تهدمت جميع الأبنية التي خلفها الانسان ولاسيما في القسم الجنوبي من العراق. اما في القسم الشمالي منه ، فقد استخدمت الحجارة للبناء ، ولكن على نطاق ضيق .

كما يلاحظ قلة المسلات والتماثيل والنصب المصنوعة من الحجر في بلاد بابل وكثرتها في بلاد آشور للسبب نفسه ، ولهذا اكتشفت المئات من المنحوتات الجدارية والنصب والتماثيل والمسلات في بلاد آشور وهي تزين الآن قاعات اشهر المتاحف العالمية. من جانب آخر فقد كان لاستخدام الطين مادة اساسية للكتابة عليها أثره في بقاء معظم الالواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية الى الوقت الحاضر، ولو ان العراقيين القدماء قد استخدموا ورق البردي او الجلود او غيرها من المواد العضوية السريعة التلف بالتربة الرطبة ، لفقدنا معلومات غزيرة وهائلة من التي حصلنا عليها مدونة على الواح الطين والحجارة.

٢

في معنى التاريخ

التأريخ:

التأريخ لغة (تعريف الوقت) أي تحديد الزمن، والتوريخ مثله، فيقال: أرّخ الكتاب ليوم كذا أي وقعّه[١]. وكلمة تأريخ، بالالف اللينة او بالهمزة، مشتقة اصلاً من أرّخ يؤرّخ فهو مؤرِّخ، التي ترجع باصولها القديمة الى الاسم (أرخُ) او (ورخُ) الذي يعني في اللغات الجزرية، ومنها اللغة الاكدية: (شهر) لذا سمي القمر في بعض تلك اللغات، كالعربية الجنوبية (ورخُ)، ومن هنا جاء في معنى التأريخ انه (سجل لاحداث الماضي وتحديد ازمنتها).

وكان مفهوم التأريخ يقتصر على تدوين الاخبار والحوادث السياسية والعسكرية كاخبار الحكام والملوك وتوليهم الحكم وقيادتهم الحملات العسكرية وتعاقب السلالات الحاكمة، ثم اتسع المدلول ليشمل دراسة وتحليل احوال المجتمعات البشرية الماضية من جوانبها المختلفة وما انجزته من حضارات وخلّفته من آثار وتراث وماتركته من تأثيرات في حياة المجتمعات الاخرى بشكل مباشر أو غير مباشر.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ٤٨١.

وكان من نتائج زيادة معلوماتنا عن التأريخ بصورة عامة، والتأريخ القديم بشكل خاص، نتيجة التنقيبات الاثرية وماأسفرت عنه من نتائج باهرة، وفك رموز الكتابات القديمة وقراءة النصوص المسمارية وغيرها، وتزايد اهتمام الباحثين بدراسة التأريخ، واتساع مفهوم التأريخ واحتوائه مساحة اكبر، ان بدأ البحث والتدقيق في عوامل نشوء الحضارات واسباب ازدهارها ومن ثم عوامل توقفها وركودها وأخيراً انحلالها، فعقدت المقارنات بين الحضارات المختلفة من اجل استنباط مايمكن استنباطه من قوانين وقواعد عامة لتفسير الحوادث التأريخية وفهم اسبابها ونتائجها، ولكن لما تبلغ هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والاطراد [1]. ومع ذلك، وطالما كانت النفس البشرية وطبيعتها واحدة في مختلف الازمنة والعصور واستجابتها وانعكاساتها لظروف معينة متشابهة غالباً ماتكون متشابهة، فان التعرف على كيفية استجابة الانسان للظروف المختلفة التي مرّت عليه وماتوصل اليه من خلال التجارب وتراكم الخبرات لديه يصبح ضرورياً لفهم حاضر الانسان وبناء المستقبل من خلال الافادة من تلك التجارب والخبرات وتجنب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها الاسلاف.

عصور ماقبل التأريخ والعصور التأريخية:

يعني التأريخ بدراسة وتتبع حياة الانسان منذ اقدم وجوده حتى الآن. وكان الانسان قد خلق ووجد على سطح الارض في مدة لايمكننا تحديدها ولكنها تمتد دون شك الى ملايين السنين، الا ان اقدم مخلفّاته التي تركها وتم اكتشافها حتى الآن ترقى بتأريخها الى حدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت [2]، وقد تكشف لنا التنقيبات المقبلة على بقايا أقدم عهداً ترجع بمعرفتنا لعمر الانسان على الارض مدة اخرى. ونظراً لطول الازمنة التي عاشها الانسان على الارض وكثرة مخلفاته وتنوعها، وتيسيراً للباحث لمتابعة تطور حياته وحضاراته، فقد تعارف الباحثون في التأريخ القديم على تقسيم تلك الازمنة الى عدة اقسام واطوار مستندين في ذلك على الاختلافات الجوهرية التي طرأت على حياة الانسان وعلى التمييز بين مخلفاته الكثيرة من حيث الشكل والنوع والطراز والزخرفة والصناعة والى غير ذلك مما يميز هذا الأثر عن غيره من الآثار، وعلى ظهور او ابتداع بعض العناصر والمظاهر

---

(١) انظر تفصيل ذلك: طه باقر، المقدمة، ص ١٠٤ – ١٠٦.

(٢) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، بغداد، ١٩٨٨، ص٧.

الحضارية المهمة التي غيّرت من الحياة جذرياً وذلك قياساً بالأزمنة القديمة الاولى. اما العصور التالية، وهي العصور التي نعرف عنها اشياء كثيرة بفضل اختراع الكتابة، فقد اعتمد الباحثون على بعض الاحداث الفاصلة للتمييز بين عصر وآخر منها.

إن ظهور بعض المظاهر الحضارية اوالاختراعات المهمة التي غيرت من حياة الانسان، كالزراعة والكتابة مثلاً، ووقوع بعض الاحداث المهمة التي عدّت حدوداً فاصلة بين العصور، لم يكن في وقت واحد في جميع انحاء العالم ولهذا فأن تأثيرها لم يكن على جميع انحاء العالم، لذا كان لكل منطقة من مناطق العالم الرئيسة، كمنطقة الشرق الادنى ومنطقة اوربا ومنطقة امريكا، تقسيمات خاصة لتأريخ الانسان تعكس تطور حياته وتطور حضارته. ولكن ذلك لايعني بالطبع ان التأريخ القديم يعترف بالحدود السياسية الضيقة للبلدان والاقطار المختلفة في دراسته لحضارة الانسان وتطورها عبر العصور، بل الامر على العكس من ذلك تماماً اذ لايمكن للباحث في تأريخ العراق القديم مثلاً الفصل بين تأريخ العراق وتأريخ الاقطار المجاورة، مثل بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية التي تئلف جميعها منطقة واحدة كانت في احيان كثيرة، وخاصة وادى الرافدين وبلاد الشام، تحت سلطة مركزية واحدة بوصفها اجزاء من دولة واحدة. واستناداً الى ذلك، كان من التقسيمات الرئيسة للازمنة والعصور التي عاش فيها الانسان على الارض هو التقسيم الى عصور ماقبل التأريخ Pre-historic periods ، وعصور تأريخية Historic Periods، اما عصور ماقبل التأريخ فهي العصور التي لم يكن قد دوّن فيها التأريخ بعد، وحيث ان الكتابة هي وسيلة لتدوين التأريخ لذا جعل الباحثون تأريخ ابتداعها وسيلة للتدوين وكتابة التأريخ الحد الفاصل بين عصور ماقبل التأريخ والعصور التأريخية، وكما هو معروف فأن تأريخ اختراع الكتابة لم يكن واحداً في جميع انحاء العالم، لذا اختلفت العصور التأريخية التي تتزامن بدايتها مع بداية اختراع الكتابة في الأقطار والبلدان المختلفة. ومن المعروف ايضاً والمتفق عليه بين الباحثين، ان القسم الجنوبي من العراق، وهو ما كان يعرف ببلاد سومر، كان قد شهد اختراع اول نوع من انواع الكتابة المعروفة في العالم قاطبة، تلك الكتابة التي تطورت وعرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية، وذلك في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م). لذلك فأن العصور التأريخية تبدأ في بلاد سومر، استناداً الى ذلك، من أواسط الألف الرابع قبل الميلاد. وقد بينت الدراسات الحديثة أن الكتابة في مراحلها الاولى لم تكن تستخدم لتدوين التأريخ كما انها كانت غير متطورة ومحدودة الاستخدام لذا لايمكن عدّ المدة الاولى من بعد اختراعها عصراً من العصور التأريخية، بل يفضل ان تسمى تلك المدة بالعصر الشبيه بالكتابي Protoliterate period او الشبيه بالتأريخي

proto – history period، طالما لم تكن تدون فيها الاحداث التأريخية، وقد حدد الباحثون هذا العصر بالمدة الواقعة من اول اختراع الكتابة في حدود ٣٥٠٠ ق.م وحتى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٠٠٠ ق.م).

أما بقية الاقطار والبلدان، فقد اخترعت الكتابة فيها، او اقتبست، في مدة لاحقة. ففي مصر كان اختراع الكتابة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، اي من بعد اختراعها في بلاد سومر ببضع قرون، الا انها كانت اختراعاً مستقلاً وليس اقتباساً، ثم تتابع اختراع، او اقتباس، الكتابة واستخدامها للتدوين من بعد ذلك في كل من بلاد عيلام وجزيرة كريت واسيا الصغرى وبلاد الشام وبلاد اليونان واوربا وغيرها. ومن الجدير بالاشارة اليه ان بلاد اليونان المتحضرة العريقة التي يعّدها الاوربيون الموطن الاول للحضارات الغربية، لم تستخدم فيها الكتابة للتدوين الا في القرن التاسع قبل الميلاد، اي من بعد استخدامها في كل من العراق ومصر بما يزيد عن ألفي سنة، في حين لم تعرف الاجزاء الشمالية الغربية من اوربا، وهي الدول الاسكندنافية، الكتابة الا في القرن الاول الميلادي اي ان بداية العصور التأريخية في بلاد اليونان قد تأخرت الى القرن التاسع قبل الميلاد في حين لم تبدأ العصور التأريخية في شمال غرب اوروبا الا في القرن الاول الميلادي[1]، بل ان هناك بعض المناطق في العالم الآن، ولاسيما في اواسط افريقيا وبعض اجزاء استراليا، مانزال لاتعرف الكتابة، اي انها مانزال تعيش في عصور ماقبل التأريخ.

ان هذا التقسيم للأزمنة الطويلة التي مرت على الانسان لايساعد كثيراً في دراسة وتتبع المراحل التي مرّت على الانسان في حياته عبر هذه الازمنة، وحيث ان آثار ومخلفات الانسان من عصور ماقبل التأريخ كثيرة ومتنوعة، فقد حاول الباحثون تصنيف تلك الآثار والبقايا استناداً الى اشكالها وانواعها وطريقة صنعها واستناداً الى امكنة وازمنة صنعها، وقسموا عصور ماقبل التأريخ في ضوء ذلك. فسميت العصور الاولى التي استخدم فيها الانسان الحجارة مادة اساسية لصنع الآلات والادوات بالعصور الحجرية، وعندما

---

(١) حول تاريخ ظهور الكتابات واستخدامها في العالم انظر:

Gelb, J., Astudy of Writing,Chicago, 1944; Driver, D., Semitic Writing, Chicago, 1976; Diringir, D., Writing, London, 1962;

ل كيلهامر، الكتابة المسمارية، سومر ١٢ (١٩٥٦) ص ٩٠-١٠٠. ترجمة محمود الأمين.

عامر سليمان، اللغة الأكدية، موصل، ١٩٩١.

اكتشف المعدن واستخدمه وصنع منه بعض الآلات والأدوات، سمي ذلك العصر بالعصر الحجري المعدني، لأن الأنسان استخدم الحجارة الى جانب المعدن، وتختلف المدة الزمنية التي استخدمت فيها المعادن من منطقة الى اخرى، شأنها في ذلك شأن اختراع الكتابة، لذلك اختلفت بدايه العصر الحجري المعدني بحسب المناطق والبلدان وينطبق الشيء نفسه على معظم العصور الاخرى كما سيأتي ذكر ذلك.

تؤلف عصور ماقبل التأريخ الجزء الأعظم من حياة الانسان على الارض وقد تصل الى اكثر من ٩٨٪ من عمره على الأرض شغل معظمها مايعرف بالعصور الحجرية.

أما التاريخ القديم Ancient History فأن بدايته ترجع الى اقدم الأزمنة التي عاش فيها الانسان على وجه الأرض، بيد ان نهايته تختلف من منطقة الى اخرى حسب اهمية وجسامة الاحداث التي وقعت في كل منطقة ومدى ماغيرته من حياة الانسان فيها بما يؤهلها لأن تكون حدّاً فاصلاً في التأريخ ونهاية للتأريخ القديم. وأما في العراق، وهو جزء من الوطن العربي الكبير فقد كان ظهور الاسلام ودخول الاراضي العربية تباعاً تحت لوائه أهم حدث شهدته المنطقة عبر العصور الطويلة التي مرت بها حتى مجيء هذا الدين، لذلك عدّ الباحثون هذا الحدث العظيم نهاية للتأريخ القديم [1]، وبداية لتأريخ جديد، في حين عدّ تأريخ روما وسقوطها عام ٤٧٦ ميلادية نهاية للتأريخ القديم في اوربا لأثر ذلك الكبير في تأريخ الأقطار الأوربية المختلفة.

واستناداً الى هذا التقسيم، فأن المقصود بتأريخ العراق القديم، او العراق في التأريخ القديم، الأزمنة والعصور الطويلة التي مرّت على الانسان منذ اقدم الأزمنة التي عاش فيها على هذه الارض حتى دخول العراق تحت لواء الاسلام بعد معركة القادسية عام ٦٣٧ ميلادية التي حررت العراق من السيطرة والاحتلال الساساني.

تدوين التأريخ:

كان الأعتقاد السائد حتى اواسط القرن الماضي ان كتاب العهد القديم (التوراة) هو اقدم المدونات التأريخية المعروفة ويليه مادوّنه الكتبة الكلاسيكيون من يونان ورومان، وفي مقدمتهم هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكان اول من استخدم كلمة تأريخ History، الا ان التنقيبات الاثرية وما كشفت عنه من نصوص، وفك رموز الكتابة المسمارية وقراءة نصوصها المكتشفة بينت بكل وضوح ان العراقيين القدماء كانوا

(١) طه باقر، المقدمة، ط٢، ١٩٥٥، ج١، ص١٣

أول من دوّن التأريخ بأسلوبهم الخاص وان بعض مدوناتهم التأريخية، على الرغم مما فيها من سلبيات، ترقى بتأريخها الى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، أي الى مدة تسبق تأريخ كتابات هيرودوتس بما يقرب من ألفي سنة وربما اكثر من ذلك.

وبديهي أن الأهتمام بأحداث الماضي لم يكن مقصوراً على العصور التأريخية التي اعقبت ابتداع الكتابة واستخدامها وسيلة لتدوين التأريخ بل لابد من أن القوم كانوا يتناقلون الأخبار والحوادث التأريخية على شكل قصص وحكايات تخص بطولات وملاحم وأساطير تتحدث عن الماضي وتحاول تفسير أو تسويغ ماوقع فيه من احداث وتفترض أصولاً للأشياء والمخلوقات، وهذه ظاهرة عامة تنطبق على العراقيين القدماء كما تنطبق على غيرهم من الاقوام في مختلف العصور حتى الوقت الحاضر، ولنا في الألياذة والأوديسا عند اليونانيين وايام العرب عند العرب قبل الاسلام وبطولات عنترة بن شداد وأبي زيد الهلالي أمثلة منتخبة على ذلك. وعندما اخترعت الكتابة وشاع استخدامها للتدوين وجدت تلك القصص والملاحم والاساطير طريقها الى التدوين وهي محمّلة بما علق بها من اضافات ومبالغات وحذف وتحوير وربما اكتنفها من خيال خصب ابعدها عن الحقائق التي لابد من كونها قد بدأت منها، فجاء بعضها ابعد مايكون عن المدونات التأريخية بالمفهوم الحديث لهذه المدونات. وهذا أمر طبيعي جداً فنحن لانتوقع ان يجد المرء في المدونات الاولى التي ترقى بتأريخها الى آلاف السنين المفهوم العلمي الحديث للتأريخ ولمدوناته التي تميزت بطرق النقد والتحقيق والتمحيص التي لم تتوطد قواعده وتتبع في تدوين التأريخ الا منذ منتصف القرن الماضي. وعلى الرغم من عدم انطباق مفهوم التدوين التأريخي على المدونات المسمارية التأريخية فبأمكاننا القول إن التدوين التأريخي في العراق القديم قد قام على اسس مهمة منها مايمكن تسميته بالحس التأريخي الذي يظهر جلياً في اهتمام العراقيين القدماء بأحداث الماضي وتدوينها وتفسيرها وتسويغ اسباب وقوعها والمحافظة عليها الى الأجيال التالية. وقد حاول بعض الكتبة القدماء تتبع اصول الأنظمة الاجتماعية والسياسية ومعرفة اصل الحياة والأنسان وحضارته بوجه عام بيد انهم عبّروا عن مثل هذه الاهتمامات بلغة الاساطير ورموزها[1]، ومن امثلة ذلك ماورد في قصة الخليقة واصل نظام الكون بحسب نظرتهم الخاصة وفي ملحمة جلجامش وغيرهما. وكان الكتبة القدماء ينظرون الى تأريخهم البعيد بأنه قد كان عصر نعيم وهناء ورفاهية وعصر بطولات ومعجزات وخوارق، فاهتموا بذلك التأريخ وكتبوا عنه باسلوبهم الاسطوري الخاص ومما كتبه احد السومريين الذين عاشوا في الألف الثالث قبل الميلاد نقتطف الأسطر الآتية:

---

(١) انظر طه باقر، طرق البحث العلمي في التأريخ والآثار، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٥.

«في تلك الايامَ كانت أرض الشرق، موضع الخير العميم
وموضع الاحكام العادلة»..... «وكانت بلاد سومر ذات
اللسان الواحد المنسجم، هي البلاد العظيمة التي نبعت
منها احكام الامارة»..... «وكان الشمال الارض المحتوية
على كل مايحتاج اليه وكانت بلاد الغرب آمنة مطمئنة»[1]

أما ملحمة جلجامش فمن أجل بيان المكانة الرفيعة المقدسة التي احتلها البطل جلجامش في اذهانهم، فقد وصفته بأنه كان عارفاً بالتأريخ ومهتماً به مما زاد في مرتبته علوّاً ورفعة ومما ورد فيها من وصف جلجامش:

«هو الذي رأى كل شيء، فغني بذكره يابلادي وهو الذي
عرف جميع الاشياء، وافاد من غيرها وهو الحكيم العارف
بكل شيء
لقد أبصر الاسرار وكشف عن الخفايا المكتوبة وجاء بانباء
ماقبل الطوفان.....»[2]

والى جانب الكتبة الذين قاموا بتدوين أخبار الماضي بطريقتهم الخاصة وخلّفوا لنا نصوصاً على درجة كبيرة من الاهمية، كان للملوك والحكام دورهم في تدوين التأريخ، بل انهم كانوا وراء معظم الكتابات التأريخية فهم أول من شجّع على كتابة التأريخ وسرد الاحداث التي وقعت فيه، وربما كان ذلك لأسباب اعلامية خالصة في بداية الأمر ثم اصبح اهتمامهم بالتأريخ وبأحداثه نوعاً من حب الاستطلاع والتعرف على ماضي البلاد، فعندما كان الملك يرغب مثلاً بتعمير معبد أو تجديد قصر سبق ان شيّد في عهد من سبقه من الملوك والحكام، فغالباً ما كان يوجز تأريخ ذلك المعبد او القصر ويبين تأريخه ويذكر اسم من قام بتشييده أول مرة ومن ثم تعميره وترميمه عبر العصور بل وكان بعضهم يبحث عن النصوص التذكارية القديمة التي كانت توضع عادة في اسس الابنية المهمة للاطلاع عليها وربما القيام ببعض الطقوس الدينية ومن ثم اعادتها الى اماكنها الى جانب النص الجديد

---

(١) فاروق الراوي، العلوم والمعارف في حضارة العراق، ج٢، ص ٢٧١.

(٢) طه باقر، ملحمة كلكامش وقصص اخرى عن كلكامش والطوفان، بغداد، ١٩٨٠، ص٧٣.

الذي يكتبه اخر الملوك الذين كانوا يقومون بترميم البناء[1]. وقد تضم النصوص التذكارية التي كان الملك يضعها في اساس البناء موجزاً باعماله العمرانية والعسكرية، وقد تم الكشف فعلاً عن مثل هذه النصوص وفي حالات قليلة كشف عن النص الذي دونه الملك الذي قام بالترميم والى جانبه النص الذي كان الملك السابق قد تركه عندما شيد البناء أول مرة[2].

وقد قام بعض الملوك بجمع النصوص المسمارية القديمة والمتضمنة تأريخ الاحداث الماضية وغيرها، وانشأوا من اجل ذلك مكتبات خاصة وبعثوا برسلهم ومبعوثيهم الى المدن المختلفة لجمع تلك النصوص او استنساخها، وهكذا أصدر اشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) أمراً ملكياً يطلب فيه جلب او استنساخ أي نص مفيد يمكن العثور عليه في المدن المهمة الرئيسة في جنوبي العراق[3].

المدونات التأريخية:

يقصد بالمدونات التأريخية النصوص المسمارية المكتشفة التي كان من اهداف تدوينها الرئيسة كتابة بعض الاحداث الماضية ومحاولة تفسيرها أحياناً أو تبرير اسباب حدوثها. وقد أمدتنا التنقيبات الاثرية بصنوف عدة من هذه النصوص وكلها يشير كما ألمحنا سابقاً، إلى الحس التاريخي الذي امتلكه العراقيون القدماء والى الرغبة والاهتمام بتدوين الاحداث الماضية بالاسلوب الذي كان شائعاً لديهم. ولاهمية هذه المدونات ولاعطاء فكرة واضحة عن طبيعة كتابتها واسلوب صياغتها وعن مدى امكانية الافادة منها في دراسة تأريخ العراق القديم، نقدم فيما يأتي نبذة مختصرة عن كل صنف منها.

١ - نصوص التقاويم **Date Formulae**

لم يعرف العراقيون القدماء طريقة تأريخ السنين ومعرفة تسلسلها نسبة الى نقطة ثابتة معينة على غرار ماهو متبع في التقويمين الميلادي والهجري، بل كانوا في العصور المبكرة يؤرخون السنة بأهم حادثة وقعت فيها او في السنة السابقة، ثم اتبعوا طريقة تأريخ السنين

(١) انظر فاروق الراوي، العلوم والمعارف، ص ٢٧٩ -٢٧٤.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٥.

(٣) عامر سليمان، اللغة الاكدية، الموصل ١٩٩١، ص ١٧٤.

نسبة الى تسلسل سنوات حكم الملك في حين اتبع الاشوريون مايعرف بطريقة اللمّو في تأريخ السنين، فقد كانوا يسمّون كل سنة باسم احد كبار موظفي الدولة الذين كانوا يتعاقبون دورياً على اشغال وظيفة اللمّو الخاصة بالاشراف على احتفالات رأس السنة. ومهما كانت الطريقة المتبعة في تأريخ السنين، فقد نظم لنا الكتبة القدماء قوائم باسماء السنين الخاصة بعهد ملك معين او سلالة معينة مسلسلة حسب تتابعها التأريخي كما سيأتي تفصيل ذلك. ومع ان تقاويم السنين كانت مقتضبة في عباراتها الا انها تتضمن اخباراً وأحداثاً تأريخية لذلك يمكن عدّها من النصوص التأريخية.

٢ – جداول الملوك King Lists

تعد جداول الملوك من النصوص التأريخية المهمة التي تم الكشف عنها حتى الآن لأنها تعكس رغبة واهتمام الكتبة القدماء في تدوين التأريخ، ربما بأمر أو توجيه من الملك الحاكم، وان لم يخضعوا مدوناتهم للنقد والتحليل ويدققوا فيها ورد فيها من اخبار تأريخية وجداول الملوك لاتعدو أن تكون قائمة بأسماء الملوك والسلالات الذين تعاقبوا على الحكم في منطقة معينة مع مدد حكم كل ملك أو سلالة. وقد تذكر بعض الجداول اشارات يسيرة الى احداث معينة وقعت في هذه السنة او تلك ولاسيما الاحداث ذات العلاقة بالحروب والانتصارات.

وتأتي جداول الملوك السومريون Sumerian King Lists في مقدمة الجداول المكتشفة من حيث تأريخ التدوين ذلك أن تأريخ تدوينها يرقى الى نهاية الالف الثالث وبداية الالف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢١٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م). وقد دونت جداول الملوك السومريين باللغة السومرية وبالخط المسماري على الواح من الطين وثبتت اسماء جميع الملوك والسلالات التي تعاقبت على حكم بلاد سومر، حسب تصور ومعرفة الكتبة آنذاك، منذ اقدم العهود حتى تأريخ كتابة الجداول، اي انها شملت تأريخ بلاد سومر باكمله لدى الكتبة. ومن الجدير بالملاحظة في هذه الجداول ان الكتبة السومريين قد اتبعوا الاسلوب الذي يتبعه المؤرخون المحدثون في تقسيم التأريخ الى عصور او عهود مختلفة يفصل بين كل عصر وآخر حدث او اختراع مهم، فكما اننا قسّمنا التأريخ الى عصور تأريخية وعصور ماقبل التأريخ ووضعنا اختراع الكتابة حداً فاصلاً بينها، فقد قسّم السومريون تأريخهم الطويل ايضاً الى قسمين رئيسين تفصل بينها حادثة الطوفان المعروفة، وحادثة الطوفان المشار اليها في جداول الملوك هي الحادثة التي اشارت اليها الكتب

المقدسة والتي كانت قد حدثت في عصور قديمة لايمكن تحديدها الا ان اخبارها انتقلت بوساطة الرواية الشفوية عبر العصور المتتابعة على شكل قصص واساطير محملة بالتفاصيل المضافة والمبالغات الواضحة التي ابعدتها عن صيغتها الحقيقية[1]

وكيفما كانت الحال، فقد ذكر الكتبة السومريون اسماء الملوك، الذين حكموا قبل الطوفان ومدنهم، وبالغوا كثيراً في مدد حكم اولئك الملوك لاسباب نجهلها، ومن ثم جاء الطوفان وغمر كل شيء، فعادت الملكية ثانية الى السماء، وقد تصور السومريون الملكية وكأنها شيء مادي ورمزوا لها بالتاج والصولجان وشريط القياس، وهي شارات الملكية، التي ظنوا بأنها كانت امام الاله انو في السماء، وعندما منح البشر نظام الملكية، نزلت هذه الشارات أي الملكية، واستقرت في احدى المدن. وهكذا عادت الملكية الى السماء عند الطوفان والقضاء على الملكية، ولكنها هبطت ثانية من بعد الطوفان واستقرت هذه المرة في مدينة كيش وفيما يأتي الاسطر الاولى من جداول الملوك الخاصة بملوك قبل الطوفان:

---

(١) من المؤكد ان حادثة الطوفان المذكورة في جداول الملوك السومريين تشير الى الحادثة التي ذكرتها الكتب المقدسة، التوراة والقرآن الكريم إذ لابد وان طوفاناً كبيراً كان قد حدث في طيات الماضي البعيد، وكان من جسامة التأثير وفداحته انه ترك اثراً بليغاً في عقول الاجيال المختلفة فتناقلته الروايات الشفوية وشوهت تفاصيله الواقعية. وبالنظر الى اوجه الشبه الكثيرة بين رواية الطوفان في ملحمة جلجامش وملحمة «اتراحاسس» وبين رواية التوراة، فاننا نعتقد ان الروايتين ترجعان الى نفس الحادثة، وان هذه الحادثة وقعت في العراق القديم، ولاسيما في القسم الجنوبي منه، اي في السهل الرسوبي، وان زمنها يرجع على اغلب الاحتمالات الى اواخر مايسمى في تأريخ حضارة وادي الرافدين بمصطلح العصر الحجري المعدني Chalco lithic اي قبل بداية الحضارة السومرية في اوائل العصر المسمى بعصر فجر السلالات (أواخر الألف الرابع ق.م). هذا ماذكره الاستاذ طه باقر، في كتابه ملحمة كلكامش، المصدر السابق، ص ٤٦ ، وهو تأكيد على ان حادثة الطوفان هي حدث حقيقي وانها وقعت في العراق ولكن في عصور سحيقة في القدم وقد قدمت في هذه القضية آراء ونظريات اخرى كثيرة تجعل وقوع الحادثة في عصور اقدم مما ذكره طه باقر (انظر جورج رو، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٦١-١٦٣)، كما يشير المنقب الانكليزي وولي الى انه كشف عن آثار وبقايا هذا الطوفان في مدينة اور وبعض المدن المجاورة وهي تعود الى دور العبيد (انظر جورج رو، المصدر السابق، ١٦٢).

«هبطت الملوكية من السماء فكانت اريدو مركز الملوكية
وحكم في اريدو ألولم ملكاً (مدة) ٢٨٠٠٠ عاماً وحكم
آلگار ٣٦٠٠٠ عاماً، المجموع ملكان حكما ٦٤٠٠٠ عاماً.
تركت اريدو وانتقلت ملوكيتها الى باد- تبيرا. في باد- تبيرا حكم اينمنلو- أنّا ٤٣٠٠٠ عاماً، ثم حكم اينمنگال - أنّا ٢٨٠٠٠ عاماً وحكم دموزي الراعي ٣٦٠٠٠ عاماً.
(المجموع) ثلاثة ملوك حكموا ١٨٠٠٠٠ عاماً.
تركت باد- تبيرا وانتقلت ملوكيتها الى لرك....
[تستمر الجداول في ذكر انتقال الملوكية الى سپار وشروباك وذكر اسماء الملوك ومدد حكمهم] وتختتم هذه الفقرة بالقول:
(المجموع) خمس مدن وثمانية ملوك حكموا ٢٤١٠٠٠ عاماً.
ثم جلاء الطوفان (وجرف البلاد)....[1]

وتستمر جداول الملوك في ذكر اسماء الملوك الذين حكموا من بعد حادثة الطوفان والمدن التي حكموا فيها، وقد عبّرت الجداول عن انتقال الملكية من مدينة الى اخرى بالقول: إن المدينة (الاولى) ضُربت بالسلاح فانتقلت الملكية بالضرورة الى المدينة الثانية، وهي اشارة واضحة الى الحروب والمنازعات التي كانت قائمة بين المدن المختلفة.
وبعد الطوفان نذكر الجداول:
«هبطت الملكية (مرة ثانية) وحلّت في كيش. وصارت كيش مركز الملوكية».
وحكم في كيش
گارو ١٢٠٠ عاماً
گلا - ندابا - أنّاباد ٩٦٠ عاماً
.....»
وتعدد الجداول اسماء ٢٣ ملكاً ومدة حكم كل منهم ثم تقول:
«المجموع ٢٣ ملكاً حكموا ٢٤٠ ٥١٠ سنة و ٣ اشهر و ٣ ايام ونصف اليوم».
دحرت كيش (في الحرب) ونقلت ملوكيتها الى اي- أنّا وحكم في أي- أنّا:

وتذكر الجداول اسماء ١٢ ملكاً حكموا ٢٣١٠ أعوام ثـم تستمر الجداول في ذكر دحر المدينة وانتقال الملكية الى المدينة التالية وهكذا، وكلما اقتربنا من العصر الذي دونت فيه

(١) انظر تفصيل ذلك في طه باقر، المقدمة، ٢٨٨.

الجداول (حدود ٢٠٠٠ ق.م) كانت السنوات المعطاة لحكم الملوك اكثر منطقية حتى تصبح مقبولة بل ودقيقة وذلك في مدة العصر الاكدي ومابعدها.

وواضح من هذه المقتطفات من جداول الملوك السومريين ان هناك بعض المآخذ او السلبيات التي تؤشر عليها وبصورة خاصة مايتعلق بالمبالغة الواضحة في سنوات حكم الملوك الاوائل فقد خصصت الجداول الاف السنين لحكم كل منهم، ولايمكن تفسير ذلك على ان طول السنة المقصودة هو غير ما هو معروف من طول السنة الاعتيادية طالما كانت الجداول في تصنيفها الثاني تخصص سنوات حكم دقيقة وصحيحة للملوك المتأخرين كما لايمكن ان تفسر بان المقصود من حكم كل ملك السلالة التي كان الملك مؤسسها لأن الكتبة السومريين انفسهم لايستخدمون هذا الاسلوب في ذكرهم للملوك المتأخرين في الجداول ويبقى تفسير هذه المبالغة بانها ناتجة عن بعد المدة الزمنية وجهل الكتبة فعلاً بمدد حكم الملوك الاوائل ، ولاسيما ملوك ماقبل الطوفان ورغبتهم في اضفاء القدسية والبطولة على أولئك الملوك ووصفهم بصفات خارقة، كطول العمر والحكم. كما ان الجداول ذكرت اسماء الملوك الذين حكموا والمدن التي انتقلت اليها الملكية بشكل متعاقب وكأن البلاد كانت تحكم في جميع العصور من قبل سلالة واحدة لاينافسها منافس في حكم اي جزء من اجزاء البلاد في حين ان الدراسات الاثارية والنصوص المسمارية الاخرى المكتشفة قد بينت بما لايقبل الشك بأن بلاد سومر واكد لم تكن موحدة ولم تحكم من قبل سلطة او سلالة واحدة الا في مدد محدودة من بعد قيام الدولة الاكدية في حدود عام ٢٣٧١ ق.م. وان الغالب على بلاد سومر واكد انها كانت مجزأة الى عدة مناطق تتمركز كل منطقة منها حول مدينة رئيسة فيها سلالة حاكمة، وبعبارة اخرى: انه كان هناك اكثر من سلالة حاكمة واحدة تحكم كلاً منها جزءاً من بلاد سومر واكد يعاصر بعضها البعض الآخر.

ولابد من الاشارة هنا ايضاً الى ان جداول الملوك السومريين اغفلت ذكر بعض السلالات الملكية التي اثبتت التنقيبات الاثرية أنها كانت قد حكمت في بعض مدن بلاد سومر في مدة معينة، مثل سلالة لجش وسلالة اومّا المنافسة المعاصرة لها وغيرهما. وربما كان هذا الاغفال نتيجة جهل الكتبة بتاريخ تلك السلالات وعدم معرفتهم اصلاً بانها كانت قد حكمت هذه المدن او بسبب تحيزهم ضدها وتعمدهم اغفال ذكرها لاسباب دينية او سياسية غير معروفة لدينا.

ومع هذه السلبيات الواضحة تظل جداولُ الملوك مصدراً مهماً من مصادر معلوماتنا عن تاريخ بلاد سومر واكد ونموذجاً للمدونات التاريخية التي سبقت المدونات اليونانية وغيرها بقرون عدة.

وقد نظم البابليون في عهدهم القديم والوسيط قوائم او جداول ملوك مماثلة جمعوا فيها اسماء ملوك بلاد بابل. وقد كشف عن عدد من هذه الجداول غطت بحكم ملوكها مدة زمنية طويلة تبدأ من بداية حكم سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ ق.م) حتى العصر الكلدي في القرن السادس قبل الميلاد (٦٢٦-٥٣٩ ق.م). كما ان هناك جداول خاصة بسلالات معينة اخرى.

اما في بلاد اشور، فقد خلّف لنا الكتبة الاشوريون عدداً من جداول الملوك ضمت اسماء معظم الملوك الاشوريين ومدد حكمهم بدءاً من بداية اول سلالة حاكمة في بلاد اشور (وكان ذلك في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد)، حتى اواسط القرن الثامن قبل الميلاد، وهو تأريخ كتابة الجداول نفسها وفيما يأتي مقتطفات من جداول الملوك الاشوريين:

اشور اوبالِّط (الاول) بن اَربا – اَدد، حكم مدة ٣٦ سنة
إِنليل – نراري بن اشور – اوبالِّط ، عشر سنوات كذلك
اَريك –دِن– إِلِ بن إِنليل – نراري، ١٢ سنة كذلك
اَدد – نراري (الاول) أخو اريك – دِن–إِلِ حكم ملكاً ٣٢ سنة[1]

ومما يلاحظ على جداول الملوك البابليين والاشوريين بأنها قد تجاوزت السلبيات الموجودة في جداول الملوك السومريين، فليست هناك مبالغة في ذكر سنوات حكم الملوك كما انها لم تذكر غير تعاقب الملوك الاشوريين ولم تغفل ذكر اي منهم الا خطأ كما انها مدونة باللغة الأكدية وفي المدد المتأخرة من تأريخ العراق القديم، قام الفلكي اليوناني بطليموس بتنظيم قائمة باسماء الملوك البابليين والمحتلين الفرس ومدة حكم كل منهم من عهد نبوناصر (٧٤٦-٧٣٤ ق.م) الى زمن الامبراطور الروماني انطونيوس بايوس (١٣٨-١٦١ م) ودونها باللغة الاغريقية فأفادت كثيراً في ملء الفراغات الموجودة لدينا في تسلسل حكم الملوك ومدد حكم كل منهم.

(١) انظر تفصيل الترجمة

Pritchard, R., Ancient Near Eastern Texts Relating to The Old Testament, New Gersy, 1969 (ANET)

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٣- جداول التأريخ التعاصري Synchronistic History

من بين جداول الملوك المهمة التي خلّفها لنا الكتبة الاشوريون مايعرف عادة بقائمة الملوك المتعاصرين، او التأريخ التعاصري. وقد دونت هذه القائمة باللغة الاكدية (اللهجة الاشورية الحديثة) وبالخط المسماري على لوح من الطين بعمودين من الكتابة احدهما بجانب الاخر. يذكر العمود الاول اسماء ٨٢ ملكاً اشورياً بدءاً من اول ملك كان معروفاً لديهم، وهو ايريشم، وانتهاء بالملك اشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م). في حين ضم العمود المقابل اسماء ٩٨ ملكاً من الملوك البابليين الذين عاصروا الملوك الاشوريين المذكورين في العمود الأول من عهد الملك الثاني من سلالة بابل الاولى (١٨٨٠- ١٨٤٥ ق.م) وحتى عهد اخر ملوك بلاد بابل وقت الكتابة، وهو الملك قندلانُ (٦٤٧-٦٢٦ ق.م) وقد امكن بوساطة هذه الجداول تثبيت حكم عدد من الملوك الاشوريين ومعاصريهم في بلاد بابل[1].

٤- الحوليات وكتب الاخبار او التواريخ Annals and Chronicles

اعتاد الملوك الاشوريون تخليد اعمالهم العمرانية ومنجزاتهم العسكرية ونشاطاتهم المختلفة من خلال تدوينها على نصب ومسلات والواح مختلفة الاشكال والاحجام عاماً بعد عام. وكانت طبيعة هذه المدونات تأريخية بصورة عامة وغاياتها اعلامية، بل كانت هذه النصب والمسلات والمنحوتات من اهم وسائل الاعلام المعروفة انذاك. كما انهم اعتادوا تدوين اعمالهم ومنجزاتهم العسكرية وتخليد نشاطاتهم العمرانية على الواح من الطين مختلفة الاشكال كانت توضع عادة في اسس الابنية المهمة المزمع انشاؤها او ترميمها او توسيعها، كالمعابد والقصور والاسوار وبواباتها، في مكانٍ خفي تحت مستوى الارضية، ويمكن تسميتها باحجار الاسس لشبهها الكبير باحجار الاسس المستخدمة حتى الوقت الحاضر.

وكانت النصوص المدونة على أحجار الاسس المذكورة تضم جميع اعمال الملك الحربية السابقة ومن ثم الاعمال العمرانية المزمع القيام بها والتي وضع النص لتخليدها. ويبدو ان الهدف الاساس من مثل هذه النصوص كان يختلف عن هدف الكتابة على النصب والتماثيل والمنحوتات طالما كانت هذه النصوص توضع في اماكن مخفية من الاساس

(1) Oppenheim L. ANET, pp. 272 – 274

لايمكن مشاهدتها الا اذا ماهدم البناء، لذا فان الهدف منها كان تخليد اعمال الملك ومنجزاته واطلاع الالهة التي تصوروا وجودها وكذلك اطلاع الملوك والامراء اللاحقين على تلك الاعمال والمنجزات وحثهم على الاقتداء بها واعادة ترميم البناء ووضع اسمائهم الى جانب اسماء اسلافهم في لوح او مسلة خاصة وعدم نسب ما قام به اسلافهم من اعمال لانفسهم وكانت هذه النصوص، التي تسمى عادة بالحوليات ، تكتب على مايشبه المسامير الفخارية الكبيرة الحجم، وفي العهود الاشورية والبابلية اخذت شكل الاسطوانة المنفوخة من الوسط او الموشور- ذي العدة اضلاع، وهي تختلف باحجامها نسبة الى طول النص المراد تدوينه عليها[1]. وفيما يلي مقتطفات من احد النصوص المدونة على اسطوانة فخارية وجدت نسختان منها في زوايا القاعة الرئيسة في معبد نرجال في مدينة تربيص الاشورية وبعد قراءة النص وترجمته تبين انه يعود الى الملك سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) وانه يضم، بعد القاب الملك الملكية، تفصيلاً لاخبار حملة سنحاريب الاولى على بلاد بابل والانتصار الذي حققه على مردوك - ابلا- ادينّا زعيم قبيلة كلدو ومن ثم ذكر سنحاريب في الاسطر الاخيرة من النص اخبار ترميمه المعبد الذي كان اجداده، كما يقول، قد شيدّوا اسسه وجدّدوا بناءه، فهو يقول:

سطر ٦٢ : «في ذلك الوقت ، كان ايكّال. لام. ميس، معبد الاله نرجال
الذي في مدينة تربيص الذي بناه شيلمنصر بن اشور-
ناصربال
ابن توكلتي ننورتا الذي سبقني، قد أصبح متهدماً.
وهدمت ذلك المعبد ووصلت (الى) اسسه وملأت قطعة
من الارض (مساحتها)....

٦٣ -٦٧- اخبار توسيع المعبد وتقديم القرابين
٦٨- ودونت الانتصار، نتاج يدي الذي حققته بمساعدته ضد جميع الاعداء في نصّي، وتركت للملوك ابنائي في المستقبل.

٦٩-في الايام المقبلة عندما يتهدم ويتساقط ذلك المعبد، دع الامير المقبل ينظر الى نصي ويصب الزيت عليه...دعه يقدم قرباناً ودعه يثبت كتابة
اسمه مع نصي (حتى) يسمع الاله نرجال صلواته

(١) انظر عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، موصل ، ١٩٨٢، ص٦٧-٩٠.

اما الكتبة البابليون، فقد خلّفوا لنا نوعاً آخر من المدونات التأريخية التي عرفت بكتب او نصوص الاخبار او بالتواريخ chronicles وكان الاسلوب المتبع في سرد الاخبار في هذه النصوص يشابه الى درجة كبيرة الاسلوب الذي اتبعه الكتبة اليونان والرومان وبعض الكتبة والمؤرخين العرب من بعد، فقد نظمت الاخبار متسلسلة بحسب تاريخ حدوثها عاماً بعد عام وضمت اخبار بلاد بابل واشور واحداثها منذ القرن الثامن قبل الميلاد حتى حكم الملك السلوقي سلوقس الثالث ٢٢٥-٢٢٣ ق.م. وفيما يأتي مقتطف من احد هذه النصوص:

«السنة الثامنة: في اليوم السادس من شهر اَدَار، توفيت زوجة الملك. في اليوم الثامن عشر من شهر ادّار اخذ جيش اشور شُبريَ وسلبها. السنة العاشرة في شهر نيسانُ زحف جيش اشور الى مصر. في اليوم الثالث من شهر تشريتُ كانت مذبحة في مصر.

السنة الحادية عشرة: قتل الملك بالسيف في بلاد اشور الكثير من موظيفه

السنة الثانية عشرة: زحف ملك بلاد اشور الى مصر (ولكنه) مرض في الطريق ومات في اليوم (العاشر) من شهر ارخَسَمنُ حكم اسرحدون بلاد اشور (مدة) اثنتي عشرة سنة وقد ظل بعل في بال.تل (اشور) مدة ثمان سنوات (من عهد) سنحاريب واثنتي عشرة سنة (من عهد) اسرحدون. (مجموع) عشرين سنة وبطل (احتفال) اكيتو»[1].

٥- نصوص تأريخية أخرى:

وفضلاً عما ذكرناه من أصناف من النصوص المسمارية التأريخية، هناك نصوص أخرى ذات طابع تأريخي منها مادون منذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد، كنص حاكم لجش انتمينا (حدود ٢٤٠٠ ق.م) الذي حدثنا فيه عن تأريخ الصراع الذي خاضته مدينة

(١) حول تفصيل ذلك

Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles Texts From Cuneiform Sources, Vol. V, New York, 1975.

لجش في عهد سلالتها الاولى مع المدينة المجاورة اوما ونزاعها على الحدود لمدة اربعة اجيال متتالية حتى تم التوصل الى عقد معاهدة بين المدينتين بوساطة من حاكم دولة اخرى وهو ميسيلم ، وكانت تلك المعاهدة أقدم معاهدة دولية معروفة حتى الآن . كما أن هناك الرسائل الملكية ولاسيما الرسائل التي وجهها بعض الملوك الى الآلهة ، كالملك سرجون الآشوري ، الذي تصور ان من واجبه كتابة تقرير عن اعماله العسكرية وارساله على هيئة رسالة – موجهة الى الآله آشور كما تتضمن نصوص المعاهدات وبعض القصص والأساطير والملاحم الدينية والمراثي الخاصة ببعض المدن والممالك كمرثية أور ومرثية اكد وغيرها اخباراً تأريخية يمكن الافادة منها في دراسة تأيخ العراق القديم.

واخيراً لابد من الاشارة الى ماكتبه المؤرخ البابلي بيروسس (الذي ربما كان اسمه بالبابلية برعوشا او برخوشا ثم حوّر باليونانية الى بيروسس) فقد كتب تأريخ بلاد بابل منذ الخليقة والطوفان الى غزو الاسكندر المقدوني لبلاد بابل عام ٣٣١ق.م ، وكان هذا التأريخ مكتوباً باللغة اليونانية الا أن مايؤسف عليه انه قد فقد وان مايعرف عنه هو ما اقتبسه منه الكتاب الكلاسيكيون ودونوه في مؤلفاتهم .

وهكذا يجد المؤرخ الحديث عند كتابته تأريخ العراق القديم ، ويفضل ماتم انجازه في حقل الدراسات المسمارية وقراءة النصوص السومرية والاكدية ، مجموعة كبيرة من المدونات التأريخية القت الضوء على جوانب كثيرة من تأريخ العراق القديم لم تكن معروفة فيما سبق واضاءت لنا الطريق لتتبع تاريخ الاقوام التي عاشت في هذه المنطقة ومتابعة تطور حضارتها الى جانب الآثار المادية الأخرى المكتشفة فغدت لدى المؤرخ معلومات غزيرة جداً . ومع ذلك ، فإن هناك بعض الجوانب الحضارية وبعض المدد التي مرت على العراق ماتزال غامضة ، معلوماتنا عنها قليلة وربما ستكشف لنا التنقيبات المقبلة عن المزيد من النصوص المسمارية والآثار المادية التي تقدم لنا المزيد من المعلومات .

التأريخ علم من العلوم الانسانية :

التأريخ بمفهومه الواسع وبأسلوب كتابته العلمية الحديثة يعد علماً من العلوم الا أنه ليس من صنوف العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة ، كعلم الفلك ، او على التجربة والمختبر ، كالكيمياء والفيزياء ، وانما هو علم بحث ونقد ونظر ، وهو اقرب الى علوم الارض (الجيولوجيا) من غيره . فكما ان الجيولوجي يبحث في أحوال الارض فيعرف تأريخها وكيف وصلت الى ماهي عليه الآن ، كذلك المؤرخ يبحث في بقايا الماضي وآثاره ويستعين بها على

معرفة الحاضر[1] ، فهو اذن بحث وتحقيق وتمحيص وتدقيق في كل بقايا الماضي وآثاره وصولاً الى رسم صورة تقريبية اقرب ماتكون الى واقع حياة المجتمعات الماضية وما انجزته من حضارات وما وقع فيها من احداث .

وللتأريخ باعتباره علماً من العلوم الانسانية منهج او طريقة للبحث تعتمد اساساً على ثلاث خطوات رئيسة ، تتضمن الاولى جمع المصادر والاصول المتعلقة بالبحث اوما يسمى عادة بـ (جمع الاصول) ، اما الخطوة الثانية فهي مرحلة النقد الداخلي والخارجي لكل ما جمع من مصادر واصول وتدقيقها وتمحيصها والتحقق من مدى اصالتها وصحتها ودقتها . وتتضمن الخطوة الثالثة عملية التأليف بين الحقائق التي توصل اليها الباحث او المؤرخ وتركيبها وتصنيفها وتبويبها فضلاً عن تدوينها باسلوب ادبي مستساغ لينطبق على مايكتبه المؤرخ بعد ذلك القول أن أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذي اعتمد على الطرق العلمية في البحث التأريخي في جمع مادته وعلى الأدب والفن في عرض تلك المادة .[2]

وفضلاً عن ذلك ، فقد استخدم مصطلح التأريخ للدلالة على معانٍ اخرى محددّة الى جانب المعنى الاساس السالف الذكر ، فأستخدم للدلالة على احداث قطر معين او حياة شخصية معينة أو تأريخ شيء من الاشياء او المخلوقات كتأريخ النخيل او النفط وتأريخ الجهل وغيرها كما استخدمنا كلمة تأريخ للاشارة الى التقويم كقولنا التأريخ الميلادي والتأريخ الهجري .

التقويم وتأريخ الاحداث

من الامور البديهية التي لاتستوقف المرء تتابع الايام والشهور والسنون وحسابها على وفق التقاويم المعروفة والشائعة ، الا ان تحديد الوقت وقياس الزمن يعد من المنجزات الحضارية المهمة التي توصل اليها الانسان من خلال محاولات عدة عبر العصور.

إنه من المعروف الآن أن اليوم هو الفترة الزمنية التي تُتمُّ فيها الارض دورة واحدة حول محورها ، وتتكرر دورات الارض حول محورها وتمر الأيام تبعاً لذلك ، وقد اصطلح على تقسيم اليوم الواحد الذي يتلاحق فيه الليل والنهار، الى اربع وعشرين ساعة ، كما

(١) طه باقر، المقدمة ، ٩٥

(٢) ذات المصدر، ص ١٠٣

اصطلح على تقسيم الساعة الى ٦٠ دقيقة والدقيقة الى ٦٠ ثانية. وليس هناك اتفاق على بداية اليوم ونهايته فعند العرب المسلمين يبدأ اليوم من غروب الشمس ويمتد الى غروبها التالي، وبذلك يمكن معرفة بداية اليوم ونهايته دون استخدام آلة لقياس الوقت، أي ساعة، كما قسموا اليوم الى فترات تحددها حركة الشمس، فهناك الفجر الذي يحدد بداية النهار والزوال انتصاف النهار وبين الزوال والمغيب يحدد العصر بوساطة ظل الشيء. فمتى اصبح طول ظل الشيء بطوله الحقيقي دخل العصر وعندما شاع استخدام الساعة وقّتت الساعة استئناراً الى ذلك حيث يبدأ اليوم مع مغيب الشمس، فالساعة الواحدة تعني ساعة واحدة بعد المغيب وهكذا، وهذا مايعرف عادة بالساعة العربية.

أما اليوم عند الغربيين وكثير غيرهم فيبدأ من منتصف الليل ويمتد الى منتصف الليل التالي أي ان النهار يقع استناداً الى ذلك بين نصفي الليل، وطبيعي ان هذا الاسلوب في حساب اليوم بحاجة الى قياس الزمن ومعرفة بداية اليوم ونهايته.

ومن الظواهر الطبيعية الاخرى التي لا دخل للانسان في تحديد مواعيدها وتقسيم فترتها الزمنية مايعرف بالشهر القمري، وهو الفترةالتي يُتمُّ فيها القمر دورة كاملة حول الارض وتقاس عادة من مولد القمر الى مولده التالي ويبلغ متوسط طولها ٢٩,٥٣ يوماً. وخلال هذه الدورة تتم دورة اوجه القمر ويظهر القمر هلالاً ثم ينتصف وبدراً وينتصف ثانية الى ان ينتهي هلالاً.

وتتألف السنة القمرية من اثني عشر شهراً قمرياً يبلغ متوسط عدد ايامها ٣٥٤,٣٧ يوماً إذ تقرب عادة بحذف كسور اليوم وكبسه الى أن يصبح يوماً كاملاً يضاف الى السنة الكبيسة فيصبح عدد ايامها ٣٥٥ يوماً ويضاف اليوم عادة الى شهر ذي الحجة الذي يصبح ٣٠ يوماً بدلاً من ٢٩ يوماً وهناك ١١ سنة كبيسة في كل ٣٠ سنة حسب التقويم الهجري[1].

وحيث أن متوسط طول الشهر القمري هو ٢٩,٥٣ يوماً وأنه لايصح بداية الشهر بجزء من اليوم، لذلك اصطلح على اضافة اجزاء اليوم الى الشهر السابق او اللاحق فأصبح عدد ايام الشهر القمري اما ٢٩ يوماً أو ٣٠ يوماً ويحدد ذلك رؤية الهلال الجديد، وتتألف عادة السنة من ستة أشهر عدد ايام كل منها ٢٩ يوماً وستة أخرى عدد ايام كل منها ثلاثون يوماً.

(١) انظر: محمد محمد قباض، التقاويم، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٦٦.

وقد اعتمدت الاشهر القمرية والسنة القمرية في حساب التقويم الهجري.

اما السنة الشمسية فهي المدة التي تدور فيها الارض دورة كاملة حول الشمس مبتدئة من نقطة معينة في مدارها الى ان تعود اليها. وفي اثناء دوران الارض حول الشمس تظهر لنا الشمس وكأنها تدور حول الارض في مدارها يسمى مدار البروج. وتتلاحق الفصول الاربعة خلال دورة الارض حول الشمس. ويبلغ متوسط طول الفترة الزمنية التي تتم خلالها الارض دورتها حول الشمس ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٩ دقيقة و٩,٥ ثانية التي تقرب عادة الى ١/ ٤ ٣٦٥ يوماً وعدد الشهور في السنة الشمسية اثناعشر شهراً ايضاً، تتراوح اطوالها بين ٢٨ يوما و ٣١ يوماً. فكما اشرنا أن السنة الشمسية تتألف من ١/ ٤ ٣٦٥ يوماً وتجنباً لاستخدام اجزاء اليوم في حساب السنين، فقد اصطلح على اعتبار السنة البسيطة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً وجمع اجزاء اليوم كل اربع سنوات لتؤلف يوماً كاملاً يضاف الى السنة الرابعة فيكون عدد ايامها ٣٦٦ يوماً وتسمى سنة كبيسة وتتكرر كل اربع سنوات. أما عدد ايام الشهور، وحيث ان عدد أيام السنة لايقبل القسمة على عدد الشهور وهو اثنا عشر شهراً، فقد اصطلح على جعل عدد ايام بعض الشهور ثلاثين يوماً، وعددها اربعة، وسبعة شهور عدد ايامها ٣١ يوماً. اما شهر شباط، فيكون عدد ايامه ٢٨ يوماً في السنة البسيطة و ٢٩ يوماً في السنة الكبيسة. وقد اصطلح على تسمية هذا التوفيق وكبس اجزاء اليوم وجعله يوماً كاملاً كل اربع سنوات تقويماً.

وكما هو واضح فإن اشهر السنة الشمسية تتابع حسبما اصطلح على ترتيبها وتتفق والفصول الاربعة المعتمدة اساساً على دورة الارض حول الشمس ومدى قرب المكان او بعده عن الشمس، فشهر تموز يبقى دائماً في وسط فصل الصيف عندما يكون النصف الشمالي من الكرة الارضية اقرب مايكون من الشمس في حين يكون كانون الثاني في وسط الشتاء لان نصف الكرة الشمالي يكون في هذا الشهر ابعد مايكون عن الشمس وهكذا بقية الاشهر، اما السنة القمرية واشهرها الاثنا عشر فإنه لاعلاقة لها بالشمس، وان عدد ايامها اقل من عدد ايام السنة الشمسية احد عشر يوماً لذلك فإن اشهرها لاتتفق وتتابع الفصول الاربعة بل ان شهر رمضان مثلاً، قد يكون في الصيف وقد يكون في الربيع او الشتاء وهكذا حيث تتقدم السنة القمرية ١١ يوماً عن السنة الشمسية سنوياً لانها اقصر منها ١١ يوماً وبذلك شهر رمضان يدور على جميع فصول السنة مرة كل ٣٣ سنة.

وبغية ضبط التواريخ ومعرفة تسلسل الشهور والسنون وتثبيت وضبط ازمنه وقوع الاحداث بالنسبة الى وقتنا الحاضر، فقد استخدمت تقاويم مختلفة عند امم مختلفة اذ اعتمدت اما السنة الشمسية او السنة القمرية لحساب السنين فيها. ومن ابرز التقاويم

المعروفة. حسب تسلسل تأريخ استخدامها، التقويم المصري والتقويم الروماني والتقويم اليوليوسي والتقويم الجرجواري والتقويم القبطي. وهناك تقويم العرب قبل الاسلام والتقويم الهجري والتقويم الميلادي ومن التقاويم الاخرى الاقل اهمية وانتشاراً التقويم العبري والسرياني والفارسي والجلالي والاغريقي القديم.

وقد اعتمدت جميع هذه التقاويم نقطة ثابتة معينة في تأريخ من وضعها من الشعوب والامم وحسبت استناداً الى ذلك السنون، وسنوجز فيما يأتي اسس التقويمين الرئيسين الهجري والميلادي فقط.

فأما التقويم الهجري فقد وضع اول مرة في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد سبع عشرة سنة قمرية من هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة. وقد اتفق المسلمون في عهد عمر على وضع تقويم اسلامي جديد لهم واتفقوا على أن تكون الهجرة بداية هذا التقويم، لان موعد الهجرة معروف وثابت ولا يختلف فيه اثنان، وقد اعتمدت السنة القمرية واشهرها الاثنتا عشر اساساً لحساب هذا التقويم وعدَّ اليوم الاول من شهر محرم بداية للسنة الهجرية، وإن كانت الهجرة الفعلية في شهر صفر عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم مكة المكرّمة ووصل المدينة يوم ١٢ ربيع الاول.[1]

واحتفظت الأشهر العربية بأسمائها القديمة التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام وهي:

محرم، صفر، ربيع الاول، ربيع الثاني، جمادي الاول، جمادى الثاني، رجب، شعبان، رمضان، شوّال، ذي القعدة، ذي الحجة.

واما التقويم الميلادي، فقد أتخذ من تأريخ ميلاد السيد المسيح بداية له، وعدت سنة الميلاد السنة الاولىٰ من التقويم ويعتمد التقويم الميلادي على السنة الشمسية وشهورها الاثنتا عشرة وكان اول من وضع التقويم الميلادي ودعا الى اتباعه هو الراهب ديونيس الروسي الذي كان يعيش في روما وكان ذلك عام ٥٣٢ م حين قام هذا الراهب بحساب الشهر والسنة التي ولد فيها السيد المسيح استناداً الى ماهو متوافر من معلومات تذكر أنه ولد في السنة الثامنة والعشرين من حكم القيصر اوغسطس، وبحساب الفترة الزمنية التي مضت على ميلاد السيد المسيح مستعيناً بالتقويم الروماني الذي كان مستخدماً آنذاك،

---

(١) انظر، محمد محمد قباض، التقاويم، ص ٦٣.

تبين للراهب أنه كان قد مضىٰ على ميلاد السيد المسيح ٥٣٢ سنة شمسية ، وهكذا بدأ بحساب التقويم الميلادي متخذاً يوم ١ /كانون الثاني بداية للسنة الجديدة ، وأن كان ميلاد المسيح هو، كما يرىٰ الباحثون ، يوم ٢٥ كانون الاول .

وقد ظل استخدام أسماء الاشهر الرومانية واليوليانية كما هي والمؤلفة من :
يناير، فبراير، مارس ، أبريل ، مايو، يونيو، يوليو، اغسطس ، سبتمبر، اكتوبر، نوفمبر وديسمبر.

وكما هو واضح فقد سميت هذه الأشهر. أما بالنسبة لأسماء بعض الآلهة اليونانية والرومانية او أسماء بعض القادة والابطال .

التقويم في العراق القديم

لايعرف بالضبط متى بدأ الانسان قياس الزمن ومراقبة تكرر الفصول ، وربما كانت ممارسة الأنسان الزراعة في العصر الحجري الحديث حافزاً دفع الانسان الى مراقبة مواعيد البذار والحصاد ، كما ان استقراره وتشييده القرى على شواطئ الانهار دفعه الى مراقبة مواعيد الفيضانات لأتخاذ الاحتياطات اللازمة لدرء اخطارها ، كما ان مراقبته القمر ودورته الشهرية من ولادته ثم اكتماله حتى اختفائه وتكرر ذلك كل فترة زمنية محددة ، وهي فترة الشهر القمري ، لابد ان علمت الانسان كيفية قياس الوقت . ومنذ بداية العصور التأريخية وتدوين النصوص هناك اشارات واضحة تشير الى معرفة الانسان الشهر القمري وعدد ايامه ومعرفته السنة القمرية والسنة الشمسية ، وفي العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م) وصل العراقيون القدماء الى مرحلة متقدمة في علم الفلك ورصد حركة النجوم والكواكب لاغراض دينية ودنيوية وقد استخدموا السنة القمرية وحاولوا التوفيق بينها وبين السنة الشمسية ، فاستخدموا السنة القمرية ، وعدد ايامها ٣٥٤ يوماً ، الا انهم اضافوا شهراً اضافياً كل ثلاث سنوات للتوفيق بين السنة القمرية والسنة الشمسية والمحافظة على مواعيد الاحتفالات الدينية في مواسمها من السنة ولاسيما عيد رأس السنة الذي يقع عادة في بداية الربيع (الايام الاولى من شهر نيسان) . ونظموا جداول تبين السنوات التي يحق اضافة شهر اضافي فيها وكان عدد اشهر السنة الاعتيادية ١٢ شهراً اضافوا اليها شهراً اضافياً بعد الشهر السادس او بعد الشهر الثاني عشر كل ثلاث سنوات اما اسماء الشهور العراقية القديمة ، فكانت تختلف من فترة الى اخرى وحسب المناطق الا ان الشائع منها هي الاسماء الاتية :

الاسماء العربية (العراقية)	الاسماء الاكدية
نيسان	نيسانُ
ايار	ايار
حزيران	سيمانُ
تموز	تموزُ
آب	آبُ
ايلول	ايلولُ
تشرين اول	تشرتُ
تشرين ثاني	ارخسمنا اوكين- ٢ - كَم
كانون اول	كسليمُ اوكين- ١
كانون ثاني	طيبتُ
شباط	شباطُ
آذار	اَذَار

وكما هو واضح فان اسماء معظم الاشهر ظلت مستخدمة في العراق الى الوقت الحاضر وانتقل بعضها الى اللغة العبرية والآرامية والسريانية مما دفع البعض الى الظن خطأ ان الاسماء دخلت العربية من العبرية او السريانية في حين انها اسماء من التراث العراقي القديم اينما وجدت.

اما بالنسبة للاسبوع، فربما قسم العراقيون القدماء الشهر الى اربع اسابيع حيث كانوا يقيمون احتفالات معينة في بداية كل شهر وفي اليوم السابع منه وفي منتصفه وفي اليوم الاخير منه، الا انهم كانوا يعودون الى اليوم الاول من الاسبوع عند بداية كل شهر جديد[1]. ولانعرف فيما اذا كان لكل يوم اسم معين ام انهم اعطوا تسلسلاً للايام: اليوم الاول والثاني والثالث... الى نهاية الاسبوع اي كما نفعل حتى الآن، وهو الاحتمال الاقرب حيث لم يرد في الوثائق ذكر اسم اليوم بل يكتب عادة اليوم الخامس من شهر كذا او اليوم العاشر وهكذا.

كما قسموا اليوم الى عدة اقسام، فقسموا الليل من غروب الشمس حتى شروقها الى ثلاث حراسات يضم كل منها، ٢ بيرو، وهي كلمة تترجم عادة ساعة مضاعفة، الا ان طول الحراسات الليلية كان يختلف حسب الفصول فقد يطول او يقصر. وقد فعل الشيء

(١) فاروق الراوي العلوم والمعارف، ص ٣٢٤.

نفسه المصريون القدماء بالنسبة للنهار. اما الفلكيين، فقد قسموا اليوم بكامله، الليل والنهار، الى ستة اقسام ذات اطوال متساوية وثابتة كل قسم يساوي ٢ بيرو، واقتبس هذه الطريقة السلوفيون حيث قسموا اليوم الى اربعة وعشرين قسماً، ومن هنا جاء تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة[1].

وعلى الرغم من التقدم العلمي الذي حققه العراقيون القدماء في مجال الفلك والرياضيات وغيرها من العلوم، واهتمامهم الكبير برصد حركة النجوم والكواكب، ومعرفتهم الدقيقة بالسنة الشمسية والسنة القمرية وابتداعهم اساليب ثابتة للتوفيق بينها عن طريق كبس شهر اضافي كل ثلاث سنوات، فأنهم لم يستخدموا اسلوباً موحداً لتأريخ السنين ومعرفة تسلسلها اي انهم لم يتخذوا من تاريخهم الطويل نقطة ثابتة يحسبون منها عدد السنين كما فعل من جاء بعدهم من الاقوام ولم يفطنوا الى هذه الطريقة في حساب السنين الا في اواخر القرن الرابع قبل الميلاد (وذلك عندما بدأ التقويم السلوقي عام ٣١١ ق.م). اما في العصور السابقة لذلك فقد اتبعوا اساليب مختلفة لتأريخ السنين في الفترات المختلفة التي مرت عليهم وهي:

١ - تأريخ السنين حسب الحوادث

كانت السنون تؤرخ في الفترات المبكرة، بدءاً من اقدم العصور التأريخية التي استخدمت فيها طريقة التأريخ وحتى نهاية العصر البابلي القديم في حدود ١٦٠٠ ق.م. بأهم الحوادث. فتسمى كل سنة من السنين باهم حادثة وقعت فيها، كاعتلاء الملك العرش او القيام بهجوم عسكري او بناء معبد او قصر او فتح قتال والى غير ذلك من الحوادث المهمة انذاك. وكانت العادة ان يعلن عن اسم السنة الرسمي بموجب امر ملكي يصدر عن القصر الملكي في مطلع العام لكي تستخدم الصيغة الجديدة لتأريخ السنة في العقود والوثائق الرسمية والشخصية، وغالباً كانت السنة تسمى باللغة السومرية وتكون عادة قصيرة نحو:

"السنة التي اصبح فيها المقدس شوسين ملكاً"
"السنة التي شيد فيها السور العظيم"

---

(١) انظر، هاري ساكز، عظمة بابل، لندن، ١٩٦٢، ترجمة عامر سليمان، موصل ١٩٨٢، ص٥٦٣.

وحيث انه من الصعب ان تعرف الاحداث المهمة التي ستقع في خلال السنة ، وقد لايحدث حادثة مهمة في بداية السنة ، وهو وقت تسميتها ، لذلك فقد جرت العادة على تسمية السنة بالنسبة الى السنة السابقة لها نحو:

"السنة التي تلي السنة التي شيد فيها السور العظيم"

"السنة التالية للسنة التي اعتلى فيها حمورابي العرش".

وقد تتكرر هذه الصيغة لاكثر من سنة واحدة اذا كان هناك حادثة مهمة جداً ، كالقضاء على ملك ايسن المسمى أبي – سين، حيث سميت عدة سنوات تالية باسم هذه الحادثة المهمة ، فاذا سميت السنة باسم حادثة سابقة ، ثم وقع حادث مهم في خلال تلك السنة ، صدر امر ملكي جديد بتعديل اسم السنة نسبة الى الحادثة المهمة الجديدة.

وكان هذا الاسلوب دقيقاً بالنسبة لمنطقة معينة وفترة زمنية محددة ، الا انه لايفيد في حساب فترة زمنية طويلة لمعرفة المدة التي مضت على تدوين وثيقة ما مثلاً لذا قام الكتبة السومريون منهم والبابليون بتنظيم قوائم جمعوا فيها اسماء السنين المستخدمة للتأريخ مرتبة حسب تسلسلها الزمني لكي يمكن معرفة موقع كل سنة من السنين الاخرى ثم معرفة المدة التي مضت على تحرير الوثيقة مثلاً. وقد نظمت قوائم باسماء سنوات حكم كل ملك من الملوك وفي نهاية القائمة يذكر عادة عدد سنوات حكمه: "٥٣ سنة (هي) سنوات حمورابي" مثلاً ، تليها اسماء سنوات حكم الملك التالي التي تنتهي هي الاخرى بعدد السنوات حتى نهاية السلالة الحاكمة. ثم اصبح الكتبة يكتبون اسماء الملوك والى جانبهم عدد سنوات حكم كل منهم "خمسة ملوك كانت سنواتهم ١٦٣ سنة"، وكان ذلك الاساس الذي نظمت بموجبه جداول الملوك البابليين. وقد افادت هذه القوائم الباحثين في الوقت الحاضر فائدة جمة لانها اعطت فكرة عن اهم الاحداث التي وقعت في فترة محددة وتسلسل وقوعها واسم الملك والسلالة الذي وقعت الحوادث في عهده.

٢ – تأريخ السنين حسب حكم الملوك:

ومنذ بداية العصر البابلي الوسيط ، اي بداية حكم الكشيين في بلاد بابل ، في حدود ١٦٠٠ ق. م. استخدمت طريقة جديدة لتأريخ السنين وذلك بالنسبة لحكم الملوك ، فعندما يبدأ حكم ملك معين عند اعتلائه العرش ، تسمى تلك السنة باسم السنة التي اعتلى فيها الملك... العرش ، اما السنة الثانية فتسمى بالسنة الثانية لاعتلاء الملك... العرش ، والسنة الثالثة لاعتلاء الملك... العرش ، وهكذا حتى ينتهي حكم الملك بوفاته ، ثم يبدأوا من جديد بتسمية السنين نسبة الى الملك الجديد وهكذا. وقد ظلت

هذه الطريقة مستخدمة في بلاد بابل لسهولتها وذلك حتى اواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما وضع تقويم جديد يعتمد نقطة ثابتة لحساب السنين التالية لها.

٣- تأريخ السنين باسم الليمو limu

اما الآشوريون فقد استخدموا طريقة اخرى في تأريخ السنين وان كانت تعتمد على المبدأ نفسه الذي ارخت به السنون في العصر البابلي الوسيط ، فقد كانت السنة تسمى باسم الموظف الذي يرعى الاحتفالات الدينية الرسمية في مدينة آشور وكانت الوظيفة تسمى ليمو limu ، وهي وظيفة دورية يتناوب عليها كبار موظفي الدولة من قادة وحكام مقاطعات وكبار موظفي القصر حسب تسلسلهم الوظيفي ، وكان الملك يشغل شخصياً هذه الوظيفة ويرعى الاحتفال وذلك في السنة الاولى من حكمه اي عند اعتلائه العرش ثم يتابع كبار موظفي الدولة اشغال الوظيفة حسب التسلسل ويحمل كل من يشغل تلك الوظيفة لقب ليمو لتلك السنة ، وكانت السنة لذلك تسمى باسم من يشغل تلك الوظيفة. وقد ثبت الاشوريون قائمة باسماء جميع كبار موظفي الدولة الذين يمكن ان يشغلوا هذه الوظيفة مرتبة حسب التسلسل فما ان يحل رأس السنة حتى يعلن عن اسم الموظف الجديد وتسمى السنة باسمه دون اي تأخير او انتظار. وقد يحمل موظف معين هذا اللقب ويشغل الوظيفة اكثر من مرة حسب رغبة الملك ، كما قد يشغل الوظيفة مرة ثانية الملك نفسه ربما لكي يبدأ بدورة جديدة من الموظفين.

وكما فعل السومريون والبابليون من قبل ، فقد نظم الكتبة الآشوريون قوائم مطولة باسماء من حمل لقب ليمو مسلسلة زمنياً ، اي اشبه بقوائم اوجداول الملوك ، بعضها اقتصر على ذكر اسماء الموظفين (ليمو) فقط في حين ضم بعضها الآخر فضلاً عن اسماء الموظفين الذي شغلوا هذه الوظيفة اشارات لاحداث مهمة وقعت في عهد اولئك الموظفين.

وقد جرى العرف في بلاد آشور على اقامة مسلة خاصة بالموظف الذي تسمى السنة باسمه كانت ، كما يبدو، توضع في الميدان الكبير في مدينة آشور- مرتبة حسب تسلسلها الزمني او قد يدون ذلك على الواح من الطين.

ومما افاد المؤرخين المحدثين ان احدى السنوات المذكورة في قوائم الليمو، وهي السنة التاسعة من حكم اشوردان (الثالث)، قد ذكرت الى جانب اسم الموظف الذي شغل وظيفة ليمو تلك السنة اشارة الى حدوث كسوف للشمس. وقد امكن ، كما سبق والمحنا ، تحديد موعد هذا الكسوف من قبل الفلكيين على نحو دقيق وحدد موعد حدوث الكسوف

المذكور في قوائم الليمو بيوم ١٥ حزيران من سنة ٧٦٣ ق. م. وبالاستعانة بهذه النقطة الثابتة بالنسبة للتأريخ الميلادي امكن تعيين حكم الملك آشوردان الثالث والملوك الاخرين الذي سبقوه او جاءوا بعده بطرح او اضافة عدد سنوات حكم كل منهم وحسبما هو مثبت في جداول الملوك الاشوريين وقائمة الليمو، وامكن ضبط ازمنة حكم الملوك الآشوريين الى حدود سنة ١٧٠٠ ق.م.

وفيما يأتي مقتطفات من قوائم الليمو الاشورية المكتشفة :

في ليمو	آشور دان	ملك بلاد اشور	على (مدينة) گناناتي
في ليمو	شمشي- إلي	قائد القوات (تورتان)	على (مدينة) مرد
في ليمو	بيل- الاي	حاكم ارابخا	على (مدينة) اتوأ
في ليمو	أيلاي	حاكم نزاموا	في البلاد
في ليمو	بور- ساگالي	حاكم گوزانا	في شهر سيمان حدث
في ليمو	طاب- بيلُ	حاكم أميدي	ثورة في آشور
في ليمو	نابو- موكني راضي	حاكم نينوى	ثورة في ارابخا..[1]

وتستمر القائمة في ذكر اسماء الموظفين الذي شغلوا وظيفة ليمو الى السنة التي توفي فيها الملك اشور دان (الثالث) والذي استمر حكمه من عام ٧٧١ ق.م وحتى عام ٧٥٣ ق.م. وفي السنة التالية، اي في عام ٧٥٣ ق.م، اعتلى العرش اشور-نراري (الخامس) وقد ارّخت سنة حكمه الاولى باسمه لانه شغل وظيفة ليمو في تلك السنة. وهكذا ظل العراقيون القدماء يستخدمون اساليب شتى للتأريخ ولم يتخذوا نقطة ثابتة في حساب التأريخ ومعرفة تسلسل السنين. وقد افاد الباحثون المحدثون من القوائم التي خلفها لنا العراقيون القدماء سواء قوائم اسماء السنين او قوائم الليمو او غيرها في تحديد وضبط سنوات حكم الملوك وعاونهم في ذلك ان السلوقيين اتخذوا من عام ٣١١ (نيسان) بداية تأريخ جديد ارّخوا به السنين وعدوا تلك السنة، اي سنة ٣١١ ق.م، السنة الاولى من التأريخ السلوقي، كما افاد الباحثون المحدثون مما يعرف عادة بثبت بطليموس، وهو رياضي وفلكي وجغرافي اغريقي عاش في الاسكندرية في الفترة ١٢٧-١٥١ ق.م، الذي ضمن احد كتبه قائمة باسماء كل الملوك البابليين والفرس وسني حكمهم من عهد الملك البابلي بنوناصر (٧٤٦-٧٣٤ ق.م) وشمل كذلك اسماء الاباطرة الرومان. كما ذكر بطليموس جملة من

(1) Ebeling and Meissner, Rellexikon der Assyriologie, 2, QB, 30, pp. 412-457, Grayson, op. cit., pp. 196 H

الظواهر الفلكية المهمة . وقد تمكن الباحثون بالمقارنة مع ماورد في هذا الثبت مع قوائم الليمو الاشورية من تحديد ازمان حكم الملوك الاشورين خلال الالف الاول قبل الميلاد .[1]

ومن الجدير بالاشارة هنا ان الاغريق اتخذوا من عام ٧٧٦ ق . م . بداية لتقويم خاص بهم ، وهو تأريخ ابتداء العاب الاولمپياد ، كما استخدم الرومان تقويماً عد سنة ٧٥٣ ق . م . بداية له وهو تأريخ تأسيس مدينة روما ، وبطبيعة الحال ان هذين التقويمين استخدما في فترة متأخرة من تأريخ اليونان والرومان وليس من السنوات التي بداءا بها .

(١) انظر: جورج رو ، العراق القديم ، ص ٥٢ .
طه باقر ، المقدمة ، ص ١٤٧ .

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٣ مصادر معلوماتنا عن تاريخ العراق القديم

- مصادر معلوماتنا عن تأريخ العراق القديم قبل بدء التنقيبات الأثرية :

ان مصادر معلوماتنا عن التأريخ القديم بصورة عامة تتمثل بجميع ماخلفه الانسان من بقايا مادية ، كالمباني والآلات والادوات والدمى والتماثيل والمسلات وبقايا الهياكل العظمية والصور المدونة على اختلاف اشكالها . الا ان معظم تلك البقايا والاثار كانت ، ولم تزل قسم كبير منها حتى الان ، مطمورة في بطون التلول الاثرية التي تكونت بفعل العوامل الطبيعية عبر العصور المتتالية على مواقع ومواطن سكنى الانسان المهجورة ، فغابت تلك البقايا عن الانظار وانقطعت اخبارها واخبار من خلّفها لنا ولم يعد يعرف عنها شيء يعتد به سوى ما تناقلته الاجيال من قصص وحكايات خاصة بالاقوام التي كانت تعيش في المنطقة في غابر الايام والتي تركت كنوزاً وآثاراً مهمة مطمورة تحت التلول الاثرية المنتشرة في كل مكان . وظلت البقايا والآثار كذلك حتى آن لها ان ترى النور ثانية في العصر الحديث عندما بدأت عمليات التنقيب والحفر للكشف عن الآثار ، فعادت تحكي لنا من جديد وبعيداً عن القصص الخيالية والمبالغات قصة الانسان الذي عاش في المنطقة في العصور الغابرة وما خلّفه من بقايا تعكس منجزاته الحضارية .

لذا ، فان ما كان يعرف عن تأريخ العراق القديم قبل بدء التنقيبات الاثرية في العصر الحديث يقتصر على بعض الاخبار والروايات والقصص التي ورد ذكرها في بعض اسفار العهد القديم (التوراة) وفي مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين من يونان ورومان وما ذكره الرحالة والسوّاح الاوربيون الذين زاروا العراق ووصفوا احواله واثاره الشاخصة ونقلوا عن سكانه ماسمعوه من حكايات واخبار عن تاريخه. ولمعرفة مدى دقة مايمكن استنباطه من هذه المصادر نورد فيما يأتي نبذة موجزة عن كل منها :-

فأما كتاب العهد القديم The Old Testament ، وهو كتاب اليهود المقدس الذي يسمى جوازاً بالتوراة ، فيتألف من تسعة وثلاثين سفراً[1] سمي كل سفر منها باسم معين ينم عن مضمونه مثل سفر التكوين وسفرالخروج وسفر الملوك ... الخ . وتؤلف الاسفار الخمسة الاولى منه فقط بقايا التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ، اما الاسفار الأخرى فتتناول تأريخ بني اسرائيل من بعد موسىٰ ، كما تضم الكتابات والأشعار والمزامير الخاصة بهم . وعلى الرغم من المكانة المقدسة التي يحتلها العهد القديم عند معظم الباحثين ، ولاسيما الاوربيين منهم ، فان هناك ملاحظتين مهمتين يجب الانتباه اليها عند اعتماده مصدراً للمعلومات عن تأريخ العراق القديم هما :

١- تؤكد الدراسات التأريخية الحديثة المعتمدة على نتائج التنقيبات الاثرية وعلى ماورد في النصوص المسمارية من معلومات ان معظم اسفار العهد القديم كانت قد دونت بشكلها النهائي من قبل الاحبار اليهود خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، اي في الفترة التي كان يعيش فيها اولئك الاحبار في بلاد بابل اثر الترحيل البابلي لهم ، اي بعد نزول التوراة الاصلية على النبي موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، كما هو متفق عليه بين الباحثين ، باكثر من سبعة قرون قاست خلالها التوراة ، وهي الاسفار الخمسة الاولى من العهد القديم ، من الحذف والاضافة والتحريف والتحوير بما ينسجم واهواء الاحبار اليهود التي الكثير[2] ، وهذا ماأكد عليه القرآن الكريم في اكثر من موضع[3] .

(١) استناداً الى الاسفار التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتية . اما الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة اسفار اخرى ليصبح عدد اسفار العهد القديم ست و بعون سفراً (انظر تفصيل ذلك : احمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التأريخ ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٣٢١ ، هامش ٣٥٢ ، محمد سيد طنطاوي ، بنواسرائيل في القرآن والسنة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٢) انظر: احمد سوسة ، المفصل ، ص ٣٣٠-٣٤٨.

(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة : ٧٥ ، النساء : ٤٥ ، المائدة : ١٤ ، ٤٤ ، الانعام : ٩١.

هيرودوتس
زينفون

ب- انه من البديهي ان الاخبار الخاصة بتأريخ اليهود وتأريخ انبيائهم من بعد موسى وتأريخ علاقات اليهود مع الاقوام الاخرى المعاصرة لهم، ولاسيما البابليين والاشوريين، مما ورد ذكره في بعض اسفار العهد القديم، لاعلاقة له اصلاً بالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام بل انها اخبار تخص فترة لاحقة وانها تعكس وجهة نظر الاحبار اليهود الدينية والسياسية وتعصبهم القومي وحقدهم الدفين ضد جميع الاقوام الاخرى من غير اليهود وفي مقدمتهم البابليون والاشوريون الذين كانت تربطهم بهم علاقات عدائية مستمرة من قبل ان تدون اسفار العهد القديم بقرون عدة، وهذا مايعترف به جميع الباحثين عرباً كانوا ام اجانب.

ومع هاتين الملاحظتين المهمتين عن كتاب العهد القديم اللتين تقللان بالتأكيد من قيمة ماورد فيه من اخبار تأريخية، فان ذلك لايعني رفض جميع ماورد فيه من اخبار، فالاخبار الواردة فيه قد دونت في فترة قريبة من فترة حدوثها وهي بذلك مصدر مهم في دراسة التاريخ ولكن بعد ان يدقق الباحث فيها ويخضعها للنقد التأريخي الموضوعي مستفيداً من المعلومات المستمدة من الآثار الاكثر قدماً، ولاسيما ماورد في النصوص المسمارية من اخبار ذات علاقة، وصولاً الى الحقائق التأريخية.

اما الاخبار والمعلومات التي اوردها الكتاب الكلاسيكيون من يونان ورومان عن العراق وعن احواله فهي الاخرى اخبار مشوشة مليئة بالحكايات والروايات والاساطير التي سمعها اولئك الكتاب ونقلوها دون تدقيق واحياناً دون تصديق ويقف هيرودوتس (٤٨٠-٤٢٥ ق.م) على رأس اولئك الكتاب الذين كتبوا عن بلاد بابل وآشور في فترة الاحتلال الاخميني (٥٣٩-٣٣١ ق.م) و زعم انه زار بلاد بابل وآشور وشاهد آثارها الشاخصة وسمع من اهلها القصص والروايات واطلع بنفسه على طائفة من عادات القوم وتقاليدهم وقصصهم وحكاياتهم عن ملوكهم وابطالهم السابقين. وكان زينفون (٤٣٠-٣٥٥ ق.م) قائداً عسكرياً لفلول حملة عسكرية كان معظمها من المرتزقة الاغريق في تقهقرها من بلاد بابل الى اسيا الصغرى عرفت بحملة العشرة آلاف جندي، وقد دون لنا زينفون وصفاً ممتعاً للمدن والمواقع التي مر بها في طريق عودته الى بلاد الاناضول، وربما كانت اخباره ادق من اخبار غيره من الكتاب باعتباره شاهد عيان فعلاً. الى جانب ذلك، فقد وردت اخبار بلاد بابل واشور في مؤلفات العديد من الكتاب الاخرين مثل بوليبيوس (٢٠٢-١٢٠ ق.م) وسترابون (حدود ٦٤ ق.م-١٩ م) وديودورس الصقلي (٤٠ ق.م) والمؤرخ اليهودي جوزيفوس (٣٧-١٠٠ م).

ومن الكتاب الكلاسيكيين الذي كتبوا بالاغريقية الكاهن البابلي بيروسس من القرن الثالث قبل الميلاد ، الا ان كتاباته لم تصل الينا الا من خلال مقتبسات ضمنها كتب اخرى لاحقة . وفضلاً عن هؤلاء فان هنالك عدداً من الكتاب الرومان الذين ذكروا طائفة من اخبار بلاد بابل وآشور مثل الكاتب اريان (٩٥-١٧٥ م) والفلكي بطليموس من القرن الثاني الميلادي وغيرهما[١] .

وكان لاخبار الرحالة والسواح الاجانب الذين زاروا بلدان واقاليم الشرق الادنى ، ومنها العراق ، اهميتها الخاصة فهي فضلاً عن كونها وصفت لنا الآثار التي كانت شاخصة وقت زيارتهم للعراق ونقلت بعض الاخبار والروايات التي كانت متداولة في حينه ، فقد كان لها اثرها في اطلاع الغرب على سحر الشرق واثار ماضيه مما له علاقة مباشرة بما ورد ذكره في اسفار العهد القديم مما اثار الرغبة لدى بعض الاوربيين لزيارة الشرق مدفوعين بدوافع واطماع سياسية واقتصادية ودينية .

ويأتي في مقدمة الرحالة والسواح بنيامين التطيلي الاسباني اليهودي الذي زار العراق في زمن الخليفة العباسي المقتفي بالله (١١٦٠-١١١٠ م) ووصف خرائب عدد من المدن العراقية القديمة مثل نينوى وبابل ، وكان هدفه الاساس من زيارته الاطلاع على اوضاع اليهود في العراق والكتابة عنها . ومن الرحالة الالمان راوولف الذي زار العراق في الفترة (١٥٧٣-١٥٧٦) والايطالي بترو ديلافالة (١٦١٦-١٦٢٥ م) وغيرهما .

وخلال القرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر، زادت الرغبة في زيارة العراق والاطلاع على آثاره ، وعمدت بعض المؤسسات العلمية الى ارسال مبعوثيها الى الشرق لجمع المعلومات والتقاط بعض نماذج الاثار المكتشفة وارسالها الى اوروبا ، وكان من بين المبعوثين الاوائل الدنماركي كارستن- نيبور (١٧٦١-١٧٦٧ م) . كما نشطت الشركات الاجنبية العاملة في الشرق في هذا المجال مدفوعة باهداف سياسية وتجارية ، فاهتمت بالبحث عن الاثار وزيارة مواقعها ووصفها واخذ مخططات بعضها واقام بعض الموفدين الى بغداد فترة طويلة نسبياً. ومن المبعوثين المبعوث البابوي بوشام (١٧٨٥-١٧٩٠ م) وكلوديوس ريج ، القنصل البريطاني في بغداد (١٨٠٧-١٨٢١ م) وغيرهما[٢] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك : طه باقر، المقدمة ، ص ١٠٨-١١٢ وكذلك سامي سعيد الاحمد ، المفصل الى تأريخ العالم القديم ، القسم الاول ، العراق القديم ، الجزء الاول ، بغداد ، ١٩٧٨ ص ٣٨-٤٤

(٢) انظر تفصيل ذلك : طه باقر، المقدمة ، ١١٢-١١٤ .

من هذا الاستعراض المقتضب لمصادر معلوماتنا عن تأريخ العراق القديم من قبل ان تبدأ العمليات المنظمة للتنقيب عن الآثار يتبين ان مايمكن استنتاجه من معلومات تأريخية دقيقة قليل جداً لاتتناسب واهمية وطول الفترة الزمنية التي احتلها وشغلها تأريخ العراق القديم ، واهمية الحضارة التي ازدهرت فيه لاكثر من الفين من السنين ، كما بينت ذلك المكتشفات الاثرية فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ، فان المعلومات المستخدمة جاءت غير دقيقة في غالب الاحيان ويطغىٰ عليها الخيال وتتخللها الاساطير والحكايات وينقصها النقد ، فكان ماكتب عن تأريخ العراق القديم في القرون السالفة أشبه بالحكايات والروايات منه الى التأريخ.

التنقيبات الأثرية :

يقصد بالتنقيبات الاثرية عمليات الحفر المنظمة للكشف عن آثار الماضي ومخلفاته المطمورة في بطون التلول والمواقع الاثرية المختلفة ودراستها واستنتاج مايمكن استنتاجه منها عن حياة الانسان وعن حضارته في العصور التي تعود اليها الاثار المكتشفة.

بدأت عمليات البحث عن الاثار والكنوز المطمورة في التلول الاثرية منذ بداية القرن الثامن عشر، وكان للنتائج التي توصل اليها بعض المبعوثين الاجانب الى العراق ، وما اثارته كتاباتهم ومذكراتهم عن زياراتهم للعراق وتعرفهم على مواقعه الاثرية من حماس لدى المتطلعين للشهرة والراغبين في المغامرة ، ان زادت الرغبة في زيارة العراق والبحث عن كنوزه والكشف عن مدنه القديمة ولاسيما تلك التي ورد ذكرها في العهد القديم. وزاد في الحماس والرغبة وصول نماذج من الكتابات المسمارية التي كانت قد ارسلت الى اوروبا ، فعكف على دراستها وتحليلها عدد من الباحثين الاوربيين من مختلف الاقطار حتى تم لهم قراءتها وفك رموزها وذلك في اواسط القرن الماضي.

وقد شجعت الدول الاوربية بصورة عامة الافراد والمؤسسات العلمية لزيارة العراق والبحث عن آثاره تحقيقاً لاطماعها المتزايدة في المنطقة واغناءاً لمتاحفها بالاثار الثمينة ، وكان الصراع بينها ، ولاسيما بين بريطانيا وفرنسا ، في هذا المجال على اشده. وقد اختارت كل من هاتين الدولتين عدداً من قناصلها ومبعوثيها الى الشرق العربي لهذه المهمة ، لذلك لم يكن المنقبون الاوائل عن الآثار من العلماء او الباحثين بل يصح ان نسميهم بالمنقبين الهواة. وكان من بينهم الانكليزي كلوديوس ريج والقنصل الفرنسي بوتا ومساعده پلاس والانكليزيين ليرد رولنصون اضافة الى هرمز رسّام الذي قام بمعاونتها. وفي بلاد بابل عمل

القنصل الفرنسي دي سارزاك ايضا[1] . اما الولايات المتحدة الامريكية ، فقد ارسلت بعثتها الاولى من جامعة بنسلفانيا الى مدينة نفر السومرية وذلك عام ١٨٧٧ .

استمرت تنقيبات الهواة مدة نصف قرن تقريباً ، من عام ١٨٤٢ ولغاية عام ١٨٩٩ ، وكانت ابعد ماتكون عن التنقيبات العلمية ، بل كانت اقرب للنبش العشوائي بحثاً عن الكنوز الاثرية والقطع المتحفية ، كالمنحوتات الجدارية والتماثيل والمسلات والثيران المجنحة . دون الالتفات الى اللقى الاثرية الصغيرة ، ولاسيما تلك المصنوعة من الطين والفخار ، كما لم يلتفت المنقبون الاوائل الهواة الى مايعرف الان بالطبقات الاثرية والأدوار الحضارية ولم يميزوا في أحيان كثيرة بين جدران القصر ، او المعبد المشيدة باللبن عن الانقاض والتربة الطينية المحيطة بها فازيلت جدران كثيرة دون معرفة وضاعت مخططات الابنية كما ضاعت بين الانقاض مئات الالواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية لصعوبة تمييزها ، وخاصة غير المفخور منها ، عن كتل الطين الاخرى. ولم يهتم المنقبون بتسجيل معاثر الآثار المكتشفة ورسم مخططات الابنية وتصوير الطبقات الاثرية طالما كان الهدف الاساس من كل اعمال التنقيب هو جمع اكبر مايمكن جمعه من الاثار المتحفية ونقلها باسرع وقت الى متاحف اوروبا ، لذا تركزت اعمالهم في المدن الكبيرة والعواصم المعروفة مثل خرصباد ونمرود ونينوى ولم يُعر اي اهتمام للمواقع الصغيرة وخاصة مواقع عصور قبل التاريخ التي لايتوقع العثور فيها على آثار متحفية . وكان من نتائج تنقيبات الهواة هذه ان تم الكشف عن مجموعة كبيرة جداً من الآثار الآشورية والسومرية المهمة ارسلت جميعها الى متاحف اوروبا وهي تزين الآن متحف اللوفر بباريس والمتحف البريطاني في لندن اضافة الى متحف بنسلفانيا في امريكا ، وفقدت بعض الآثار المكتشفة في قاع الخليج في اثناء نقلها بوساطة الاكلاك في طريقها الى السفن البحرية المبحرة الى اوروبا . ومع اهمية الاثار المكتشفة الكبيرة ، حيث انها ضمت اروع المنحوتات الجدارية والثيران المجنحة والتماثيل والمسلات الاشورية ، وقبل كل شيء ، الالف الرقم الطينية ومنها رقم مكتبة اشوربانيبال الشهيرة ، وهي اقدم واغنى مكتبة مكتشفة حتى الان ، فلقد اضرت تنقيبات الهواة كثيراً بالمواقع الاثرية وضيعت معلومات كان من الممكن التعرف عليها لو كانت التنقيبات علمية ودقيقة كما انها فسحت المجال للافراد والهيئات الاجنبية نهب ماشاءت من الاثار وارسالها الى متاحفها دون مسوغ قانوني او وازع وطني وشجعت في الوقت نفسه السكان المحليين من غير المتعلمين على

(١) انظر تفصيل ذلك : بهنام ابو الصوف ، دور التنقيبات الاثرية في الكشف عن حضارة العراق القديمة في حضارة العراق بغداد ، ١٩٨٥ ، ج١ ، ص ٥٩-٦٥ وكذلك جابر خليل ، الانشطة الاثارية ، في موسوعة الموصل الحضارية ، موصل ١٩٩١ ، ص ٤٩٠-٤٩٢ .

البحث عن الاثار بهدف المتاجرة بها وبيعها الى الاجانب فاصاب المواقع الاثرية التخريب والتدمير الى درجة ان سراق الآثار شوّهوا بعض الآثار المكتشفة ، كالمنحوتات الكبيرة ، فاقتطعوا الاجزاء المهمة منها في نظرهم ، وغالباً الجزء العلوي الذي يظهر فيه رأس الملك او الاله ، وتركوا الاجزاء السفلي المليئة بالكتابات المسمارية غالباً لم تزل حتى الآن تشهد على تخريبهم ونهبهم للآثار.

وقد احست الدولة العثمانية بالاضرار الفادحة التي اصابت المواقع الاثرية ونهب الاجانب لتلك الآثار فقامت باصدار تشريع خاص بالآثار يوجب قسمة الآثار المكتشفة بينها وبين المنقبين.

ومنذ اواخر القرن الماضي وعندما بدأت البعثة الالمانية بالتنقيب في مدينة بابل ثم في مدينة آشور، دخلت التنقيبات طوراً جديداً يمكن ان يسمى بطور التنقيبات العلمية حيث اتبعت البعثة الالمانية اساليب دقيقة وعلمية في الكشف عن الاثار غدت فيما بعد مثلاً يحتذى به من قبل البعثات الاجنبية الاخرى ، وقد عرف عن الالمان انهم اتبعوا اسلوب التنقيب الافقي وضبط معاثر الاثار المكتشفة ورسم المخططات واخذ الصور الفوتوغرافية وتسجيل الآثار كما قاموا بتدريب عمال القرى المجاورة على اعمال الحفر الفني ومع ذلك ، فقد ظلت البعثات الأجنبية تأخذ الآثار المكتشفة وتبعث بها الى متاحفها خارج العراق ، وقد زادت هذه الظاهرة في اعقاب الحرب العالمية الاولى بعد زوال السلطة العثمانية ووقوع العراق تحت الانتداب البريطاني حيث لم يكن هناك قانون يلزم بعثات التنقيب على قسمة الآثار او الالتزام بضوابط معينة خاصة وكانت قد انيطت ادارة شؤون الاثار في العراق بالسلطات الادارية الاجنبية[1].

ثم تتابعت بعثات التنقيب الاجنبية للعمل في المواقع العراقية المختلفة وبدأ نشاط الجمعيات والمعاهد والمتاحف الاوربية والامريكية يزداد وشهدت الفترة بين الحربين نشاطاً واضحاً في مجال التنقيب عن الاثار ولم يعد الاهتمام بالتنقيب في المدن الكبيرة والعواصم فقط بل بدأ العمل في مواقع العصور الحجرية في الكهوف والمغاور فضلاً عن مواقع العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وهي مواقع لايتوقع الكشف فيها عن اثار متحفية مهمة . كما افاد المنقبون في السنوات الاخيرة من معطيات بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء الذرية لتحديد ازمنة بعض الآثار المكتشفة :

(١) جابر خليل ، الانشطة الاثارية ، ص ٤٩٥-٤٩٦.

وكان تأسيس اول دائرة وطنية للاثار في العراق عام ١٩٢٠ ، وكانت مرتبطة انذاك بوزارة المعارف وقد شرع اول قانون يحمي الاثار العراقية عام ١٩٢٤ اي بعد تأسيس المتحف العراقي مباشرة ، وكان دور دائرة الاثار الاشراف على اعمال هيئات وبعثات التنقيب الاجنبية وتطبيق قانون الآثار وحماية المواقع الاثرية من العبث الا ان نشاط الدائرة كان واضحاً في الفترة مابين الحربين خاصة بعد ان تخصص عدد من العراقيين في دراسة الآثار ، وكان في مقدمتهم الاستاذان الفاضلان طه باقر وفؤاد سفر اللذان قادا بنجاح اعمال التنقيب في عدد من المواقع الاثرية مثل مدينة واسط وعقرقوف والدير وحرمل والضياعي وحسونة واريدو والحضر وسامراء وتكريت والكوفة واسوار نينوى وخرصباد .

وفي عام ١٩٣٦ صدر قانون جديد للآثار نص على حماية المواقع الأثرية من عبث العابثين من البعثات الاجنبية والسكان المحليين ومنع المتاجرة بالاثار وحدد حصة البعثات الاجنبية من الآثار المكتشفة وحقوقها في النشر والتزاماتها تجاه دائرة الآثار ، وفي عام ١٩٧١ صدر تعديل جديد لقانون الآثار منع بموجبه اخراج اي مكتشف الى خارج حدود العراق الا من اجل الدراسة وعلى سبيل الاعارة ونص على ضرورة صيانة المواقع الاثرية كما حددت بموجبه مواصفات هيئة التنقيب العلمية وواجباتها والتزاماتها تجاه دائرة الآثار.

وفي عام ١٩٥١ كان تأسيس قسم الآثار بكلية الآداب بجامعة بغداد ، فكان ذلك فاتحة عهد جديد في حقل التنقيب ودراسة الآثار حيث عمل القسم على تخريج ملاكات علمية متخصصة للعمل في حقل الآثار وتخصص عدد لابأس به من خريجي القسم في الجامعات الاجنبية وعادوا الى الوطن لتحمل المسؤولية في الكشف عن الآثار والاشراف العلمي والفني على اعمال الهيئات الاجنبية والمساهمة الجادة في اعمال تلك الهيئات ومن ثم دراسة وتحليل الاثار المكتشفة . الى جانب ذلك ، كان تدريب عدد من العمال الفنيين على اعمال الحفر الفني والذي بدأ منذ مطلع القرن الحالي في اشور ، قد افاد كثيراً هيئات التنقيب حيث اصبح بامكان العمال المتدربين التعرف على جدران اللبن والواح الطين وتمييز الطبقات الاثرية والعناية بالتحف الاثرية حتى غدت مهمتهم ودورهم في اعمال التنقيب يوازي مهمة المنقّب العلمي المختص واصبح اشتراكهم في اعمال التنقيب في مختلف المواقع الاثرية من الامور الطبيعية ، وقد سموا بالشرقاطيين لانهم جاءوا من القرى المحيطة بالشرقاط وقد انتقلت خبرتهم الى ابنائهم واحفادهم ومازالوا يؤدون مهامهم على الوجه الاكمل الى الان .

فضلاً عن ذلك فقد ساهمت الجامعات العراقية في السنوات الاخيرة في اعمال التنقيب والصيانة الاثرية ، وكانت جامعة الموصل السباقة في هذا المجال حيث باشرت اعمالها بالتعاون مع دائرة الاثار عام ١٩٦٨ في الكشف عن بوابة ادد في سور نينوى الشمالي كما اكتشفت هيئتها مدينة تربيص الاشورية الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من ابنية الجامعة الحالية اضافة الى مساهمتها الفاعلة في انقاذ عدد من المواقع الاثرية قبل ان تغمرها مياه سد صدام (الموصل) ، وهي موقع تل ابو ظاهر وتل مصيفنة وتل سلال وتل زمار في حين قامت جامعة بغداد بالتنقيب في موقع تل اسود وبقايا مدينة سپار، كما ساهمت جامعة البصرة في العمل في احد المواقع الاسلامية القريبة وبادرت جامعة القادسية الى التنقيب عن الاثار في احد المواقع القريبة منها كذلك في السنة الاخيرة.

وحيث ان مياه السدود الخاصة بمشاريع الري الكبرى التي تنفذ في العراق حالياً ستغمر اعداداً كبيرة من المواقع الاثرية ، فقد بادرت دائرة الاثار والتراث بمسح المناطق التي ستغمرها المياه والاعلان عن الحملات الوطنية لانقاذ آثار المواقع الاثرية المهددة بالغمر وابدت استعدادها للانفاق على هيئات التنقيب العالمية والعربية والمحلية ، فتوافدت البعثات الاجنبية من مختلف اقطار العالم للمساهمة في حملات الانقاذ هذه ، وكانت بعثة كلية الاداب في جامعة الموصل اول بعثة لبت هذا النداء.

التنقيب والتلول الاثرية

كان من نتائج التنقيبات الكثيرة التي اجريت في المواقع المختلفة في العراق انه تم الكشف عن آثار كثيرة متنوعة بعضها غاية في الاهمية امدتنا بمعلومات غزيرة عن تاريخ الإنسان وتاريخ تطور منجزاته الحضارية عبر العصور الطويلة التي عاشها في هذا الجزء المهم من العالم القديم بدءاً من العصور الحجرية فصاعداً. وهنا لابد من التوقف قليلاً للتعرف على طبيعة اعمال التنقيبات الأثرية والمواقع او التلول التي تجري فيها وكيفية الافادة من الآثار المكتشفة وتحديد ازمنتها.

فالتنقيبات الأثرية هي عبارة عن عملية حفر منظم تقوم بها جهات علمية متخصصة بهدف الكشف عن جميع مخلفات الانسان المطمورة في بطون التلول والمواقع الأثرية او تحت مستوى ارضيات الكهوف والمغاور، ودراستها وتحليلها بشتى الوسائل الحديثة واستنتاج مايمكن استنتاجه منها من معلومات عن حياة الانسان الذي خلف تلك البقايا. والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو كيف غابت تلك الآثار والمخلفات عن الانظار وانطمرت

تحت اكداس من الاتربة، او تحت مستوى ارضية المواقع الأثرية، مكونة مايعرف عادة بالتلول الأثرية المتناثرة هنا وهناك في مختلف انحاء العراق من اقصاه الى اقصاه ولاسيما في المناطق السهلية الخصبة وفيرة المياه او على شواطئ الانهار. وللاجابة عن مثل هذا التساؤل لابد من التعرف على كيفية استقرار الانسان في القرى والمستوطنات الزراعية وتشييده المدن. فالمعروف ان الانسان قديماً وحديثاً يختار المواقع المناسبة لاقامة مستوطناته الزراعية، قريباً من منابع المياه وفي وسط ارض خصبة او على احد الطرق التجارية او في سفح جبل يحميه من الاعداء ويوفر له مصّداً طبيعياً ضد الرياح العاصفة وغيرها، وغالباً ماتشيد البيوت على موضع مرتفع نسبياً عن مستوى الارض المجاورة لتكون اكثر اشرافاً على الارض ومنعاً لتجمع مياه الامطار بالقرب من اماكن السكن. وحيث ان جدران البيوت كانت، ولم تزل حتى الان، تشيد غالباً من الطين المجفف بالشمس، اي اللبن، وتسقف بجذوع الاشجار واغصانها تعلوها طبقة من الطين، تماماً كما يفعل الآن سكان القرى عند بناء البيوت التي تعرف محلياً بالدوم، لذا فان مثل هذه البيوت سرعان ماتتهدم وتتداعى جدرانها فيسارع اصحابها الى ترميمها سنة بعد اخرى الى ان تتهدم كلياً ولايمكن اصلاحها او ترميمها فيضطر اصحابها الى هدمها وتسوية انقاضها وتعديل الارض بها لتكون اساساً للبيوت الجديدة التي تشيد عادة فوق انقاض البيوت القديمة وترتفع نتيجة ذلك ارضية البيوت الجديدة عن ارضية البيوت القديمة بسبب تراكم الانقاض وتسويتها، وبتكرر عملية الهدم والتسوية والبناء في المكان الواحد بتعاقب الاجيال، ترتفع ارضية اماكن السكن تدريجياً حتى تصبح آخر مجموعة من البيوت الجديدة وكأنها مشيّدة على تل او مرتفع اصطناعي يتألف من عدة طبقات يفصل بين طبقة واخرى ارضية ترابية او طينية مدكوكة تكونت نتيجة الدوس والمشي والسكن عليها. وتسمى كل طبقة من هذه الطبقات بالطبقة الأثرية او السكنية لان كلاً منها يمثل بقايا مجموعة من البيوت السكنية. وتمثل آخر مجموعة من البيوت، وهي الواقعة في اعلى موقع السكن، الطبقة الاخيرة من حيث الفترة الزمنية. فاذا ماهجرت تلك البيوت ايضاً وهجرت معها القرية او المدينة كلياً لاي سبب كان، سواء بسبب ارتفاع الموقع ارتفاعاً كبيراً نتيجة استمرار الاستيطان فيه أم بسبب انقطاع موارد المياه او تغير مجرى النهر او تغير الطرق التجارية او نتيجة حدوث بعض الكوارث كالحرائق والفيضانات او غزو الاعداء او لمجرد قلّة خصوبة الارض لزيادة نسبة الملوحة فيها، وتركت المدينة او القرية لعوامل التعرية الطبيعية، فبعد سنوات قليلة تتداعى الجدران وتتساقط السقوف وتتجمع الاتربة والانقاض وتؤلف الابنية مصداً للرياح المحملة بالاتربة، فتتراكم فوقها الاتربة سنة بعد أخرى حتى تغطيها وتبدو وكأنها تل طبيعي

في حين انها تمثل تلاً اصطناعياً في داخله آثار وبقايا قرية او مدينة كانت في وقت ما آهلة بالسكان. وهناك من المواقع التي استمر السكن فيها منذ اقدم العصور ولم تزل مسكونة حتى الان مثل قلعة كركوك وقلعة اربيل وتل النبي يونس في الموصل وغيرها ويمثل كل من هذه المواقع تلاً اصطناعياً تكون من تراكم وتتابع الطبقات السكنية المتعاقبة.

وقد يسكن الانسان في الكهوف والمغاور، ولاسيما في العصور الحجرية القديمة في وقت لم يكن يعرف تشييد البيوت واقامة القرى، الا انه ترك مخلفاته البسيطة على ارضية الكهف او المغارة المذكوكة، وتمثل كل ارضية دوراً سكنياً معيناً وقد يعثر على بعض الادوات الحجرية الصغيرة او بقايا الهياكل العظمية او غيرها بين ارضيات السكن مما يلقي بعض الضوء على حياة الانسان في تلك العصور السحيقة في القدم.

الطبقة الأثرية والدور الحضاري:

ويسمى المختصون بالتنقيب والآثار انقاض وبقايا كل مجموعة من البيوت المتهدمة والتي تعود عادة لفترة زمنية واحدة تقريباً بالطبقة الأثرية. او السكنية ، ويفصل بين طبقة سكنية واخرى ارضية البيوت الاحدث عهداً المكونة نتيجة الدوس والمشي. ومن الطبيعي ان انقاض كل طبقة اثرية تضم فضلاً عن جدران اللبن المتداعية والسقوف المتهدمة- بعض المخلفات الاخرى التي ردمها الانسان مع الانقاض اما لعدم فائدتها ككسر الاواني الفخارية والحجرية وبعض الرقم الطينية وكسر التماثيل والمسلات والآجر وغيرها، او انها ذات فائدة وقيمة مادية الا انها انطمرت مع الانقاض عن غير قصد. وتضم الطبقات الأثرية المكونة نتيجة الحرائق والفيضانات وغيرها من الكوارث والتي اضطرت الانسان الى ترك موقع سكناه بعجالة، اثاراً اكثر اهمية وغالباً ماتضم المنحوتات والمسلات والقطع المعدنية وغيرها.

وقد تتشابه عدة طبقات اثرية، او سكنية، من حيث نوعية آثارها وطرز ابنيتها ونقوش والوان اوانيها الفخارية، فيقال ان تلك الطبقات المتشابهة تمثل دوراً حضارياً معيناً وقد تمثل فترة زمنية تدوم لعشرات السنين او بضعة قرون. ويختلف الدور الحضاري المؤلف من مجموعة من الطبقات الأثرية عن غيره من الادوار الحضارية باختلاف ظاهر في الطرز المعمارية والفخارية وبتبدلات ثقافية واختراعات جديدة تعكس تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية. وكمثال على ذلك نشير الى مدينة الوركاء في القسم الجنوبي من

العراق، وهي من المدن المهمة التي نشأت مع بداية الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق وشهدت عبر العصور التي استوطن فيها الانسان عدداً من التغييرات الحضارية الجذرية، حيث كشف المنقبون فيها عن ثماني عشرة طبقة أثرية او سكنية تمثل اربعة ادوار حضارية فقط وهي دور العبيد ودور الوركاء ودور جمدة نصر ودور عصر فجر السلالات مما سيأتي الكلام عنها فيما بعد.

وبوسع المنقّب او المختص بدراسة الآثار ان يميز التل الاثري الذي يبطن داخله آثار ومخلفات الانسان من شكل التل الظاهري وموقعه وسط الاراضي السهلة بصورة عامة الا ان تميزه للتل الأثري على نحو دقيق يتم من خلال دراسته للملتقطات الأثرية الموجودة على سطح وسفوح التل ولاسيما كسر الاواني الفخارية وقطع الاحجار وكسر اللبن وغيرها من المواد التي لاتتأثر بالعوامل الطبيعية وتكثر عادة في جميع المواقع التي شهدت سكنىٰ الانسان في العصور القديمة.

عملية التنقيب عن الآثار:

واذا اراد المنقب ان يحفر في احد التلول الأثرية، كان عليه اولاً ان يختار التل الاثري من خلال دراسته للملتقطات الأثرية الموجودة على سطح وسفوح التل والتي تنم عادة عما يبطن التل في داخله من آثار. فاذا كانت الملتقطات السطحية عبارة عن كسر وشظايا من الحجر، ولاسيما حجر الصوان، وبعض الادوات الحجرية الاخرى، فان الاحتمال الاكثر ان التل يضم بقايا انسان العصور الحجرية، اما اذا كانت الملتقطات تضم اضافة الى ذلك كسراً من الاواني الفخارية المزخرفة والملونة، فهذا دليل على ان التل يضم اثاراً من العصر الحجري المعدني والعصور التالية ايضاً اما اذا ضمت الملتقطات الأثرية السطحية بعض الكتابات المسمارية على الطين او الآجر او الحجر فهذا يعني بالتأكيد ان التل يضم آثاراً من العصور التاريخية التي اعقبت اختراع الكتابة وهكذا.

وبعد التأكد من ان التل الاثري يضم اثاراً من الادوار الحضارية التي يريد المنقب الكشف عنها، تبدأ هيئة التنقيب[1]، المؤلفة عادة من عدد من المختصين بالحفر والرسم والتصوير وقراءة الخطوط القديمة ومعالجة الآثار ودراسة بقايا النباتات والحيوانات، بالعمل

(١) هيئة التنقيب هي الهيئة العلمية والفنية المشرفة على اعمال التنقيب في الموقع الأثري وقد حدد قانون الآثار العراقي لعام ١٩٧١ مواصفات هيئات التنقيب وضرورة احتوائها على عدد من المتخصصين وبصورة هيئة او مؤسسة علمية تابعة لها....

الفعلي فتقوم بأخذ الصور الفوتوغرافية للموقع والمنطقة التي يقع فيها وترسم الخرائط الكنتورية ويقسم التل الاثري الى مربعات منتظمة يعطى لكل مربع رقم معين وتؤشر على الخارطة حسب الطرق العلمية المتبعة في التنقيب. تبدأ عملية الحفر بأزالة الاتربة المتراكمة على سطح التل في المنطقة او المربع المحدد، ثم يبدأ الحفّارون بمساعدة العمال الفنيين من الشرقاطيين المتدربين على اعمال التنقيب الفني، بالكشف عن بقايا أبنية الطبقة السكنية (الأثرية) الاولى الواقعة اعلى التل واستظهار ارضية تلك الابنية وجمع الملتقطات الأثرية الموجودة بين الانقاض المتراكمة على الارضية. ثم ترسم بقايا الابنية المستظهرة وتعلّم على الخارطة الخاصة وتسجل الملتقطات الأثرية وترقّم وتوصف وصفاً دقيقاً مع بيان مواقع العثور عليها وتصور الطبقة الاولى كاملة ثم يبدأ المنقب بازالتها لاستظهار الطبقة الثانية، وتتكرر العملية في الطبقة الثانية والثالثة وهكذا الى ان يصل الى الطبقة السفلى التي شيدت على الارض الطبيعية والتي يسميها المنقبون عادة بالارض البكر. وبعد الانتهاء من عملية التنقيب والكشف عن الآثار يكون لدى الهيئة سجل كامل ودقيق بجميع الملتقطات الأثرية والطبقات السكنية وتسلسلها ومجموعة كاملة من الصور الفوتوغرافية يمكن بالاعتماد عليها كتابة تقرير مفصل عن اعمال التنقيب ومن ثم الكشف عنه خلال ذلك.

تسمية الادوار الحضارية:

دأب المنقبون والباحثون في عصور قبل التاريخ بنحو خاص على تسمية الادوار الحضارية التي تتابعت في عصور قبل التاريخ تسميات حديثة مثل الدور الاورغنيشي والدور الاشولي والدور المكدليني،وهي ادوار في العصر الحجري القديم،ودور حسّونة، ودور سامراء ودور الوركاء وغيرها، وهي ادوار حضارية من العصر الحجري - المعدني، كما سميت انواع الانسان الذي عاش في العصور الحجرية القديمة بالاسلوب نفسه مثل انسان بكين وانسان جاوة وانسان النياندرتال. وكما هو واضح فان جميع هذه التسميات هي تسميات حديثة لمواقع جغرافية معينة لاتزال تعرف بها حتى الان الا انها تشير الى ادوار حضارية في ازمنة قديمة جداً، فلقد اعتاد المنقبون ان يطلقوا على الاثار والبقايا التي تحمل صفات او طرزاً معينة لم تكن معروفة سابقاً اسم الموقع الذي اكتشفت فيه لاول مرة. فمثلاً، اذا ما اكتشف المنقب انواعاً معينة من الاواني الفخارية الملونة والمزخرفة بزخارف هندسية ونباتية وحيوانية. لم يسبق ان اكتشف مايشابهها في اي موقع اخر، عندها يسمى الدور الذي تعود اليه تلك الاواني الفخارية باسم الموقع الذي كان ينقب فيه، وليكن موقع تل حلف، وهو موقع اثري يقع الان في الحدود السورية، فتسمى الفخاريات بفخار دور

حلف، فاذا عثر فيما بعد على فخار مشابه من حيث الزخرفة والشكل والالوان في اي موقع آخر في نينوى او الاربجية، سمي الفخار المكتشف بفخار دور حلف ايضاً. وكذلك بالنسبة لانسان النياندرتال حيث عثر لاول مرة على هيكل عظمي لانسان بمواصفات معينة في وادي النياندرتال في المانيا فاذا ما عثر على هياكل عظمية مشابهة في اي جزء من العالم، كما عثر فعلاً على بعض تلك الهياكل في كهف شانيدار في شمال العراق، سميت تلك الهياكل بانها تعود الى انسان النياندرتال ايضاً وهكذا. وباتباع الاساليب العلمية المتيسرة يمكن تحديد ازمنة تلك الادوار الحضارية، او الازمنة التي عاش فيها هذا النوع من الانسان، بشكل تقريبي حتى يصبح اسم الدرو الحضاري او نوع الانسان مرتبطاً بفترة زمنية معينة، فاذا قيل ان هذه فخاريات من دور حلف عرف ان المقصود هو الدور الحضاري الذي تميز بصفات معينة والذي يرقى زمنه الى حدود ٤٥٠٠ ق.م. وكذلك بالنسبة للادوار الاخرى وانواع الانسان وغيرها.

تأريخ الآثار المكتشفة وتحديد أزمنة وتسلسل الأدوار الحضارية

تختلف التلول والمواقع الاثرية في العراق من حيث نوع الآثار التي تضمها في داخلها، فقد تضم بعض المواقع، كالكهوف والمغادر وغيرها من مواقع العصور الحجرية. اثاراً هي عبارة عن بعض الادوات المصنوعة من الحجر او العظم او بقايا بعض الهياكل العظمية وربما قليل من المواد المتفحمة او المتحجرة، في حين تضم مواقع اخرى، ولاسيما مواقع العصر الحجري المعدني، بقايا ابنية واواني وكسر فخارية متنوعة وبعض الدمى والتماثيل والالات والادوات المصنوعة من الحجر او المعدن، وقد يضم غيرها من المواقع الواحاً من الحجر او الطين مدون عليها بالكتابة المسمارية مواضيع متنوعة، او تماثيل او مسلات او منحوتات وعليها كتابات مسمارية تذكر اسم الملك او الحاكم الذي صنعت في عهده تلك المسلة او المنحوتة. وهناك مواقع اثرية تضم جميع انواع هذه الاثار، باستثناء الكهوف والمغاور التي تقتصر آثارها على العصور الحجرية القديمة. وقد تكون الآثار المكتشفة على درجة كبيرة من الاهمية من حيث اسلوب صنعها او بنائها وما عليها من زخرفة وما تعكسه من معلومات عن حياة الانسان وعن منجزاته الحضارية او ماتضمه من معلومات تاريخية أو أقتصادية أو اجتماعية مدونة على الواح الحجر أو الطين. الا أن اهمية جميع هذه الآثار وغيرها مما قد تكشف عنه التنقيبات الآثرية تتوقف على معرفة تأريخ الفترة الزمنية التي تعود اليها وموقعها بالنسبة لتسلسل الفترات الزمنية والادوار الحضارية التي مرت على

المنطقة وكذلك معرفة تأريخها بالنسبة الىٰ الوقت الحاضر وبشكل دقيق . فاذا ماعثر المنقب مثلاً علىٰ مسلة مدون عليها اسم الملك آشور ناصر بال فكيف يمكنه معرفة الفترة الزمنية والدور الحضاري الذي تعود اليه تلك المسلة وما الطريقة التي يمكن بها تحديد فترة حكم الملك آشور ناصر بال الى الوقت الحاضر؟ لذا ، كانت مهمة تحديد الدور الحضاري والفترة الزمنية التي تعود اليها الآثار المكتشفة وتحديد فترتها بالنسبة الىٰ الوقت الحاضر بشكل دقيق من اولىٰ المهام الملقاة علىٰ عاتق المنقب واعضاء هيئته من المختصين بالعلوم المختلفة . وقد اتبع المنقبون واعضاء هيئاتهم طرقاً ووسائل عدة لتحقيق ذلك منها :

اولاً : تسلسل الطبقات الآثرية :

المحنا فيما سبق الىٰ أن كل موقع أو تل اثري يضم عدداً من الطبقات الأثرية أو السكنية يمثل كل منها بقايا ومخلفات استيطان الانسان في فترة معينة ، وقد تؤلف كل مجموعة من تلك الطبقات دوراً حضارياً معيناً يختلف عن الدور الحضاري السابق او اللاحق له بنوعية الآثار وطرزها الفنية ومادة صنعها الىٰ غير ذلك من الصفات التي يتميز بها كل دور حضاري عن غيره من الادوار. ومن الطبيعي أن تسلسل تلك الطبقات الأثرية والادوار الحضارية يمثل تسلسلها الزمني ايضاً . فالطبقة الاولى من الاعلىٰ تمثل احدث الطبقات الأثرية عهداً وتليها الطبقة الثانية والثالثة وهكذا حتى نصل الىٰ الطبقة السفلىٰ التي تضم بقايا أول استيطان للانسان في الموقع ويقع تحتها مباشرة الارض البكر التي لاتضم تحتها بقايا سكن الانسان . وينطبق الشيء نفسه علىٰ تسلسل الادوار الحضارية التي تمثلها تلك الطبقات الأثرية (السكنية) فالطبقات الثلاث العليا ، مثلاً ، تمثل آخر الادوار الحضارية التي مرت علىٰ الموقع التي قد ترجع الىٰ العصر الاسلامي ويليها عدد من الطبقات التي قد تعود الىٰ فترات الاحتلال الاجنبي في العراق التساسانية والفرثية والسلوقية والاخمينية ، تليها مجموعة ثالثة من الطبقات تمثل الدور الحضاري الآشوري المتأخر وتمثل المجموعة الرابعة من الطبقات العصر الآشوري الوسيط أو القديم وهكذا حتى نصل الىٰ اسفل الموقع ، وقد يهجر الموقع في فترة معينة ، كان يهجر في فترة الاحتلال الاجنبي للعراق عندها لانجد طبقات أثرية تمثل تلك الفترة بل نجد الآثار الآشورية مثلاً تحت الآثار الاسلامية مباشرة وهكذا . وقد تمكن المنقبون من تقدير عمر كل طبقة من الطبقات السكنية استناداً الىٰ سمك انقاضها ونوعية الآثار والابنية التي كانت تضمها الا أنه يتعذر وضع قواعد ثابتة لذلك . وبصورة عامة فإن الطبقات التي تضم بقايا أبنية كانت مشيدة بالحجر مثلاً هي اطول عمراً من الطبقات التي كانت ابنيتها مشيدة بالآجر ،

والمشيدة بالآجر هي اطول عمراً من الابنية المشيدة باللبن (الطين) وهكذا. الا أن تقدير عمر الآثار المكتشفة استناداً الىٰ ذلك يكون تقديراً نسبياً ويعطي فكرة عامة فقط.

ثانياً : دراسة الطرز الفنية :

من المعروف أن لكل دور حضاري من أقدم الأدوار الحضارية وحتىٰ الآن ، سماته العامة المختلفة عن سمات الادوار الاخرى السابقة واللاحقة فله طرزه المعمارية والفنية وفخاره الخاص واختامه الاسطوانية ونقوشه وزخارفه الىٰ غير ذلك مما يميز الطرز الفنية بعضها عن البعض الآخر. ومن خلال المكتشفات الأثرية في المواقع المختلفة والإفادة من تسلسل الطبقات والادوار الحضارية امكن تثبيت تسلسل الادوار الحضارية زمنياً استناداً الىٰ طرزها الفنية واصبح بامكان المنقب أن ينسب الآثار البنايات المكتشفة الىٰ أحد الادوار الحضارية المعروفة استناداً الىٰ التشابه الموجود بين الطرز الفنية ، فإن لم يكن هناك بين الادوار الحضارية المعروفة طراز فني يشابه طراز الآثار المكتشفة من قبله ، عندها تنسب هذه الآثار الىٰ دور حضاري جديد وغالباً ما يسمى بأسم الموقع الذي اكتشفت فيه لاول مرة.

وفي المواقع الأثرية العراقية يعتمد المنقبون بالدرجة الاولىٰ في تحديد الطراز الفني لاي دور حضاري ، ولاسيما الادوار الحضارية لعصور قبل التأريخ ، علىٰ الفخار والاختام المنبسطة والاسطوانية لاختلاف اشكالها وألوانها وزخرفتها ومادة صنعها من دور الىٰ آخر ومن مكان الىٰ آخر.

ثالثاً : النظائر المشعة

يستعين المنقبون في الوقت الحاضر ببعض العلوم الطبيعية الأخرى لتحديد أزمنة الآثار المكتشفة من ذلك استخدامهم لجهاز كهربائي حديث لفحص المواد العضوية المكتشفة ، كالهياكل العظمية وبقايا الاخشاب والنباتات ، ومعرفة ماتبقى فيها من العناصر المشعة المعروفة علمياً بكاربون ١٤ . فالمعروف علمياً أن جسم الكائن الحي يحتوي علىٰ كمية معينة ثابتة من هذه العناصر المشعة ومتى مات الكائن الحي ، تبدأ هذه العناصر بالتناقص عن طريق الاشعاع وقد أمكن احتساب كمية التناقص والفترة الزمنية التي تستغرقها فوجد أن عناصر كاربون ١٤ تتناقص بنسبة ثابتة فتفقد نصف كميتها الموجودة في المادة العضوية ، أي بقايا الكائن الحي ، كل ٥٦٠٠ سنة تقريباً ، وهذا مايسمى عادة بدورة

نصف العمر Half Life cycle ، وبعد مرور ٥٦٠٠ سنة اخرى تفقد المواد العضوية نصف كمية العناصر المشعة المتبقية وهكذا الىٰ أن تتلاشى من الوجود في المادة العضوية . لذلك فعند قياس ماتبقىٰ من هذه المادة المشعة في المواد العضوية المكتشفة ، يمكن احتساب الفترة الزمنية التي مضت علىٰ تلك المادة منذ أن فقدت الحياة . الا أن من عيوب هذه الطريقة انها تعطي الفترة الزمنية بشكل تقريبي حيث هناك هامش في الزيادة والنقصان يقدر بمائتي سنة كما أنها تحتاج الىٰ كمية كبيرة نسبياً من المادة العضوية وتتلف تلك المادة بعد فحصها وأخيراً فإن هذه الطريقة غير مفيدة في قياس عمر المواد العضوية التي يزيد عمرها علىٰ ٥٠ – ٦٠ الف سنة كما أنها قليلة الفائدة ، نظراً لعدم دقتها ، بالنسبة للمواد من العصر الحجري المعدني (حدود ٥٦٠٠ – ٣٥٠٠ق.م) وما بعده .[1]

رابعاً : النصوص المسمارية :

تعد بعض أنواع النصوص المسمارية المكتشفة ذات فائدة قصوى في تحديد تسلسل حكم السلالات والملوك ومعرفة الادوار التأريخية وذلك بالنسبة الىٰ الفترات التي اعقبت اختراع الكتابة في اواسط الألف الرابع قبل الميلاد بالدرجة الاولىٰ . كما أن هناك بعض النصوص المسمارية ذات المضمون التأريخي التي امدتنا بمعلومات مفيدة ، وإن لم تكن دقيقة ، عن الفترات السابقة لاختراع الكتابة ويأتي في مقدمة هذه النصوص ما يعرف عادة بجداول أو اثبات الملوك ، وهي جداول مطولة بأسماء السلالات الحاكمة وترتيب تسلسلها الزمني ، وهناك جداول بأسماء الملوك السومريين وأخرى باسماء الملوك البابليين والآشوريين. وقد ذكرت بعض هذه الجداول اسماء الملوك والسلالات منذ بدء الخليقة وحتى تأريخ تدوين الجداول في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد ، كما سبق وأن اشير الى ذلك. كما ان هناك جداول التأريخ التعاصري التي تضم اسماء الملوك في بلاد بابل وما يقابلها من الملوك الآشوريين. اضافة الى ذلك ، تم الكشف عن قوائم مهمة بتسلسل السنين التي كانت تؤرخ بأهم الحوادث أو باسم الملك او الليمو مما سبقت الاشارة اليه مما افاد كثيراً في ضبط الادوار التأريخية وتحديد تسلسل حكم الملوك والسلالات . الى جانب

(١) حول تفاصيل هذه الطريقة وطرق اخرى مشابهة انظر: طه باقر، المقدمة ، ص ١٣٨ – ١٤١ .
كذلك Braidwood, R., Sumer, 13 (1967) , pp. 39 ff

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٤ العراق في عصور ما قبل التاريخ

١ — عصور ما قبل التأريخ والعصر الشبيه بالكتابي

يقصد بعصور ما قبل التأريخ ، كما سبق أن أشرنا ، تلك العصور المتطاولة في القدم والتي سبقت ابتداع الكتابة وسيلة للتدوين . وتتباين نهاية هذه العصور في البلدان المختلفة نسبة الى تاريخ ابتداع الكتابة . ففي العراق ، كان ابتداع الكتابة في حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وهي أقدم كتابة معروفة في العالم حتى الآن . وحيث ان الكتابة في مراحلها الاولى لم تكن معروفة على نطاق واسع ، كما لم تكن تستخدم لتدوين جميع الشؤون ، لذلك عدّ الباحثون المحدثون الفترة بين تأريخ اقدم الألواح الطينية التي تحمل علامات صورية كتابية والمؤرخة في حدود ٣٥٠٠ق.م وحتى شيوع استخدام الكتابة في حدود ٢٩٠٠ ق.م ، فترة انتقال من عصور قبل التاريخ الى العصور التأريخية وسمّوها أستناداً الى ذلك بالعصر الشبيه بالكتابي Proto–literate او الشبيه بالتأريخي Proto–history .

تشمل عصور ماقبل التأريخ العصور الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة والعصر الحجري المعدني وقد الحقنا بها في هذا الفصل العصر الشبيه بالكتابي ايضا .

آ- العصور الحجرية

تعارف الباحثون على تسمية الأزمنة الاولىٰ من حياة الانسان على الارض والتي استخدم خلالها الحجارة مادة أساسية لصنع آلاته وأدواته البسيطة بالعصور الحجرية . وتمتد هذه من تأريخ أقدم الآثار والمخلفات المكتشفة التي تركها الانسان ، والتي ترجع كما سبق أن المحنا الى حدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت ، وتنتهي باكتشاف الانسان المعادن واستخدامه لها في صنع بعض الالات والأدوات . وبعبارة اخرىٰ فان العصور الحجرية تشغل الجزء الأكبر من عصور قبل التأريخ والتي تمثل بدورها القسم الأعظم من حياة الانسان على الأرض . وقد أبانت التنقيبات الأثرية ان هناك اختلافات بين الآثار والبقايا المكتشفة في المواقع القديمة المختلفة والتي ترقىٰ بتاريخها الى العصور الحجرية ، على الرغم من أن غالبية تلك البقايا مصنوعة من الحجارة ، سواء من حيث الشكل او النوعية او طريقة الصنع . وأستناداً الى هذه الأختلافات فقد درج الباحثون على تقسيم العصور الحجرية بصورة عامة الى ثلاثة عصور رئيسة هي : العصر الحجري القديم والعصر الحجري

ادوات حجرية مراقبة تعود للعصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط

الوسيط والعصر الحجري الحديث. ومن الباحثين من يضع عصراً مستقلاً في بداية العصر الحجري القديم يطلق عليه اسم العصر الحجري السحيق.

ان معلوماتنا عن هذه العصور، التي شغلت حقبة طويلة جداً من تاريخ الانسان لاتتناسب وطولها واهميتها بالنسبة لحياة الانسان، فهي مقصورة على مايمكن استنتاجه من مخلفات الانسان المادية البسيطة من آلات وادوات مصنوعة من الحجر او العظم او الخشب ومن بقايا بعض الهياكل العظمية البشرية وعظام الحيوانات وبعض القبور وقليل من الرسوم التي نفذها الانسان على جدران الكهوف وبقايا سكنى الانسان في الكهوف والمغارات وبعض البيوت البسيطة التي بناها في اواخر العصور الحجرية. ومع قلة مالدينا من معلومات عن هذه العصور فأنها افضل بكثير واكثر مما كنا نعرفه عنها حتى بداية القرن الحالي، حيث لم يبدأ الاهتمام بالكشف عن مواقع العصور الحجرية ودراسة مايمكن الكشف عنه فيها الا منذ مطلع القرن الحالي. ومن هذا يتبين ان مالدينا من معلومات عن العصور الحجرية هي معلومات عامة وتقديرية وتخمينية في غالب الاحيان وتتعلق بحياة الانسان المادية، سواء من حيث اسلوب عيشه وسكنه ومأكله وصيده وبعض جوانب حياته الاخرى، في حين تبقى معلوماتنا محدودة جداً عن افكاره ومعتقداته ومعارفه ولغته وغير ذلك من الجوانب غير المادية. وفيما يأتي استعراض موجز لأهم سمات تلك العصور مع الاشارة الى اهم المواقع التي تمثلها في العراق:

العصر الحجري القديم Palaeolithic

يبدأ هذا العصر حسب المعلومات المتيسرة لدينا الآن، من تاريخ اقدم مخلفات الانسان بحدود ١٧٥٠٠٠٠ سنة مضت وينتهي بحدود الالف العاشر قبل الميلاد. وهناك من يميز الطور الاول من هذا العصر، كما سبق أن المحنا، ويعده عصراً مستقلاً اطلق عليه اسم العصر الحجري السحيق، تميز باستخدام الانسان للادوات الحصوية غير المصنعة، اي من قبل ان يبدأ بمعالجة الحجارة وتشظيتها. وتنسب الآثار المكتشفة في شمال افريقيا الى هذا الطور السحيق في القدم، اما في العراق فلم يعثر حتى الآن على مثل تلك الآثار الحصوية.

يستنتج من الآثار والبقايا المكتشفة أن حياة الانسان في العصر الحجري القديم كانت بسيطة جداً وبدائية وتشابه من اوجه كثيرة حياة بعض الحيوانات، الا ان الانسان امتاز عن ارقى الحيوانات بعقله وقدرته على الكلام والتفاهم وانتصاب قامته وقابليته على صناعة

بعض الالات والادوات بيديه الماهرتين التي يسرت له سُبل الحياة ومكنته من تسخير البيئة لخدمته. وكان انسان هذا العصر يعتمد في حياته كلياً على جمع القوت، لذا سمي العصر بعصر جمع القوت Foodgathering Age، فكان يصطاد الحيوانات ويجمع الثمار والنباتات البرية ليوفر مأكله وملبسهُ، وكانت الادوات الحجرية التي صنعها بطبيعة الحال بسيطة جداً. وفي الطور الثاني من هذا العصر ربما اهتدى الى طريقة توليد النار وسبل استخدامها. وكان انسان هذا العصر يعيش في الكهوف والمغارات في المناطق الجبلية البعيدة عن وديان الانهار وينتقل من مكان الى إخر بحثاً عن الطرائد من الحيوانات بعيداً عن مخاطر الانهار وفيضاناتها. وقد قسم الباحثون هذا العصر الى طورين رئيسين هما الاعلى والادنى وقسموا كلاً من هذين الطورين الى ثلاثة ادوار ثانوية تميز كلٌ منها بشكل الادوات الحجرية ونوعيتها وطريقة صنعها كما اعتمدوا في هذا التقسيم على الهياكل العظمية المكتشفة وخصائصها المميزة. وقد سميت هذه الادوار بأسماء اوربية حديثة نسبة الى اسماء المواقع التي أكتشفت فيها لأول مرة آثارتلك الادوار مثل الدور المستيري والدور المكدليني والدور الأورغنيشي، وهي اسماء ثلاثة مواقع اوربية حديثة أكتشفت في كل منها لأول مرة الآثار التي سميت باسم الموقع.

وفي الطور الاول من العصر الحجري القديم عاش الانسان الذي عرف لدى الباحثين بالانسان البائد، وقد تميز حسبما يرى هؤلاء الباحثون بخصائص وصفات جسمية خاصة، كالجمجمة الصغيرة والثخينة وقصر القامة. وقد تم الكشف عن بقايا هذا الانسان في اماكن عدة من العالم شرقاً وغرباً، وعرف باسماء الاماكن التي اكتشفت فيها هياكله العظمية لاول مرة مثل انسان جاوة وانسان بكين وانسان نياندرتال. اما انسان الطور الثاني من العصر الحجري القديم، وهو مايعرف عادة بالانسان العاقل او الحديث فلا يختلف في سماته العامة عن الانسان الحالي.

ويقع العصر الحجري القديم بطوريه الاعلى والادنى في الفترة التي حدثت فيها العصور الجليدية في النصف الشمالي من الكرة الارضية حتى خط عرض ٤٥ جنوباً حيث انتشر الجليد في قارة اوربا وامريكيا الشمالية. وقد تمكن الباحثون من تمييز اربعة عصور جليدية تتابعت على هذه المنطقة، وكان يفصل بين عصر جليدي واخر فترة دفئ نسبية. ومن البديهي ان المناخ في اثناء تلك العصوركان بارداً جداً في المناطق التي غطاها الجليد مما اثر

على حياة الانسان والحيوان والنبات. اما في منطقة الشرق الادنى القديم[1]، ومنها العراق، الواقعة جنوبي هذه المناطق، فكان يقابل كل عصر جليدي في اوربا وامريكيا عصر تميز بمناخ ملائم وامطار غزيرة ساعدت على نموّ النباتات والاشجار وكثرة الحيوانات فتوفر بذلك القوت اللازم لادامة حياة الانسان. اما في فترات الدفء التي كانت تفصل بين عصر جليدي وآخر فقد كان يقابلها بالشرق الادنى القديم فترات جفاف نسبية، ونحن نعيش الان في الفترة التي اعقبت اخر عصر جليدي في اوربا والتي يقابلها فترة جفاف نسبي عندنا، وقد بدأت هذه الفترة كما يرى الباحثون منذ الألف العاشر قبل الميلاد تقريباً، فقلت الامطار وجفت بعض الانهار والينابيع وغدت بعض المناطق التي كانت وفيرة المياه صحارى قاحلة، كالصحراء الكبرى في افريقيا وصحراء شبه الجزيرة العربية، فقلت نتيجة ذلك موارد العيش واضطر الانسان احياناً الى الهجرة الى مناطق اخرى بحثاً عن الطرائد الحيوانية والنباتات والثمار البرية كما دفعته هذه الظروف الجديدة والصعبة الى البحث عن وسائل اخرى لتوفير القوت فكان ان اهتدى الى الزراعة وتدجين الحيوان.

وقد أظهرت التنقيبات الأثرية التي اجريت في العراق أن انسان العصر الحجري القديم كان قد عاش في كهوف المنطقة الجبلية وبالقرب من العيون وينابيع المياه وفي المناطق العليا والقريبة من وادي دجلة والفرات، وجاب بادية الرطبة والاقسام الغربية من وسط العراق وجنوبه، وترك في جميع هذه المناطق الات وادوات مصنوعة من الحجر وهياكل عظمية وبقايا عظام الحيوانات التي اصطادها[2]. ومن الملاحظ ان التنقيبات في العراق لم تكشف لنا بعد عن بقايا وادوات انسان المراحل المبكرة من العصر الحجري القديم وان اقدم الآثار المكتشفة حتى الان هي تلك التي وجدت في موقع بردة بلكا قرب جمجال في محافظة السليمانية والتي يقدر تاريخها بحدود ١٠٠-٦٠ الف سنة مضت، كما عثر على بعض الآلات والادوات الحجرية من العصر نفسه في مواقع كثيرة امكن التعرف عليها في

---

(١) ان مصطلح الشرق الادنى القديم من المصطلحات الحديثة والغامضة وقد استخدم هنا، وفي البحوث الخاصة بالتاريخ القديم بصورة عامة، للدلالة على منطقة واسعة تضم اجزاءاً من كل من اسيا وافريقيا. ففي آسيا تضم وادي الرافدين وسوريا الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) وشبه الجزيرة العربية اضافة الى بلاد الاناضول وايران. وفي افريقيا تعد مصر جزءاً من الشرق الادنى القديم. (انظر تفصيل ذلك في : جون بوترو وآخرين ،الشرق الادنى، الحضارات البكرة ، ١٩٦٧ ترجمة عامر سليمان، موصل ، ١٩٨٦ ،ص ٢٥-٢٨).

(٢) تقي الدباغ، الوطن العربي في العصور الحجرية، بغداد ١٩٨٨، ص ٧٧.

السنوات الاخيرة في منطقة حوض سد صدام (سد الموصل) وعلى جانبي نهر دجلة حيث تم تحديد اربعين موقعاً غربي نهر دجلة وعشرين موقعاً آخر على الجانب الشرقي من نهر دجلة شمال الموصل. كما كشف عن الات وادوات حجرية اخرى مشابهة في الاجزاء الغربية من العراق والتي تشابه ماكشف عنه في مواقع في شبه الجزيرة العربية[1].

اما بالنسبة الى الطور الثاني من العصر الحجري القديم، فقد تم الكشف عن بقاياه في كهف هزاومرد قرب مدينة السليمانية وفي كهف شانيدار في محافظة اربيل وفي منخفض الرزازة وهور ابي دبس وبحر النجف وفي كهف زرزي وموقع بالي كورا في السليمانية وقد تكشف لنا التنقيبات المقبلة تضم بقايا انسان العصر الحجري القديم.

Mesolithic

العصر الحجري الوسيط

كان من نتائج تغير المناخ في اواخر العصر الحجري القديم إثر ذوبان الجليد في القسم الشمالي من الكرة الارضية أن بدأ الانسان، وخاصة في منطقة الشرق الادنى القديم عصراً جديداً في حياته اصطلح على تسميته بالعصر الحجري الوسيط لانه يفصل بين عصر الصيد وجمع النباتات والثمار البرية وعصر الزراعة وتربية وتدجين الحيوان. ومع ان الانسان في هذا العصر ظل يعتمد اساساً على الصيد والجمع فأنه بدا محاولاته الاولى في زراعة النباتات البرية وترويض الحيوانات، كما حصل على تقدم ملحوظ في صناعة الآلات والادوات الحجرية حيث بدأ يصنعها من الشظايا والحجارة الصغيرة، وغالباً ماكانت تثبت بواسطة القبر على مقابض من الخشب او العظم لتشكل مايشبه رأس السهم او الرمح او المنجل او غيرها من الادوات. الى جانب ذلك تم العثور على الات وادوات زراعية، كالمناجل والمطاحن والهواوين والمدقات، مما يشير الى احتمال قيام الانسان بزراعة تجريبية محدودة او انه استخدم تلك الادوات لحصد وطحن الحبوب البرية، ويمثل ذلك بداية الانتقال من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت التي ظهرت واضحة في العصر التالي، الا ان الانتقال كان بطيئاً وتدريجياً. وقد رافق المحاولات الاولى في الزراعة والتدجين انتقال الانسان من الكهوف والملاجئ الجبلية الى مواقع مكشوفة على شواطئ الانهار ومصباتها وعند ينابيع المياه[2].

---

(١) نفس المصدر، ص ٧٤-٧٥.

(٢) تقي الدباغ، المصدر السابق، ص ٨١-٨٣.

وفي العراق، امكن الكشف عن عدد من الكهوف والمواقع الاثرية، ومعظمها مواقع مكشوفة ، تدل الآثار المكتشفة فيها على انها تعود الى العصر الحجري الوسيط ، كما تشير الفحوصات العلمية التي اجريت على المواد العضوية المكتشفة والتي تمت بواسطة استخدام جهاز كاربون ١٤، الى انها تعود الى الالف الحادي عشر والالف العاشر قبل الميلاد. واهم هذه الكهوف واولها هو كهف زرزي في محافظة السليمانية وكهف بالي كورا في محافظة اربيل ، كما وجدت بقايا هذا العصر في احدى طبقات كهف شانيدار. اما المواقع المكشوفة، فمنها موقع كريم شاهر بالقرب من چمچمال، وموقع ملفعّات على نهر الخازر بين الموصل واربيل ، وقد وجد فيه بيوت محفورة في الارض ذات جدران مشيدة بالحجر. اما قرية زاوي حجي القريبة من كهف شانيدار، فقد كشف فيها عن بقايا بيوت كانت جدرانها مشيدة بالطين على اسس من الحجارة، وتعد هذه البيوت اقدم بيوت شيدها الانسان، كما عدّت زاوي چمي اقدم مستوطن قروي في العراق واول قرية من نوعها في العالم[١] ويستدل من عظام الحيوانات المكتشفة في هذه القرية الى تدجين الاغنام في حين تشير الالات والادوات الحجرية الى ان القرية كانت قد شهدت بوادر الانقلاب الزراعي. ويمكن تحديد زمن القرية التقريبي بحدود الالف العاشر قبل الميلاد، وربما كانت المستوطن الصيفي للانسان الذي عاش في كهف شانيدار القريب منها في موسم الشتاء. وقد اظهرت التنقيبات التي اجريت في المواقع وجود بعض الادوات في قبور الموتى مما يشير الى نوع من الطقوس والمعتقدات الخاصة بما بعد الموت، الا انه ليس هناك معلومات، وادلة كافية لمعرفة تلك المعتقدات [٢].

العصر الحجري الحديث Neolithic

يضع الباحثون بداية العصر الحجري في الالف الثامن [٣] او السابع [٤] قبل الميلاد، ففي هذه الفترة كان قد حلَّ في منطقة الشرق الادنى القديم فترة جفاف نسبي وقلّة في الامطار وبشكل خاص في شبه الجزيرة العربية، بعد ان انتهى آخر عصر جليدي في القسم الشمالي من الكرة الارضية. وقد تبع ذلك نقص في موارد العيش التي كان يعتمد عليها

---

(١) طه باقر، المقدمة ، ص ١٨٤–١٨٥

(٢) انظر: نائل حنون ، عقائد مابعد الموت، بغداد ١٩٨٦ ، ط٢، ص٢٤٦

(٣) تقي الدباغ، العصور الحجرية، ص ١١٦

(٤) ساكز، عظمة بابل، ص ٢٩

الانسان، فقلّت النباتات وقلت معها الطرائد الحيوانية، مما دفع الانسان الى ايجاد طرق ووسائل اخرى للحصول على قوته، فكان ان هاجر الى مناطق اخرى اقل جفافاً وتتوفر فيها المياه وتعيش الحيوانات والنباتات البرية. ومن جانب آخر فقد حفّز نقص موارد العيش الانسان الى تعلّم الزراعة واستئناس بعض الحيوانات وهكذا كانت المحاولات الاولى في تدجين الحيوان والنبات منذ العصر الحجري الوسيط، الا ان العصر الحجري الحديث شهد اكتمال عملية تحول الانسان من عصر جمع القوت الى عصر انتاج القوت عن طريق الزراعة والتدجين. ونظراً لأهمية هذا التغيير الجذري في حياة الانسان وفي اسلوب حصوله على الغذاء، فقد قارن بعض الباحثين اهمية ذلك مع اهمية الثورة الصناعية في اوربا في القرن الثامن عشر الميلادي.

ومن خلال دراسة ما اكتشف من آثار وبقايا من العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث في منطقة الشرق الادنى، يظهر ان القسم الشمالي من العراق كان من المناطق القليلة في العالم التي شهدت بداية تحول الانسان من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت، خلافاً لما كانت عليه الحال بالنسبة الى كل من وادي النيل وبوادي الشام ومناطق الجزيرة العربية وسهول وادي الرافدين الجنوبية وغيرها من المناطق التي ظهر فيها التحول في فترات تالية. وقد تأكدّ للباحثين ذلك من وجود الاصول البّرية للحيوانات والنباتات التي دجّنها الانسان في العصر الحجري الحديث وذلك في الفترات السابقة وفي عدد محدود من مناطق الشرق الادنى القديم، ومنها شمالي العراق، فقط، وامكن فعلاً العثور على بقايا وآثار هذا التحول في عدد من المواقع في شمال العراق وفي بعض المناطق الجبلية في الاقاليم والبلدان المجاورة، كمنطقة فلسطين، حيث كانت الظروف البيئية ملائمة لهذا التحول في حياة الانسان. ويرى الباحثون ان الانسان العراقي القديم كان قد اهتدى للزراعة في الفترة الواقعة بين الالف العاشر ونهاية الالف التاسع قبل الميلاد. اما في بقية انحاء العالم القديم، فقد اقتبس انسان البلقان وبلاد اليونان الزراعة بعد عدة آلاف من السنين ثم انتقلت تلك المعرفة من بلاد اليونان الى الجهات الاوربية الاخرى. اما في الشرق الاقصى وامريكا الشمالية، فقد تعّرف فيها الانسان على الزراعة بشكل مستقل وظهر التحول فيها الى حياة انتاج القوت في حدود ٣٠٠٠ ق.م في حين لم يعرف انسان امريكا الوسطى الزراعة الا في حدود ١٠٠٠ ق.م[١].

---

(١) طه باقر، المقدمة، ص ٢٠٠.

ويميز الباحثون بين طورين رئيسين في العصر الحجري الحديث ، عرف الاول منها بطور او عصر ماقبل الفخار pre – pottery Neolithic ، وعرف الثاني بعصر الفخار. ومن البديهي ان تعلم الزراعة وتدجين الحيوان كان ذا تأثير كبير وواضح على حياة الانسان ، لذا فقد رافق هذا التحول تغييرات وتطورات جذرية لعل من ابرزها :

١ – تغير كبير في الآلات والأدوات التي صنعها الانسان في هذا العصر بما يتلائم وحياة انتاج القوت الجديدة وان ظل معظمها يصنع من الحجارة. فقد صنعت آلات خاصة لاعداد الارض للزراعة كالفؤوس والمعازق والمحاريث ، واخرى لحصد الحبوب ، كالمناجل المسننة ، ولفصل الحبوب عن قشورها بعد حصدها ، كأطباق الجرش الفخارية وادوات طحن الحبوب كالرحىٰ وغيرها . هذا فضلاً عن تطور الآلات والأدوات الحجرية الاخرى التي كانت تصنع منذ العصور الحجرية السابقة ولاسيما الاسلحة ، كالسهام والرماح .

٢ – يرجح ان الانسان تعلم في هذه المرحلة من حياته طريقة الغزل والحياكة بدلالة ماوجد من اقراص المغازل ، واستخدم لذلك اصواف الاغنام وشعر الماعز. كما تعلم عمل الخبز المخمر وبناء البيوت من الطين والبردي وغير ذلك من المواد المتوفرة في المنطقة .

٣ – تعلم الانسان في الطور الثاني من هذا العصر طريقة صنع الفخار ، وكان الفخار في بداياته بدائياً وسمجاً وربما لم تتعّد صناعته في بداية الامر تغليف جدران الحفر بالطين ومن ثم فخرها بالنار ، ثم بدأ بعد ذلك بصناعة الاواني البسيطة الخالية من الزخرفة او الالوان . وكانت الاواني تصنع وتشكّل باليد ولم يكن الانسان قد اخترع دولاب الفخّار بعد .

٤ – كانت الزراعة في بداياتها محدودة وتتصف بالاكتفاء الذاتي ، فكان الانسان يزرع مساحة صغيرة من الارض يكفي انتاجها لمعيشته وافراد اسرته الصغيرة ، كما كانت الزراعة حقلية ، أي لم يكن يزرع الاشجار المثمرة التي تحتاج الى انتظار عدة سنوات ريثما تحمل وينضج ثمرها ، وكانت الزراعة موسمية شبه متنقلة ، حيث لم يكن الانسان يعرف طريقة ترك الارض بوراً بين سنة وأخرى لاستعادة خصوبتها ، كما لم يعرف طريقة التسميد فكان يترك الأرض متىٰ وجدها قليلة الانتاج ، وانتقل الى غيرها . كما اتصفت الزراعة في هذا العصر بأنها كانت ديمية تعتمد على الامطار الموسمية فقط .

٥- مارس انسان هذا العصر تدجين الحيوان ، ويظن ان عملية التدجين قد حدثت بصورة تدريجية حيث يصعب تتبعها ولا يعرف فيما اذا كانت الزراعة قد سبقت التدجين ام العكس ، وربما حدثت كلتا العمليتين في فترة واحدة . وكانت الاغنام والماعز والخنازير والابقار من الحيوانات الاولى التي دجنها الانسان فضلاً عن الكلاب .

٦- تبع الانتقال الى حياة انتاج القوت تطورات اجتماعية مهمة حيث ارتبط الانسان بالارض وكان عليه ان يعيش في جماعات صغيرة قريباً من ارضه الزراعية لحماية مزروعاته ، فكان أن نشأت اولى المستوطنات والقرى الزراعية ، ورافق ذلك تطور في العلاقات الاجتماعية وظهور العادات والتقاليد التي نظمت حياة المجتمعات الصغيرة الاولىٰ .

٧- كان من نتائج اعتماد الانسان على الارض وقيامه بتدجين الحيوانات أن نشأت فكرة الملكية الفردية للارض وللادوات الزراعية وللحيوانات المدّجنة وللبيت وآثاثه ، وكانت الرغبة في حماية الملكية الفردية وزيادتها سبباً في نشوء أولى الصراعات وربما الحروب بين الافراد اولاً ثم بين الجماعات والقرىٰ .

٨- تشير بعض الآثار المكتشفة ، ولاسيما دمىٰ الطين ، الى وجود نوع من المعتقدات الدينية تدور على تجسيد الخصوبة على هيئة آلهة تمثل الارض وخصوبتها ، فصنعت لذلك دمى طينية ترمز لها على هيئة امرأة عارية مبالغ في انوثتها ، وقد عرفت هذه الآلهة فيما بعد بالآلهة الام Mother Goddess .

٩- كان استقرار الانسان في هذا العصر في القسم الشمالي من العراق فقط حيث لم يكن القسم الجنوبي صالحاً للاستيطان بعد .

١٠- لم يظهر في العصر الحجري الحديث التخصص في العمل بل كانت كل اسرة تقوم بجميع الاعمال اللازمة لتوفير المأكل والمشرب والملبس والمأوى لها ، وربما كان هناك تقسيم للعمل بين افراد الاسرة الواحدة حيث تولّت المرأة الامور ذات العلاقة بتنظيم البيت واعداد الطعام وحياكة الملابس وتربية الاطفال في حين تولى الرجل مهمة الزراعة والرعي والصيد والدفاع عن ممتلكات الاسرة .

١١- من المرجح أن الانسان اهتدى منذ هذه الفترة المبكرة الى طريقة لقياس الزمن ومعرفة تسلسل المواسم لأهمية ذلك بالنسبة للزراعة ، وكان القمر دليله في معرفة تتابع الاشهر واعتمد على الشمس لمعرفة تتابع الفصول والمواسم وراقب تكررها وجمع بين

مراقبته للقمر والشمس وعرف بأن كل دورة شمسية تضم اثني عشر شهراً قمرياً وزيادة.

وفي القسم الشمالي من العراق، كشفت التنقيبات الاثرية العلمية التي بدأت منذ اواسط القرن الحالي في البحث عن بقايا عصور قبل التأريخ عن عدد من المواقع التي عاش فيها انسان العصر الحجري الحديث تأتي جرمو في مقدمتها. وقد اثبتت التنقيبات ان جرمو الواقعة قرب كركوك هي اقدم القرى الزراعية المكتشفة لحد الآن من هذا العصر وقد كشف في هذه القرية عن بقايا الطورين الاول والثاني من العصر الحجري كما عثر على آثار من هذا العصر في قرية شمشارة في سهل رانية وقرية كرد علي اغا على الضفة اليسرى لنهر الزاب الاعلى شرقي نينوى. وفي منطقة الموصل، تعد قرية حسونة جنوبي الموصل، من اقدم القرى الزراعية في المنطقة كما وجدت بقايا هذا العصر في كل من تل الصوان، جنوب مدينة سامراء، وقرية مُطارة جنوب كركوك وام الدّباغية غرب الحضر والطبقات السفلى من مدينة نينوى نفسها وفي يارم تپّة غربي تلعفر وغيرها.[1]

العصر الحجري المعدني Chalcolithic

يضع الباحثون نهاية العصر الحجري الحديث في العراق في اواسط الالف السادس قبل الميلاد (حدود ٥٦٠٠ ق.م) حيث يبدأ ما يعرف عادة بالعصر الحجري- المعدني الذي شغل الفترة الواقعة بين نهاية العصر الحجري الحديث وحتى ظهور اولى العلامات الصورية التي استخدمت للكتابة في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م)، اي ان هذا العصر امتد قرابة الفي سنة كانت ذات اهمية كبيرة في نمو وتطور الحضارة العراقية القديمة حيث شهد نشوء وتطور عناصر حضارية مهمة كانت الاساس الذي قامت عليه الحضارة الناضجة في الالف الثالث قبل الميلاد. وقد اطلق الباحثون تسميات مختلفة على هذا العصر فسمي بعصر ما قبل السلالات pre-Dynastic period لانه سبق العصر الذي ظهرت فيه السلالات الحاكمة في بلاد سومر واكد كما هي معروفة لدينا من بعض النصوص المسمارية والآثار المادية الاخرى، وسمي بعصر الفخار الملوّن نسبة الى الفخار الملوّن الجميل الذي انتشرت صناعته في مختلف المواقع التي تعود الى هذا العصر، وسمي بالعصر الحجري المعدني لان الانسان استخدم في القسم الثاني منه المعادن الى جانب الحجارة لصناعة الآلات والادوات والحلي.

(١) تقي الدباغ، العصور الحجرية، ص ١١٣- ١٢١.

وحيث إن الفترة الزمنية التي استغرقها هذا العصر طويلة ، فقد ارتأى الباحثون تقسيمها الى عدة ادوار حضارية تتميز بعضها عن بعضها الاخر بسمات حضارية معينة. والدور الحضاري ، كما سبق واشرنا ، يمثل حقبة زمنية قد تدوم بضعة قرون وتمثلها عدة طبقات أثرية (سكنية) في الموقع الذي يضم آثار هذا العصر، وتتميز آثارها بطرزها المعمارية واوانيها الفخارية وزخرفتها وبعض الخصائص الحضارية الاخرى ، كما يتضمن كل دور حضاري عادة تبدلات جوهرية نتيجة ظهور بعض الاختراعات الجديدة ، كاستخدام الفخار او المعدن او اختراع العجلة اوالسفينة الشراعية او الاختام والى غير ذلك من الاختراعات . وغالبا ما يضم الموقع الأثري الواحد بقايا اكثر من دور حضاري واحد وذلك لان الانسان آثر السكن في موقع واحد لاجيال عديدة وترك لنا آثار سكناه في طبقات متتابعة ففي مدينة الوركاء مثلاً ، وهي مدينة تقع في جنوب العراق فقد اظهرت التنقيبات التي أجريت فيها انها تضم ثمانية عشر طبقة أثرية (سكنية) متتابعة تمثل اربعة ادوار حضارية رئيسة فقط ، فالطبقات السفلى تمثل مايعرف بدور العبيد والطبقات التي تليها ، تمثل دور الوركاء ثم دور جمدة نصر واخيراً تمثل الطبقات العليا دور عصر السلالات اما تسمية هذه الادوار، فهي نسبة الى اسماء المواقع الأثرية التي اكتشفت فيها آثار الدور الحضاري لاول مرة . وبما انه كان اكتشاف آثار دور العبيد لاول مرة في تل العبيد في جنوبي العراق ، ولاننا لانعرف اسم الموقع القديم ، فقد اطلق المنقبون اسم تل العبيد على الدور الحضاري الذي تمثله الآثار المكتشفة لاول مرة في العبيد ، وهكذا بقية المواقع والتسميات .

وبالنسبة الى العصر الحجري المعدني ، ميّز المنقبون أربعة أدوار حضارية رئيسة شغلت فترة الالفين سنة المخصصة لهذا العصر وهي :

١ – دور حسّونة ، نسبة الى موقع حسونة جنوبي شرقي الموصل بخمسة وثلاثين كيلومتراً . وهو أول ادوار العصر الحجري المعدني ، وقد وجدت في الطبقة السفلى منه آثار مستوطن من العصر الحجري الحديث وتلي ذلك طبقات العصر الحجري المعدني التي سميت بدور حسونة وقد شيدت البيوت في هذا الدور من الطين (الطوف) وصنعت الاواني الفخارية البسيطة المزخرفة بخزوز والوان . وقد انتشر استخدام فخار دور حسونة في عدد من المواقع في شمال العراق الا أننا لم نعثر على آثار معاصرة لهذا الدور في القسم الوسطي والجنوبي من العراق .

٢ – دور سامراء نسبة الى مدينة سامراء العباسية ، تميز فخار هذا الدور والذي عثر عليه في عدد من المواقع في شمال ووسط العراق فقط ، بأن اوانيه ملونة بلون واحد ومزخرفة بزخارف هندسية وبعض الرسوم المبسطة للحيوانات .

٣- دور حلف : نسبة الىٰ موقع أثري اسمه حلف يقع على الحدود التركية السورية ضمن الحدود السورية . أظهرت التنقيبات الأثرية في الموقع إن اسمه القديم كان گوزانا ، حيث كان عاصمة لمملكة ارامية ازدهرت في القرن العاشر قبل الميلاد . تميز فخار دور حلف بروعته وجماله ودقة زخارفه الملونة بعدد من الالوان وقد كشف على فخار دور حلف في عدد من المواقع في القسم الشمالي من العراق فقط وظهرت في هذا الدور بوادر استعمال المعادن ، واتسعت القرى الفلاحية وزاد عدد سكانها وظهر استخدام الاختام المنبسطة وشيدت البيوت السكنية الدائرية الشكل ووجدت بقايا بعضها في تل الاربچية في الموصل .

٤- دور العبيد : نسبة الى تل العبيد القريب من مدينة اور حيث كشف فيه عن فخار ملون مميز ، وبعد دور العبيد اقدم دور استيطان في القسم الجنوبي من العراق وقد وجد فخار العبيد في عدد كبير من المواقع المنتشرة في انحاء كثيرة من العراق شمالاً وجنوباً ، قسم الباحثون دور العبيد الى اربعة اطوار يعاصر الطوران الاول والثاني منها دور حلف في شمالي العراق . ووجدت آثار دور العبيد خارج حدود بلاد وادي الرافدين في ايران وبلاد الشام وفي الاجزاء الساحلية من الخليج العربي ولاسيما السواحل التابعة للملكة العربية السعودية اضافة الى المواقع المكتشفة في داخل المملكة العربية السعودية نفسها . وفي دور العبيد زاد استخدام المعادن لصناعة الالات والادوات والحلي واتسعت القرى والمدن وشيدت البيوت باللبن المنتظم كما ظهرت اشارات الى وجود اتصالات تجارية مع بعض الاقطار الخارجية لجلب المواد الخام الضرورية .

وقد اظهرت التنقيبات التي اجريب في عدد كبير من المواقع الاثرية التي تضم اثار العصر الحجري المعدني ، بعض الخصائص العامة التي اتصف بها هذا العصر يمكن اجمالها على النحو الاتي :

١- تطور اساليب الزراعة حيث كانت الزراعة في العصر الحجري الحديث للاكتفاء الذاتي ، اي ان الانسان كان يزرع مساحات محدودة من الارض يكفي انتاجها لسد حاجاته الذاتية فقط ، وفي هذا العصر ، اتسعت الاراضي التي كان يزرعها فكان هناك فائض في الانتاج يزيد عن حاجة الفلاح مما دفعه لمبادلته بمواد اخرى فائضة عن حاجة الاخرين ونتج عن ذلك ان تخصص كل فرد بانتاج نوع من

الحاجيات ، فكان هناك من يصنع الفخار او يشيد البيوت او يغزل الصوف وينسج الملابس او يصنع الالات والادوات الزراعية او يزرع الحبوب او غيرها من المحاصيل الحقلية .

٢ – ادى التخصص بالعمل الى ظهورر عدد من الحرف البدوية الجديدة وأدّت الزيادة في الانتاج الى المقايضة التي كانت الاساس الذي قامت عليه التجارة فيما بعد .

٣ – غدت القرى الزراعية الصغيرة اكبر حجماً وزاد عدد سكانها واصبحت نواة للمدن والمراكز الحضارية التي قامت فيما بعد ، وامتازت قرى العصر الحجري المعدني اضافة الى سعتها ، بتنظيمها واساليب البناء المتطورة فيها وباحتوائها على شوارع مبلطة تفصل بين البيوت وتنظم حركة الانتقال بينها .

٤ – عاش الانسان في القسم الاول من هذا العصر في القسم الشمالي والشمال الغربي من العراق فقط ، أي في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد آشور ، وفي النصف الثاني منه بدأ بالانتقال للسكن في السهل الرسوبي في وسط وجنوبي العراق . ويبدو أن هذا الجزء من العراق لم يكن صالحاً للاستيطان في الفترات السابقة وربما كانت هناك بعض الاقوام الرعوية التي أقامت فيه خيمها[1] ، فكان ذلك تمهيداً لمجئ المزارعين الاوائل الذين كان عليهم أن يباشروا بإنشاء مشاريع الري وتسخير مياه الانهار الوفيرة لري الاراضي المحيطة وزراعتها . لذلك ، لم يكشف في القسم الجنوبي على آثار الادوار الحضارية الاولى من العصر الحجري المعدني ؛ دور حسونة ودور سامراء ودور حلف ، وكانت اقدم الآثار المكتشفة في اسفل المواقع الأثرية من دور العبيد ، وهو آخر ادوار العصر الحضارية .

٥ – على الرغم من أن اسم هذا العصر يشير الى استخدام المعادن ، فإن المكتشفات الأثرية تؤكد أن المعدن لم يستخدم الا في النصف الثاني من العصر ، وكان النحاس في مقدمة المعادن التي استخدمت لصناعة الآلات والادوات .

٦ – ظهرت اولىٰ البنايات العامة المخصصة للعبادة ، أي المعابد . ويرقىٰ تأريخ اقدم المعابد المكتشفة الى دور العبيد (طور اريدو) . وكانت المعابد الاولىٰ تتألف من حجرة مربعة تقريباً تحتوي على دكة قرابين ومذبح وتتجه زوايا المعبد عادة الى الجهات الاربع الطبيعية .

---

(١) بوزرو واخران ، الشرق الادنى ، ص ٣٨

عصر الكتابة بالصور

٧- كان من النتائج الطبيعية لتطور الحياة وزيادة الانتاج ونشوء المدن الاولى أن تم اختراع بعض المبتكرات التي زادت في الانتاج وحسّنت في اساليب الصناعة كدولاب الخزاف، أو مايسمى بالقرص، والسفينة الشراعية وربما التوصل الى عمل العربة ذات العجلة التي زادت في سرعة التنقل.

٨- كان من نتائج الانتقال الى القسم الجنوبي من العراق (بلاد بابل) والقيام بمشاريع الري، كبناء السدود لدرء اخطار الفيضانات، وفتح الجداول والاقنية لايصال المياه الى الاراضي الزراعية ان ظهرت الحاجة لايجاد اولى الادارات المركزية لتنظيم جهود الجماعات في إنشاء تلك المشاريع والتخطيط لها وبذل الجهود المضنية للمحافظة عليها وإدامتها، فكان أن نشأت اولى انظمة الحكم السياسية التي تطورت فيما بعد الى ماعرف بنظام دول المدن.

٩- تشير بعض الآثار المكتشفة والمصنوعة من مواد اولية غير متوافرة في العراق، كالمعادن وانواع معينة من الحجارة الصلبة الى وجود اتصالات خارجية مع بلدان اخرى. يؤكد ذلك وجود تأثيرات حضارية عراقية على حضارات بعض تلك البلدان، سواء في الطرز المعمارية او في العثور فيها على آثار تحمل سمات عراقية واضحة، كالاختام الاسطوانية والاواني الفخارية، ومن هذه البلدان وادي النيل وجزر البحر المتوسط والاجزاء الجنوبية الشرقية من آ[illegible] الصغرى وبلاد الشام وبلاد عيلام وسواحل الخليج العربي.

١٠- تميز العصر الحجري- المعدني بفخاره جميل الصنع والمتعدد الالوان الى درجة سمي العصر باسمه حيث عرف لدى بعض الباحثين بعصر الفخار الملّون، وقد صنف الفخار حسب اشكاله وانواعه والوانه وزخارفه وزمان ومكان صناعته وسلسلت استناداً الى ذلك الأدوار الحضارية المتتابعة.

جـ - العصر الشبيه بالكتابي Proto-Literate

يقصد بهذا العصر الفترة التي ظهرت فيها اولىٰ العلامات الصورية التي استخدمت للتدوين. ففي اواسط الالف الرابع قبل الميلاد، اي في حدود ٣٥٠٠ ق.م، حقق سكان القسم الجنوبي من العراق اعظم انجاز حضاري باختراعهم طريقة للتدوين من خلال رسم بعض العلامات الصورية للتعبير عن الاشياء المادية التي ارادوا الاشارة اليها او الى اعدادها، وكانت تلك العلامات الصورية البسيطة بداية معرفة الانسان بالكتابة والتي تطورت خلال القرون التالية حتى اصبحت كتابه منتظمة ومعقدة وهي الكتابة المسمارية.

ولاهمية الكتابة في تاريخ الانسان عدّها الباحثون المحدثون الحد الفاصل بين عصور قبل التأريخ والعصور التأريخية طالما كانت الكتابة وسيلة تدوين التأريخ نفسه. الا ان الكتابة في مراحلها الاولى والتي استغرقت بضعة قرون كانت محدودة واقتصر استخدامها على عدد محدود من الناس، ولاسيما الكهنة، واستخدمت لتدوين بعض الامور ذات العلاقة بالحياة الاقتصادية بالدرجة الاولى، أي انها لم تكن تستخدم على نطاق واسع لتدوين التراتيل والاساطير الدينية والاحداث التأريخية والعلوم والمعارف بصورة عامة، لذلك، اصطلح الباحثون على تسمية العصر الذي ابتدعت فيه الكتابة وحتى شيوعها وانتشار استخدامها بالعصر الشبيه بالكتابي، اشارة الى ان الكتابة كانت معروفة فيه الا انها كانت محدودة الاستخدام، كما سمي العصر احياناً بالعصر الشبيه بالتأريخي proto-historic، اشارة الى ان التدوين التأريخي كان في بداياته الاولى. وقد اختلف الباحثون في تحديد بداية ونهاية هذا العصر، فأما البداية فيتفق معظم الباحثين على وضعها في حدود ٣٥٠٠ ق.م. في حين وضعت نهاية العصر في حدود ٢٩٠٠ ق.م أو ٢٨٠٠ ق.م.

وقد ضم العصر الشبيه بالكتابي دورين حضاريين رئيسين، هما دور الوركاء، نسبة الى مدينة الوركاء التي اخترعت فيها أقدم العلامات الصورية، والتي كانت تعرف قديماً باسم اوروك Uruk، ودور جمدة نصر، اي «تل نصر»، نسبة الى اسم هذا التل القريب من موقع مدينة كيش.

شهد العصر الشبيه بالكتابي طلائع الحضارة الناضجة التي ازدهرت في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد، فقد كان هناك تطور واضح في مختلف الجوانب والمظاهر الحضارية، فنمت القرى والمدن الصغيرة الى مدن كبيرة وزاد عدد سكانها وكان لها اداراتها المحلية وغدت مراكز حضارية مهمة وعواصم للدول السومرية التي قامت في الفترة التالية، كما يلاحظ التطور الواضح في الطرز المعمارية، ولاسيما طراز بناء المعابد وواجهاتها المزينة بالطلعات والدخلات وبالمسامير الفخارية الملوّنة، وبفن النحت البارز والمجسم، وخير مثال على ذلك مسلة صيد الاسود والاناء النذري ورأس الفتاة من الرخام، اضافة الى عدد من الاختراعات ذات الاهمية القصوى في تطوير حياة الانسان وحضارته والتي يأتي في مقدمتها اختراع الكتابة ومن ثم استخدام الاختام الاسطوانية مما سنأتي الى ذكره فيما بعد.

مما يلاحظ أن حضارة العصر الشبيه بالكتابي التي ازدهرت في مواقع القسم الجنوبي من العراق لم تنتشر الى القسم الشمالي من العراق ، أي الى المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد آشور الا استثناءً في حين وصل تأثيرها الى بلدان خارجية بعضها بعيد ، حيث وجدت تأثيرات هذا العصر في كل من وادي النيل وبلاد الشام وبلاد عيلام واطراف بحر قزوين وفي سهل انطاكية واعالي الفرات والخابور، سواء أكان ذلك في استخدام الاختام الاسطوانية أم اقتباس فكرة الكتابة او في الطرز المعمارية والنقوش والزخارف والتي ظهرت في القسم الجنوبي من العراق وانتقلت الى تلك المناطق البعيدة عن طريق التجارة الخارجية .

الا أن ذلك لايعني أن القسم الشمالي من العراق لم يكن اهلاً بالسكان في هذه الفترة ، بل ان التنقيبات الأثرية التي اجريت في عدد من المواقع التي تمتد بتأريخها الى عصور قبل التأريخ ، كمدينة نينوى وتپة گوارا القريبة من الموصل ، تؤكد استيطان الانسان في العصر الشبيه بالكتابي في القسم الشمالي من العراق حيث اظهرت التنقيبات في نينوى ان آثار الطبقتين الثالثة والرابعة من الاسفل تعود الى هذا العصر وتبين من هذه الآثار أن المدينة كانت قد تطورت من قرية صغيرة الى مدينة واسعة نسبياً. أما في موقع تپة گورا ، فتمثل آثار الطبقة الثامنة آثار العصر الشبيه بالكتابي وقد ضمنت اسس بعض الابنية ومنها بقايا معبد يعود الى هذا العصر. ولقد ظل هذا الجزء من العراق يعيش في عصور قبل التأريخ وذلك لان الكتابة لم تنتشر وتستخدم فيه الا بعد قرون عدة من اختراعها وانتشارها في القسم الجنوبي من العراق.

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٢ – جوانب من حضارة العراق في عصور ماقبل التأريخ

١ – الآلات والادوات الحجرية

استخدم انسان العصور الحجرية التي شغلت معظم حياة الانسان على الارض آلات وادوات مصنوعة من الحجر بالدرجة الاولى ، وقد سميت تلك العصور نسبة الى ذلك ، كما استخدم الخشب والعظام والقرون وغيرها لصناعة بعض آلاته وادواته . ورغبة في متابعة تطور حياة الانسان عبر الفترات الزمنية الطويلة التي عاشها في تلك العصور، فقد حاول الباحثون تصنيف الآلات والادوات الحجرية المكتشفة استناداً الى طريقة صناعتها ونوعيتها وسميت نسبة الى مواقع اكتشافها لاول مرة ، كما سبق والمحنا ، وسلسلت حسب تسلسل طبقات اكتشافها .

وقد ضمت الآلات الحجرية آلات النواة ، وهي آلات حادة من جانب واحد او جانبين تصنع من لب الحجارة او من نواتها بعد كسر قشرتها الخارجية وتحويل النواة الى آلة لها شكل القلب او القرص او اللوزة ، والشظايا التي تصنع بالضرب والتكسير لتصبح الشظية مدببة حادة او مسننة والتي استخدمت كسكاكين او مقاشط او مثاقب . وكانت بعض الشظايا والآلات الدقيقة تثبت بالقير في مقابض خشبية لتصنع منها السهام والرماح والمناجل .

اما الادوات الحجرية ، فهي الأواني الحجرية التي صنعها الانسان قبل اهتدائه الى صناعة الاواني الفخارية او المعدنية ، وظل استخدامها شائعاً حتى من بعد اهتدائه الى عمل الفخار واستخدامه للمعادن . وتضم الادوات الحجرية ادوات خزن وحفظ الاطعمة والمياه واواني الطبخ كما ضمت الرحىٰ والهواوين والمدقات والمجارش واقراص الغزل وغيرها .[1]

٢ – الفخار :

يقصد بالفخار الأواني المصنوعة من الطين والمحروقة بالنار. وكان أول اهتداء الانسان لصناعة الفخار في الطور الثاني من العصر الحجري الحديث ، ومن الطبيعي إن الفخار في اول صناعته كان سميكاً سميك الجدران وغير مدلوك أو مزخرف وان كانت بعض الأواني مزينة بخطوط متقاطعة بلون اسود أو احمر، كما وجد ذلك في الطبقتين الخامسة والرابعة

(١) حول تفصيل ذلك انظر: تقي الدباغ ، الآلات الحجرية ، في : حضارة العراق ، ج ١ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٩٩–١٠٨

من قرية جرمو وفي قرية شمشارة. وربما كان أول استخدام الفخار عن طريق تغليف جدران الحفر بالطين ثم حرقها بالنار لكي تجف وتفخر فتصبح صالحة لخزن الحبوب والمؤن، ثم صنعت الأواني الفخارية البسيطة بعد ذلك. وتطورت صناعة الفخار في الفترات التالية ولاسيما في العصر الحجري – المعدني الذي تميز بفخاره الرائع الجميل وبدقة صناعته وتعدد الوانه وكثرة زخارفه . ولأهمية الفخار الكبيرة بالنسبة للباحثين فقد سمي الطور الأول من العصر الحجري الحديث بطور ماقبل الفخار في حين سمي العصر الحجري المعدني أحياناً بعصر الفخار الملوّن.

ان للفخار أهمية قصوى بالنسبة للباحث المعاصر في دراسة التطور الحضاري ومعرفة التسلسل الزمني للأدوار الحضارية المتتابعة التي مرت على العراق القديم في عصور قبل التأريخ بنحو خاص حيث لم تكن الكتابة معروفة بعد لتعين المنقب والباحث على تحديد أزمنة الآثار المكتشفة وادوارها الحضارية. لذا فقد استعان على ذلك بالفخار وبعض الآثار الأخرى. فالمعروف ان الأواني الفخارية تختلف في اشكالها وأنواعها والوانها وزخارفها وطريقة صنعها بل وحتى في لون طينتها ودرجة حرارة فخرها، نسبة الى مكان وزمان صنعها، وقد استخدم العراقيون القدماء الأواني الفخارية على نطاق واسع جداً، لأنه اصبح المادة الأساسية التي صنعت منها معظم الآلات والأدوات، ولاسيما المنزلية منها، بدءاً من الطور الثاني من العصر الحجري الحديث وحتى نهاية العصور القديمة بل وفي العصور التالية ايضاً، حيث تقلّص تدريجياً استخدام الآلات والأدوات المصنوعة من الحجر وكان استخدام المعدن محدوداً جداً، وهذا أمر طبيعي لرخص ثمن الأواني الفخارية وتوفر مادتها الأولية في جميع انحاء العراق، ونظراً لسرعة تكسر الأواني الفخارية وتحطمها وصعوبة او استحالة ترميمها واصلاحها، فقد زاد عدد الأواني المستخدمة كما زادت كمية الكسر الفخارية التي كانت ترمى الى جوار الدور السكنية وتتجمع سنة بعد أخرى وجيلاً بعد جيل لاتؤثر فيها عوامل التعرية الطبيعية أو الحرارة أو البرودة او الحرائق أو الأمطار.

ونتيجة لاستمرار السكن في الموقع الواحد لأجيال عدة وتهدم البيوت وترميمها وبنائها، تكونت الطبقات السكنية (الأثرية) من الانقاض التي يتركها كل جيل من البيوت المتهدمة، وفي الحالات الطبيعية فإن هذه الطبقات والانقاض تكون بشكل منظم من حيث التسلسل الزمني، فالطبقة العليا هي الأحدث والسفلى هي الأقدم. وفي هذه الانقاض تتبعثر الكسر والأواني الفخارية ممثلة تعاقب العصور وتسلسل الأدوار الحضارية مما يساعد المنقب على تحديد الدور الحضاري والتسلسل الزمني لكل طبقة اثرية وما يكشف

الأثري وسفوحه الجانبية مؤشرة بذلك الأدوار الحضارية التي مرت على القرية او المدينة المطمورة تحت الأتربة في ذلك التل مما يعين المنقب كثيراً عند اختياره الموقع للتنقيب والتعرف على ادواره الحضارية.

ولقد عكف الباحثون على دراسة وتصنيف الأواني والكسر الفخارية المكتشفة في المواقع المختلفة ومقارنة بعضها ببعض وذلك استناداً الى انواعها واشكالها وزخرفتها وطرزها الفنية وجميع صفاتها الأخرى المميزة، وتبين لهم بأنه كان لكل فترة زمنية تمثل دوراً حضارياً مستقلاً فخارها الخاص المختلف عن فخار الأدوار السابقة او اللاحقة، وقد ينتشر استخدام فخار دور معين في منطقة محدودة، في شمال العراق فقط او في جنوب العراق فقط او في منطقة صغيرة، وقد ينتشر استخدامه في منطقة واسعة تشمل جميع انحاء العراق وقد تكشف التنقيبات عن انتشاره في مناطق بعيدة خارج حدود العراق، كما كانت عليه الحال بالنسبة الى فخار دور العبيد الذي بدأت صناعته في جنوب العراق وانتشر استخدامه في جميع انحاء العراق كما وجد مايضاهي هذا الفخار في المملكة العربية السعودية وفي عدد من المواقع على سواحل الخليج العربي في دولة الامارات العربية. وقد يستفاد من متابعة انتشار استخدام فخار معين على معرفة العلاقات التجارية والحضارية بين سكان المناطق وعلى معرفة طريق هجرة بعض الأقوام واصولهم العرقية في حين يُشير بعض انواع الفخار الدخيلة الى حدوث غزو من اقوام اجنبية الى المنطقة.

وفضلاً عن ذلك، فإن الزخارف والرسوم المنفذة على الأواني الفخارية وكذلك اشكال بعض الأواني والغاية من صنعها قد تعكس بعض الأفكار الدينية التي كانت سائدة وتوضح بعض الطقوس والمراسيم الدينية خاصة وقد صنع من الفخار بعض الدمى والتماثيل كما صنعت منه أواني لاجراء بعض الطقوس الدينية واخرى لدفن الموتى وغيرها.

وكانت الأواني الفخارية في معظم عصور قبل التأريخ تصنع باليد اذ لم تكن عجلة الخزاف، او القرص، قد اخترعت بعد، وكانت تلون بألوان نباتية وحيوانية او معدنية الأصل. وتزخرف بشتى انواع الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية او قد تحمل بعض المشاهد والرسوم الادمية، وتنوعت اشكال الأواني الفخارية تنوعاً كبيراً فشملت معظم الأدوات المنزلية من طاسات وقدور وجرار واقداح وصحون ومجارش ومطاحن وغيرها، وكثير من الآلات والأدوات المستعملة خارج المنزل، كالأدوات الزراعية وتلك المستخدمة في بعض الحرف والصناعات.

وقد ظل استخدام الفخار شائعاً حتى من بعد انتشار استخدام المعادن ولكن على نطاق أضيق ، واختلفت صناعته من عصر الى آخر. الا أن أهميته في تحديد ازمنة الآثار والعصور التأريخية اصبحت محدودة بعد أن انتشر استخدام الكتابة وتم الكشف عن آلاف من النصوص المدونة على الواح الطين والحجر.

ولقد صدرت بحوث ودراسات كثيرة عن الفخار وطرزه الفنية وأنواعه واشكاله في كل دور حضاري او تأريخي بل وصدرت بعض الأدلة والجداول التي تعين المنقب على تحديد الدور الحضاري او التأريخي الذي تعود اليه الكسر الفخارية المكتشفة بمجرد مقارنتها مع ماهو مكتشف سابقاً بل وحتى في اسلوب وصفها وتحديد الوانها وزخارفها .

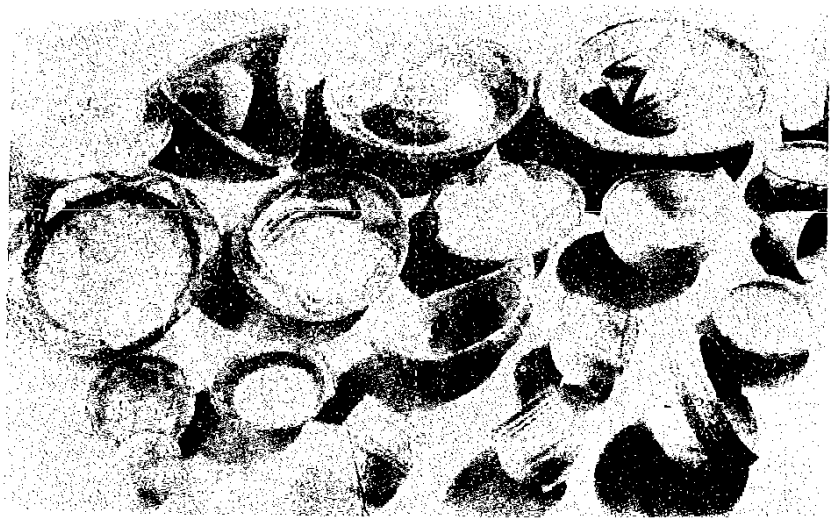

صورة لبعض الأواني والكسر الفخارية وزخرفتها

٣ — الأختام :

هناك نوعان من الأختام يضم الأول منها الاختام المنبسطة stamp seals والثاني الأختام الاسطوانية cylincler seals. وقد استخدم الختم بصورة عامة ومنذ العصر الحجري المعدني وحتى الآن للتوثيق ومنع التزوير او التلاعب بممتلكات الغير. ففي العصور المبكرة استخدم الختم المنبسط ، وهو عبارة عن قطعة صغيرة منبسطة من الحجر، مستطيلة او قرصية ، منقوش عليها بوساطة الحفر بعض الخطوط او الزخارف البسيطة ، فكان يضغط الختم على الطين الطري الذي يسد فوهة الجرار لمنع التلاعب بما فيها من مواد الاّ بحضور مالكها ، صاحب الختم. وقد تم اكتشاف اقدم انواع هذه الأختام في الطبقة الثانية من موقع حسونة قرب الموصل ، وشاع استخدامها في الأدوار الحضارية التالية الى ان تم ابتكار الأختام الاسطوانية ، حيث تقلّص استخدامها تدريجياً. وظلت الأختام المنبسطة معروفة عبر العصور وحتى الوقت الحاضر، مع اختلافات في الشكل والمادة واسلوب الصناعة ، وظلت تستخدم للتوثيق ومنع التلاعب والتصديق لتقوم مقام التوقيع ، كأختام الدوائر الرسمية وأختام بعض الأفراد ، كالمختار والتاجر والملاّك وغيرهم ، ولاسيما ممن لايعرفون الكتابة او التوقيع .

وفي اواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى وجه التحديد ، في الطبقة الرابعة في الوركاء التي تؤرخ عادة بحدود ٣٥٠٠ ق . م ، وجدت اقدم الأختام الاسطوانية والختم الاسطواني هو عبارة عن حجرة او خرزة اسطوانية الشكل صغيرة يتراوح طولها بين ٢ سم و ٨ سم عادة ، ويتراوح طول اقطارها بين١ سم الى بضعة سنتمترات ، وتصنع من الأحجار المختلفة ، وبعضها احجار كريمة او شبه ثمينة ، وقد تصنع من المعادن او الفخار. والختم الاسطواني مثقوب طولياً من الوسط ، ربما ليعلق بخيط في الرقبة للمحافظة عليه من الضياع ولضمان عدم استخدامه من قبل الغير، وكان من المقتنيات الشخصية الملازمة لمعظم الأفراد ، ولاسيما الذكور منهم . وقد ابتكر العراقيون القدماء الختم الاسطواني لأنه اكثر ملائمة للتوثيق على الطين حيث يمكن النقش عليه بزخارف ونقوش ومشاهد مختلفة وربما بعض الكتابات ، وعند دحرجته على الطين يترك طبعة تلك الزخارف والمشاهد ويمكن تكرار تلك الطبقات بمجرد الاستمرار بدحرجة الختم. وقد استخدم الختم الاسطواني على نطاق واسع بعد اختراع الكتابة وذلك لتوثيق العقود والمعاملات التي كانت تدون على الواح الطين.

وكان النقش على الختم يتم بطريقة الحفر وتنقش الزخرفة او المشهد او الكتابة بشكل معكوس ، فإذا ماخرج الختم على الطين تراه طبقة صحيحة وموجبة .

ويعد الختم الاسطواني من سمات الحضارة العراقية القديمة ، فعلى الرغم من استعمال الأختام الاسطوانية في بعض بلدان الشرق الأدنى القديم ، مثل وادي النيل وبلاد الشام وآسيا الصغرى ، فإنها استخدمت لفترة محدودة وربما كانت اقتباساً وتقليداً لما كان شائعاً في العراق ، في حين استمر استخدام الختم الاسطواني في العراق طوال العصور التأريخية المتتابعة خاصة وان الكتابة كانت تطبع على الواح الطين وكان ملائماً جداً توثيق المعاملات والنصوص بطبعة الختم الاسطواني ايضاً .

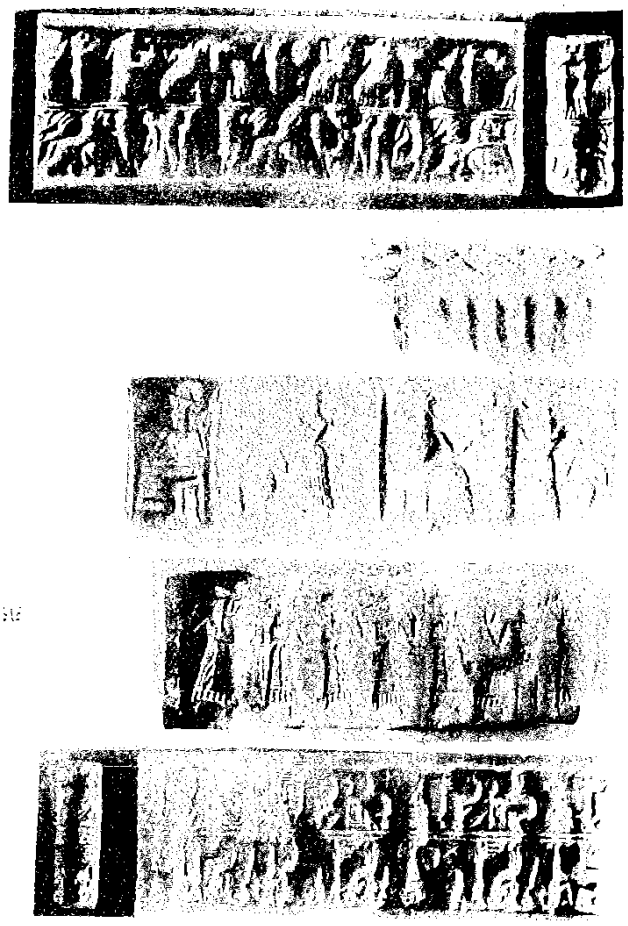

نماذج من الاختام الاسطوانية وطبعاتها على الطين

ولقد ابانت التنقيبات الأثرية اعداداً كبيرة جداً من الأختام الاسطوانية تعود الى فترات زمنية وعصور تأريخية مختلفة ، وتختلف الأختام المكتشفة من حيث الحجم والشكل العام ومادة الصنع ومن حيث الزخارف والنقوش والمشاهد المنفذة عليها وقد اختص كل دور حضاري سواء في عصور قبل التأريخ او في العصور التأريخية بطرز وخصائص معينة بالنسبة للأختام الاسطوانية تماماً كما هي الحال بالنسبة للأواني الفخارية ، فساعد ذلك كثيراً من المنقبين والباحثين في التأريخ القديم على تحديد ازمنة الآثار المكتشفة في الطبقات التي وجدت فيها الأختام حيث صنفت تلك الأختام ، كما صنفت الكسر والأواني الفخارية ، حسب تسلسل الأدوار الحضارية التي صنعت فيها وغدا من اليسر على المنقب ان يحدد الدور الحضاري الذي يعود اليه الختم المكتشف ، ومعه الآثار الأخرى المكتشفة في الطبقة نفسها ، بمجرد الاطلاع على شكله وما عليه من نقوش وزخارف ومشاهد ، اي على طراز صنعه .

ولا تقتصر فائدة الأختام الاسطوانية على تحديد ازمنة الأدوار الحضارية التي تعود اليها ، بل ان الزخارف والنقوش والمشاهد المنفذة عليها قد تعكس لنا معلومات مفيدة جداً في دراسة الطقوس الدينية والعادات والتقاليد المتبعة وما كان من حيوانات ونباتات في المنطقة فضلاً عن ان بعضها كان يحمل مشاهد عن حياة الحكام أو الحياة اليومية للأفراد الى غير ذلك من المشاهد التي تعبّر عن جوانب معينة من حضارة العصر الذي صنعت فيه ، بل ان بعض المشاهد يوضح هوية الاقوام التي استخدمت تلك الأختام ، سومرية كانت ام جزرية (اكدية او بابلية) أو أجنبية من ملامح الأشكال المرسومة عليها والتي تمثل بعض الاشخاص او الآلهة .[1]

٤- الكتابة

يعد اختراع الكتابة واحداً من اروع المنجزات الحضارية التي حققها العراقيون القدماء لأهميتها القصوى في حياة الانسان قديماً وحديثاً الى درجة دفعت الباحثين المحدثين الى تقسيم العصور التي مرت على الانسان الى قسمين رئيسين تفصل بينها الكتابة . لقد غيّرت

---

(١) للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الأختام انظر:
عادل ناجي ، الأختام الاسطوانية ، في حضارة العراق ، ج٣ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص٢١٩ - ٣٢٢ .
فرج بصمة جي ، الأختام الاسطوانية في المتحف العراقي ، سومر ، ٢ (١٩٤٦) ، صفحة ١٥٥ - ١٦٤ .

الكتابة حقاً حياة الانسان تغييراً جذرياً حتى اعتقد القدماء من السومريين بأن مصدرها الهي وعدّوها "أباً وأمّا للبشر" على حد تعبير احد اقوالهم المأثورة.

لقد أصبحت الكتابة منذ اختراعها في اواسط الألف الرابع قبل الميلاد (حدود ٣٥٠٠ ق.م) القارب الذي انتقلت بواسطته جميع التجارب والأفكار والقيم والتعاليم والعلوم والمعارف من جيل الى جيل عبر العصور المتتابعة فحفظت بذلك سجل تأريخ الانسان الذي غدا وكأنّه ذاكرة البشرية، يفيد منها البشر اينما كانوا وفي اي مجال ارادوا.

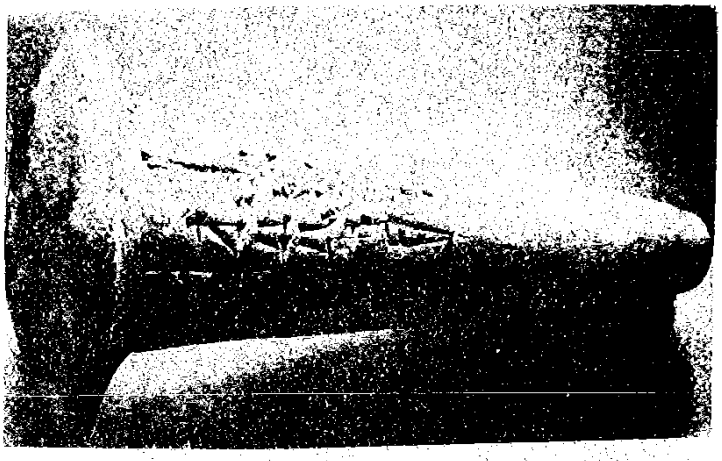

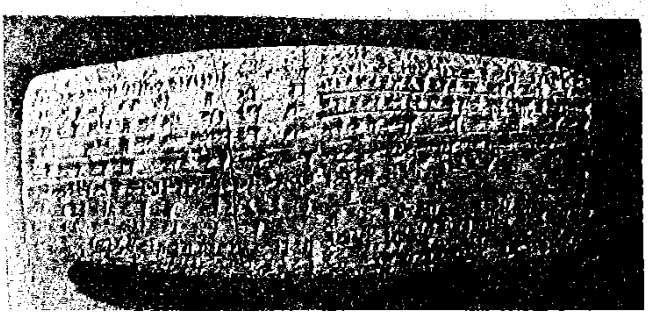

من اشكال الرقم الطينية المختلفة

تعد الألواح الطينية الصغيرة المكتشفة في الطبقة الرابعة ب في مدينة الوركاء في القسم الجنوبي من العراق والتي تحمل بعض العلامات الصورية ، اقدم محاولات الانسان في تدوين مايجول بخاطره ونقل مايريد ان يقوله الى الغير. وقد استخدم العراقيون القدماء الطين الطري مادة للكتابة بالدرجة الرئيسة الى جانب الحجر، كما كتبوا على العاج والمعدن وربما الخشب وغيره من المواد ، ولكن بحدود ضيقة جدا ، وغدت الواح الطين التي عرفت من قبل الباحثين بالرقم الطينية اهم واثمن مايمكن الكشف عنه من آثار ذات فائدة علمية في اي موقع من المواقع الأثرية في العراق ، وتختلف الرقم الطينية المكتشفة من حيث الشكل والحجم ، فمنها الصغير الذي لاتتجاوز مساحته سنتمتراً مربعاً ومنها الكبير الذي قد تصل قياساته الى ٥٠ × ٥٠ سم ، ومنها المربع او المستطيل ومنها القرصي او المثلث الشكل ، ومنها ماهو مجسم على شكل اسطوانة او منشور ذي اضلاع عدة او مكعب او كروي او على هيئة حيوان او عضو من اعضاء الحيوان او الانسان ، وكان لكل فترة زمنية اشكالها الخاصة التي يمكن تمييزها عن غيرها كما كان لمضمون النص المدون على الرقيم علاقة بشكل الرقيم.

أما الكتابة على الحجر ، فقد ضمت الكتابة على الألواح وعلى المنحوتات الجدارية والتماثيل والمسلات والأوزان وغير ذلك وينطبق الشيء نفسه على الكتابة على المعدن او العاج.

لايمكن تقدير عدد الرقم الطينية المكتشفة حتى الآن ، الا انها تعد بمئات الآلاف وقد ترجم جزء مهم منها ولازال البعض ينتظر دوره للترجمة ، كما ان التنقيبات التي تجري في العراق تضيف سنوياً الى اعداد الرقم الطينية المكتشفة اعداداً اخرى.

مرت الكتابة التي ابتدعها العراقيون القدماء بثلاث مراحل رئيسة الى ان وصلت الى شكلها النهائي الذي دونت به معظم النصوص ، فكانت في بدايتها صورية بحتة ، اي ان الكاتب كان يرسم الشيء المادي الذي يريد التعبير عنه بأبسط الأشكال الممكنة مستخدماً قلماً مدبباً يحركه على الطين الطري. الا أن هذه الطريقة لاتعبّر الاّ عن بعض الكلمات والمفردات والأشياء المادية المجردة وربما اعدادها. لذا ابتدع الانسان طريقة اخرى للتعبير عن المزيد من المفردات التي لاتمثل اشياء مادية ، فاستخدم العلامة الصورية الواحدة للرمز بوساطتها الى جميع الأفكار والمعاني المادية والمعنوية ذات العلاقة بتلك العلامة. فاصبحت العلامة الخاصة بالقدم ، مثلاً ، لاتعني القدم حسب الطريقة

الصورية فقط بل غدت تدل على المشي والركض والوقوف وكل ماله علاقة بعضو القدم وهكذا. ومع ذلك ظلت الكتابة قاصرة عن التعبير عن اسماء الاعلام وعن الأدوات النحوية والصيغ الفعلية وازمنتها والى غير ذلك مما تحويه اللغة، فابتدعت الطريقة الصوتية او، كما تسمى احياناً،بالمقطعية. وفحوى هذه الطريقة هو استخدام القيمة الصوتية لأي علامة صورية او رمزية، اي اسلوب لفظها، لتكوين كلمات جديدة لاعلاقة لها بالصورة التيّ تمثلها العلامة او ترمز لها، اي تماماً كما نستخدم الحروف الابجدية لتكوين كلمات جديدة كلما اردنا ذلك، غير ان الحروف الابجدية (أ وب وج وس وص ...: الخ) يمثل كل منها صوتاً واحداً منفرداً، في حين تمثل قيم العلامات الصوتية صوت اكثر من حرف واحد نحو ب ـ د ـ وس و باب و بيت .. الخ.ولم يكن التطور الذي طرأ على الكتابة في الاسلوب فقط بل وبطريقة الكتابة ايضاً حيث اصبح الكاتب يطبع العلامات على الطين بوساطة ضغط نهاية القلم ذي المقطع المثلث او المستطيل او الدائري فيترك طبعة تتألف من خط افقي، هو ضلع المقطع، ينتهي بمثلث صغير، هو زاوية المقطع فاضطر الكاتب ان يختزل في تفاصيل العلامة ويستبعد الدوائر والمنحنيات ويجرد العلامة من تفاصيلها تدريجياً حتى ابتعدت عن شكلها الأصلي وأصبحت عبارة عن مجموعة من العناصر المؤلفة من خط ينتهي بمثلث، اي مايشبه المسمار او الوتد، ومن هنا جاءت التسمية الحديثة (الكتابة المسمارية) حيث لم تكن الكتابة تعرف بهذا الاسم قديما.

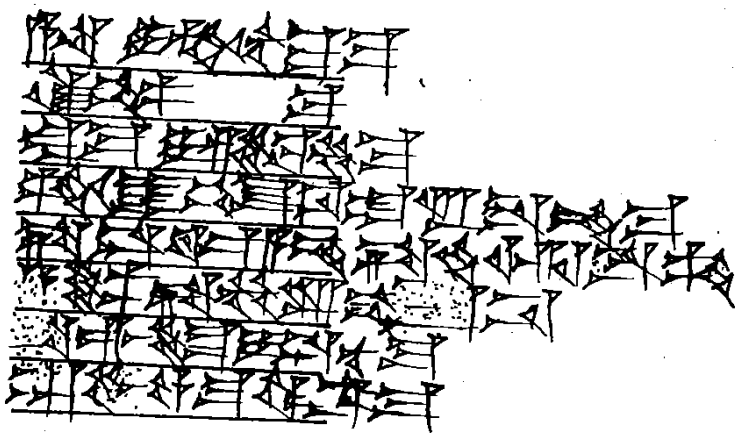

استنساخ يدوي لكتابة مسمارية من العصر البابلي القديم

استخدمت الكتابة المسمارية في العراق القديم منذ اختراعها في حدود ٣٥٠٠ ق.م. وحتى اواسط الألف الأول قبل الميلاد (حدود ٥٠٠ ق.م)، حيث كانت الكتابة الرسمية والشائعة في بلاد بابل وآشور، ومن ثم بدأ استخدامها يتقلص تدريجياً حتى تلاشى بحدود التأريخ الميلادي وكان آخر الرقم المدونة بالمسمارية من القرن الأول الميلادي. وانتشر استخدام الكتابة المسمارية في الأقطار المجاورة، بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلاد عيلام، وكان غالباً اقتباساً من بلاد بابل وآشور مع التحوير.

بعد توقف استخدام الكتابة المسمارية انطمرت الرقم الطينية والالواح الحجرية وغيرها من الآثار تحت الانقاض وتراكمت عليها الأتربة وظلت في طي النسيان حتى بداية القرن الماضي عندما بدأت محاولات التنقيب والكشف عن اسرار الماضي وكنوزه، فتم اكتشاف اعداد كبيرة من الرقم الطينية والألواح الحجرية المنقوشة بالكتابة المسمارية وارسلت الى اوروبا لدراستها. وبعد جهود مضنية وبمساعدة بعض النصوص الثنائية اللغة والخط، كالتي كانت تكتب على قواعد بعض التماثيل بالخطين الفارسي والبابلي في فترة الاحتلال الاخميني لبلاد بابل وآشور، او ثلاثية اللغة والخط، كالتي كتبت على سفح جبل شاهق في برسيبوليس وعرفت بنقش بهستون ودونت بالخط المسماري البابلي والفارسي القديم والعيلامي، تمكن الباحثون الاوربيون في اواسط القرن الماضي من حل رموز الكتابة المسمارية العراقية وبدأوا بترجمة النصوص الكثيرة المكتشفة الى اللغات الحديثة.

وقد تبين ان تلك النصوص قد ضمت مختلف المواضيع فمنها الدينية والأدبية ومنها الاقتصادية والقانونية والعلمية والادارية وغيرها حتى يمكن القول ان مضامين النصوص المسمارية متنوعة الى درجة لايمكن حصرها. وكان اكتشاف النصوص المسمارية في المعابد والقصور بالدرجة الاولى كما تم اكتشاف عدد من المكتبات القديمة التي كانت تضمها بعض المعابد والقصور ويأتي في مقدمتها مكتبة آشور بانيبال الشهيرة التي كشف عنها في القرن الماضي من قبل البريطانيين الذين كانوا يعملون في مدينة نينوى وقد ضمت تلك المكتبة اكثر من خمسة وعشرين الف رقيم طيني اوكسرة رقيم نقلت جميعها الى المتحف البريطاني في لندن[1].

---

(١) حول الكتابة المسمارية بالتفصيل انظر: عامر سليمان، اللغة الاكدية، موصل ١٩٩١، ص٩٧ – ١٧٨، بهيجة خليل، الكتابة في حضارة العراق، ج١، بغداد، ١٩٨٥، ٢٣١ – ٢٧٢.

ومع ايجابيات استخدام الطين مادة اساسية للكتابة عليها مقارنة بورق البردي والجلود والورق العادي وغيرها ، حيث انه يقاوم التلف والبلل ولا يتأثر بالحرائق بل على العكس تزداد قوته نتيجة الحرق ، فكان ذلك من العوامل المهمة التي حفظت لنا النصوص العراقية القديمة بصيغتها الاصلية التي دونت بها قبل آلاف السنين على الرغم من ذلك فقد كان لاستخدام الطين سلبيات مهمة منها سرعة تكسر الرقم الطينية وتحطمها مفخورة كانت أم غير مفخورة وبالتالي فقدان اجزاء مهمة منها ، وكذلك ثقل وزنها وصعوبة حملها ونقلها مما استوجب استخدام رقم صغيرة وبالتالي اختصار النصوص المراد تدوينها الى ابعد الحدود فجاءت النصوص المسمارية غالباً موجزة ومقتضبة احياناً ولا تتطرق الاّ للامور ذات الاهمية .

ولصعوبة الكتابة المسمارية وكثرة عدد علاماتها الصورية والرمزية والتي جاوزت خمسمائة علامة بعد اختزال اعدادها ، وتعدد قيمها الصوتية واستخدامها للعلامات الدالّة والنهايات الصوتية التي كانت تكتب ولا تقرأ بل تساعد على فهم النص ، فقد كان على المتعلمين الالتحاق بالمدرسة لتعلم الكتابة والقراءة ولمدة سنوات طويلة حتى يتمكنوا من اتقانها ثم يبدأوا دراساتهم للعلوم الأخرى ، كالطب والفلك والرياضيات وغيرها ، او يصبحوا كتاباً فحسب يكتبوا لبقية افراد المجتمع مايحتاجون من عقود ورسائل وغيرها ، وقد تم الكشف عن اعداد كبيرة من النصوص المسمارية المدرسية التي كان قد كتبها الطلبة المتعلمون وهي تحمل بعض العبارات التي دونها معلميهم في بداية اللوح .

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٥ الأقوامُ العِراقيّة القديمة ولغاتها

١ – الاقوام العراقية القديمة في عصور ماقبل التأريخ ولغاتها

عاش في العراق منذ اقدم العصور الحجرية وحتى نهاية التأريخ القديم اقوام عديدة واجناس مختلفة ، منها مانعرف عنها بعض الشيء ومنها مالانعرف عنها اي شيء. ولقد كان لطبيعة ارض العراق الجغرافية وموقعه اكبر الأثر في تعدد وتنوع الاقوام التي عاشت فيه كما سبق ان أشرنا . فأرض العراق ، ولاسيما السهل الرسوبي ، تمثل اقليماً مفتوحاً من جهاته الشرقية والغربية ، غني بموارده الطبيعية واراضيه الخصبة ، لذا تتابعت عليه الهجرات والغزوات منذ اقدم العصور، واختلطت فيه الاقوام ولم يعد من اليسر تحديد هويتها ، واستمرت تلك الهجرات والغزوات عبر العصور التأريخية بل ولازالت مستمرة الى الوقت الحاضر ولكن على نطاق ضيق ومحدود .

ان التعرف على هوية الاقوام القديمة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة اللغة او اللغات التي تكلمت بها تلك الاقوام . فاذا ماعرفت لغة الاقوام وفصيلتها اوعائلتها اللغوية امكن معرفة الاصل الذي انحدرت عنه تلك الاقوام والموطن الاول الذي جاءت منه وربما الطريق الذي سلكته في هجرتها الى ان حلت في هذا المكان او ذاك . والى جانب اللغة يمكن الاستعانة بدراسة الهياكل العظمية البشرية المكتشفة وبالاثار المادية التي خلفها الانسان

وطرزها الفنية ولاسيما التماثيل والمنحوتات والرسوم التي تصور اشكالاً آدمية وذلك في اعطاء فكرة تقريبية عن هوية الاقوام. وبالنسبة الى الاقوام العراقية القديمة التي عاشت في ارجاء العراق المختلفة في عصور قبل التأريخ. وعلى الرغم من ان تلك الاقوام كانت تتكلم بلغة او لغات معينة يتفاهم بها الافراد بعضهم مع بعض، فانه لاسبيل الى معرفة تلك اللغة او اللغات طالما لم تكن الكتابة معروفة انذاك لتنقل الينا لغة الاقوام. اما دراسة الهياكل العظمية فقد اثبتت الدراسات الانثروبولوجية التي تمت على الهياكل العظمية المكتشفة في مدن العراق القديمة عدم جدواها في تحديد هوية الاقوام التي خلفتها حيث كانت النتائج غامضة ومرتبكة وتشير الى اختلاط عرقي منذ اقدم العصور الى درجة لايمكن ان نميز العرق الغالب على السكان. وما يقال عن الهياكل العظمية ينطبق على الآثار المادية المكتشفة، ومنها التماثيل والمنحوتات التي قد تحمل بعض الملامح او السمات التي تدل على هوية اصحابها، حيث ثبت أنها غير مفيدة حيث تحكمت في صنعها ونحتها الطرز الفنية السائدة من النحت بالدرجة الاولى وان مايظهر على تلك التماثيل والمنحوتات من ملامح وسمات لايمثل في الواقع فروقاً او ميزات عرقية[1]، وكذلك بالنسبة الى الطرز الفنية التي تظهر على الآثار المادية المكتشفة كالفخار والاختام والالات والادوات، وطرز البناء وغيرها، والتي لاتساعد على تحديد هوية الاقوام التي خلفتها طالما تحكمت فيها الطرز السائدة. وهكذا تبقى معلوماتنا عن هوية الاقوام العراقية القديمة في عصور قبل التأريخ وعن لغاتها تخمينية فقط الى ان تم ابتكار الكتابة واستخدمت لتدوين وتسجيل وحفظ اللغة وذلك في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد.

ومع ذلك، فان طبيعة ارض الرافدين الجغرافية والطرق والمسالك المفتوحة اليها، وتتابع هجرة وغزو الاقوام في العصور التأريخية التالية ولاسيما القسم الجنوبي من العراق، كل ذلك يشير الى انه لابد ان دخل ارض العراق من الجهات الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية اقوام جاءت عن طريق الهجرة من شبه الجزيرة العربية وتغلغلت بين السكان واختلطت معهم. يؤكد ذلك ان التنقيبات التي اجريت في السنوات الاخيرة في سواحل شبه الجزيرة العربية وفي جزيرة البحرين وسواحل الامارات العربية اثبتت وجود تشابه كبير بين الآثار المكتشفة فيها مع ماهو مكتشف في مدن جنوب العراق من دور العبيد، اقدم ادوار الاستيطان فيها، مما يؤكد على الاتصال الحضاري بين المنطقتين منذ الالف الخامس قبل الميلاد، وهو اقدم تأريخ استيطان في هذا الجزء من العراق. كما ان وجود اسماء جزرية

---

(١) طه باقر، المقدمة، ص ٦٢.

بين اسماء ملوك اقدم سلالة حكمت في القسم الجنوبي من العراق ، وهي سلالة كيش حسبما ورد ذلك في جداول الملوك السومريين يشير هو الآخر الى تواجد الاقوام الجزرية منذ عصور مبكرة جداً. والى جانب الاقوام الجزرية لابد وان كانت هناك اقوام اخرى دخلت العراق من الجهات الشرقية عن طريق الهجرة او الغزو واختلطت بالسكان كما لابد وان هاجرت الى السهل الرسوبي مجموعات صغيرة وكبيرة من السكان الذين كانوا يعيشون في الاقسام الشمالية والوسطى من العراق ، الا ان معلوماتنا عن كل ذلك تبقى في دائرة التقدير والتخمين.

وفي الاربعينيات من هذا القرن حاول بعض الباحثين ، وفي مقدمتهم الباحث لاندزبرجر Landsberger ، دراسة الآثار المادية واللغوية التي خلفتها الاقوام العراقية القديمة التي عاشت في مدن جنوبي العراق في الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، اي في الفترة التي سبقت ابتكار الكتابة مباشرة ، وتمكن من تحديد هوية تلك الاقوام بشكل تقريبي. فلقد لاحظ لاندزبرجر اثناء دراسته النصوص السومرية والاكدية القديمة وجود بعض المفردات اللغوية الدخيلة في تلك النصوص التي لاتنتمي الى اللغة السومرية او الى اللغة الاكدية ، وهما اللغتان الرئيستان في مدن جنوبي العراق في الالف الثالث قبل الميلاد ، وكان من جملة تلك المفردات الدخيلة اسماء معظم المدن السومرية والاكدية واسماء الانهار واسماء الحرف والصناعات الاساسية واسماء كثير من الالات والادوات الزراعية وغيرها. فاستنتج لاندزبرجر ان هذه المفردات الدخيلة لابد انها تعود الى لغة السكان الاوائل الذين سكنوا المنطقة من قبل السومريين والاكديين وخلّفوا لنا آثاراً مادية تتمثل بآثار الدور الحضاري الذي سمّاه المنقبون بدور العبيد نسبة الى تل العبيد. وحيث ان الكتابة لم تكن معروفة بعد ، لذلك لم تدون لغتهم بل ظلت بعض مفرداتها اللغوية حيّة في العصور التالية ودخلت في اللغة السومرية واللغة الاكدية متمثلة بالاسماء التي ذكرناها.

ولقد اطلق لاندزبرجر على تلك الاقوام اسم الفراتيين الاوائل Proto-Euphrates نظراً لانهم عاشوا على اطراف الاقسام السفلى من نهر الفرات.[1] ونسب المفردات اللغوية الدخيلة الى لغة تلك الاقوام. اما هوية تلك الاقوام العرقية ، فلا تزال غير معروفة واغلب الظن انها كانت تتألف من عدة عناصر منها السومرية ومنها الجزرية ومنها عناصر اخرى لاتعرف هويتها ، كما سبق واشرنا الى ذلك.

---

(١) هناك من الباحثين من أيّد هذا الرأي وقدّم ادلّة أضافية لاسناده مثل Gelb وطه باقر (انظر طه باقر المقدمة ، ٧٤– ٧٦) في حين يرى آخرون خلاف ذلك ، انظر تفصيل ذلك عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، موصل ، ١٩٩١ ، ص ٢٥– ٢٦.

ولابد من الاشارة هنا الى الاقوام التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية من الالف الثالث قبل الميلاد وما بعد ذلك باسم «السوباريين» والذين سميت منطقة سكناهم ببلاد سوبارتو. فتشير هذه النصوص الى أن السوباريين كانوا من الاقوام التي كانت تقطن في منطقة الجزيرة العليا في شمال مابين النهرين وفي شرقي دجلة في العصور المبكرة وربما سكن بعضهم في الاجزاء الشمالية من بلاد آشور وذلك من قبل مجئ الآشوريين الىٰ المنطقة. وعند مجئ الآشوريين انسحب السوباريون الى المناطق الجبلية شرقي دجلة ولابد وان ترسب بعضهم واندمج مع الآشوريين. وقد ذكر السوباريون وذكرت بلاد سوبارتو في النصوص البابلية المتأخرة اشارة الى الآشوريين انفسهم وبلادهم في حين تحاشىٰ الآشوريون استعمال هذه التسمية ترفعاً واستهجاناً ربما لان بلاد سوبارتو كانت المكان الذي يؤتى منه بالعبيد الى درجة ان كلمة سوبارم غدت في اللهجة الآشورية مرادفة لكلمة عبد.[1] ان ما لدينا من معلومات عن السوباريين وبلاد سوبارتو قليل جداً ولايتعدى ذكرهم في النصوص المتأخرة ويظن انهم كانوا من جملة الاقوام الجبلية التي كانت تقطن في الجهات الشرقية من بلاد بابل وآشور.[2]

٢ – السومريون ولغتهم :

يمثل السومريون اول واقدم الاقوام العراقية القديمة التي ورد ذكرها في النصوص المسمارية ودونت لغتها، فلقد اثبتت الدراسات التي تمت على اقدم الالواح الطينية التي تحمل علامات صورية مفهومة اللغة، وهي الالواح التي ترقى بتأريخها الى دور جمدة نصر في النصف الثاني من العصر الشبيه بالكتابي، ان اللغة المستخدمة في تلك الالواح هي اللغة السومرية. وكان الرأي السائد لدى الباحثين حتى اواسط القرن الحالي أن السومريين يمثلون اقدم السكان الذين عاشوا في القسم الجنوبي من العراق ولذلك عرفت المنطقة باسمهم، بلاد سومر (بالسومرية Ki. en.gi وبالاكدية mat Sumerim) كما عرفت الحضارة التي نشأت وتبلورت في القسم الجنوبي من العراق منذ أول الاستيطان في هذا القسم وحتى أواخر الالف الثالث قبل الميلاد بالحضارة السومرية. الا ان الدراسات اللغوية والآثارية التي تمت بعد ذلك، ولاسيما دراسة الباحث لاندزبرجر التي سبقت

---

(١) انظر طه باقر المقدمة ٧٦ – ٧٨

(٢) حول السوباريين وبلادهم انظر:

Gelb, Hurrians and Subarians, 1944

انظر كذلك: جمال رشيد احمد، دراسات كردية في بلاد سوبارتو، بغداد، ١٩٨٤، ص ٣ ومابعدها.

الاشارة اليها ، جاءت برأي جديد مفاده أن السومريين لم يكونوا اول من استوطن ارض جنوب العراق بل سبقهم الى ذلك اقوام اخرى مؤلفة من الاقوام الجزرية القادمة من شبه الجزيرة العربية ومن عناصر سومرية واخرى غير معروفة لدينا بعد وقد اصطلح على تسمية تلك الاقوام بالفراتيين الاوائل. وتمثل الطبقات الأثرية الاولى في اقدم المدن العراقية الجنوبية ، وهي طبقات دور العبيد ، بقايا استيطان الفراتيين الاوائل .

وسواء اكان السومريون أول من استوطن ارض جنوب العراق ام لا فمن المؤكد الان أنهم اضطلعوا بدور رئيس في وضع اسس الحضارة العراقية القديمة التي نضجت وتبلورت في الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فإن الباحثين مازالوا غير متفقين في الرأي حول الاصل الذي تحدر عنه السومريون والموطن الاول الذي جاءوا منه . ولقد ظهرت بشأن ذلك آراء ونظريات متباينة . وربما كان السبب في تباين الآراء حول اصل السومريين ان الدراسات اللغوية التي تمت على اللغة السومرية بينت بأنها لغة منفردة بنفسها اي انه لايمكن تصنيفها وارجاعها الى احدى العائلات اللغوية المعروفة الان ، ومن بعد يصعب الاستعانة بها لمعرفة هوية الاقوام التي تكلمت بها وموطنها الاول ، كما ثبت لدى الباحثين ، كما سبق واشرنا ، عدم جدوى دراسة الهياكل العظمية المكتشفة التي اشارت الى اختلاط عرقي من اقدم العصور ، كما لايمكن الاستعانة بالسحن والملامح التي تظهر على تماثيل الاشخاص والمشاهده المنحوتة على الالواح الحجرية طالما كانت تتحكم فيها الطرز والمدارس الفنية السائدة في تلك الفترة .

وهكذا تباينت الآراء في اصل السومريين فمنهم من يرى أنهم جاءوا الى القسم الجنوبي من العراق من منطقة جبلية لذلك اقاموا معابدهم فوق مرتفعات اصطناعية هي الابراج المدرجة او الزقورات في حين يرى آخرون ان التشابه الحضاري بين حضارة السومريين وحضارة سكان بلاد ايران يشير الى ان السومريين جاءوا من تلك المناطق . وترى جماعة اخرى من الباحثين أن السومريين كانوا قد نزحوا أصلاً من وادي السند او جنوبي بلوجستان مستندين في ذلك الى التشابه الحضاري ايضاً والى غير ذلك من الآراء المتباينة عن اصل السومريين وموطنهم الاول . الا ان الرأي الاكثر قبولاً وانسجاماً مع مالدينا من ادلة آثارية ولغوية هو الرأي الذي جاء به الاستاذ المرحوم طه باقر وهو ان السومريين يمثلون احدى الجماعات المنحدرة من بعض الاقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ماقبل التأريخ البعيدة ، وانهم عرفوا باسمهم الخاص ، اي السومريين ، نسبة الى اسم الاقليم الذي استوطنوا فيه اخيراً في القسم الجنوبي من العراق ، أي ان التسمية لاحقة للاستيطان

ومشتقة من اسم موضح جغرافي ولا تحمل مدلولاً قومياً ، يؤيد هذا ان كثيراً من الاقوام التأريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين واسهمت في تكوين حضارته واحداث تاريخه سميت باسم المواضع التي حلت فيها مثل الاكديين نسبة الى مدينة (اكد) او (اكادة) العاصمة التي اسسها سرجون الاكدي ، والبابليين نسبة الى مدينة بابل والآشوريين نسبة الى مدينة آشور على ما يرجح .

اما حدود بلاد سومر فيمكن القول أنها تمثل القسم الجنوبي من جنوب العراق وقد ضمت المدن السومرية كلاً من : اريدو (ابوشهرين) واور واوروك (الوركاء) وكلاّب ولارسا (السنكرة) ولجش (تل الهباء) وجرسُ (تلّو) ونينا (سرغل) واومّا وشروباك (تل فارة) وادب (بسمى) ونپر (نفّر) وغيرها .

أما اللغة السومرية فهي أقدم لغة مدونة معروفة حتى الآن كما أشرنا ، ليس في العراق فقط بل وفي العالم قاطبة طالما كانت الالواح الطينية التي ترقى بتأريخها الى دور الوركاء ودور جمدة نصر (العصر الشبيه بالكتابي) والتي دونت عليها بالعلامات الصورية بعض العبارات السومرية هي اقدم نماذج الكتابة المعروفة حتى الآن . فالمعروف ان السومريين هم اول من ابتدع وسيلة للتدوين في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد دوّنوا بها لغتهم . ولابد أن كانت اللغة السومرية معروفة ومستخدمة في مدن جنوبي العراق ، اي في بلاد سومر ، من قبل أن تخترع الكتابة وتستخدم للتدوين بفترة من الزمن لانعرف طولها ، ثم بدأ تدوينها وغدت لغة البلاد الرسمية في مختلف المدن التي عاش فيها السومريون وظلت كذلك طوال عصور فجر السلالات (حدود ٣٠٠٠- ٢٤٠٠ ق.م) لاتنازعها لغة اخرى ، وقد دونت آلاف النصوص المسمارية باللغة السومرية في هذه الفترة . وعندما تأسست الدولة الاكدية عام ٢٣٧١ ق.م ، وكان مؤسسوها ينتمون الى الاقوام الجزرية الاكدية ويتكلمون اللغة الاكدية التي تختلف جذرياً عن اللغة السومرية ، بدأ استخدام اللغة الاكدية لغة رسمية في بلاد سومر واكد الى جانب اللغة السومرية ، وفي عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق.م) ، وهو عصر الانتعاش السومري الجديد كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد ، عادت اللغة السومرية واحتلت مكان الصدارة ثانية واصبحت اللغة الرسمية الوحيدة في البلاد ، الا ان نهاية سلالة اور الثالثة السياسية بعد فترة وجيزة سرعان ما افقدها هذا المركز . وهكذا بدأت اللغة السومرية بالافول وبدأ استخدامها يتقلص تدريجياً على حساب انتشار واتساع استخدام اللغة الاكدية ، وكان التحول الى اللغة الاكدية في مختلف المجالات الرسمية والخاصة تدريجياً وبطيئاً . ومع ذلك ، وعلى الرغم من

غياب السومريين من على المسرح السياسي نهائياً فان اللغة السومرية ظلت تستخدم لتدوين بعض النصوص الدينية والعلمية المهمة بل انها اكتسبت صفة مقدسة نوعا ما ، وكان على الكتبة ان يتعلموا اللغة السومرية الى جانب اللغة الاكدية خاصة وإن كثيراً من المفردات والعبارات والمصطلحات السومرية دخلت في اللغة الاكدية ، فكان على الكتبة ان يؤلفوا المعاجم اللغوية ثنائية اللغة التي تبين العلامات المسمارية ومعانيها في اللغة السومرية وما يقابلها في اللغة الاكدية ، كما دونت بعض النصوص المهمة باللغتين السومرية والاكدية وظل الكتبة يستنسخون النصوص السومرية المهمة ، ولاسيما الدينية والعلمية حتى من بعد زوال استخدامها لغة رسمية ولغة تخاطب باكثر من الف سنة . ثم بطل استخدام اللغة السومرية نهائياً ، وانطمرت النصوص السومرية تحت الاتربة في المواقع والمدن الاثرية القديمة وظلت في سبات عميق لاكثر من الفي سنة حتى آن لها ان تكتشف ثانية في القرن الماضي وبدأت محاولات الباحثين في قراءة النصوص المسمارية المكتشفة وتبين لهم بعد جهود مضنية استمرت لعشرات السنين ان النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد بابل وآشور مدونة اما باللغة السومرية او اللغة الاكدية وهما اللغتان الرئيستان اللتان استخدمتا في العراق القديم منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد فصاعداً .

اثبتت الدراسات اللغوية التي تمت على النصوص السومرية أن اللغة السومرية (بالسومرية eme. ku. ki. en. gc. ra وبالاكدية lišān Šumeri m) ، لغة منفردة لاتشبه اللغة الاكدية ولا غيرها من اللغات المحلية المعاصرة او التالية لها سواء في التراكيب ام القواعد ام المفردات ام حتى الاصوات ، فهي لاتنتمي الى أي من العائلات اللغوية المعروفة على الرغم من وجود بعض اوجه شبه بينها وبين عدد من اللغات المعروفة كاللغة التركية والهنغارية والقوقاسية ، الا ان هذا الشبه لايرقى الى درجة القرابة او الانتماء الى عائلة لغوية واحدة . وربما كانت اللغة السومرية تنتمي الى عائلة لغوية قديمة انقرضت جميع فروعها ، اي لغاتها ، من مضمار الاستخدام ، باستثناء اللغة السومرية ، وذلك من قبل ان تخترع الكتابة كوسيلة للتدوين ولحفظ اللغات للاجيال التالية . ولذلك فلا سبيل الى معرفة افراد تلك العائلة اللغوية وخصائصها لعدم توفر الادلة المادية عنها .

واللغة السومرية ، على كل حال ، لغة ملصقة Agglutinative ، ويقصد بظاهرة الالصاق فيها قابليتها على تكوين الفاظ ذات معانٍ جديدة وذلك بلصق كلمتين او اكثر مع بعضها البعض لتكوين كلمة جديدة . مثال ذلك كلمة لوجال التي تعني «ملك»

مؤلفة من لو بمعنى رجل وجال بمعنى عظيم فيصبح المعنى بعد الالصاق «الرجل العظيم» اي «الملك».

واللغة السومرية لغة غير قابلة للتصريف، اي انها ليست من اللغات المعربة كاللغة العربية، وجذورها بصورة عامة لاتتغير وتألف من مقطع واحد، وليس فيها اصوات حلقية او مفخمة (كالعين والغين والقاف والطاء والضاد...الخ)، ولا تفرق السومرية بين المذكر والمؤنث قواعدياً الا اذا كانت طبيعة الاسم مذكرة أو مؤنثة، الا انها تميز بين العاقل وغير العاقل، وليس فيها صيغة خاصة للمثنى.

لقد وصلت الينا اعداد كبيرة من النصوص السومرية من الفترات المختلفة تضمنت مختلف المواضيع كالوثائق الادارية والاقتصادية والنصوص الملكية والتأليف الادبية كالترانيم والتراتيل والمراثي والرقى والصوات والقوانين والامثال والاساطير...الخ. ولما طرأ على اللغة السومرية من تغييرات عبر العصور التي مرت بها واختلاف اللغة المدونة حسب الفترات الزمنية التي تعود اليها النصوص المكتشفة، فقد ميّز الباحثون عدداً من المراحل التي مرت بها اللغة السومرية استناداً الى النصوص المكتشفة، كما ميّزوا عدداً من اللهجات السومرية التي ورد ذكرها في النصوص منها اللهجة الاعتيادية، وهي اهم اللهجات، واللهجة الكبيرة أو العالية واللهجة المنتخبة اوالشاذة ولهجة السفّانة ولهجة رعاة الغنم ولهجة الكهنة. أما لهجة النساء eme.sal، او لغة العراك (لِشان صيلِتِ lisan sglti) فقد كانت تستخدم غالباً عند الحديث عن النساء ثم اصبحت لهجة الكتابات الادبية.[1]

٣- الاقوام الجزرية ولغاتها:

مصطلح الاقوام الجزرية مصطلح حديث الاستخدام نسبياً، وقد استخدم هنا بديلاً عن مصطلح الاقوام السامية للدلالة على جميع الاقوام التي خرجت من شبه الجزيرة العربية على مر العصور القديمة المتتالية على شكل هجرات كبيرة او صغيرة وبشكل سلمي غالباً واستوطنت في البوادي المجاورة على الاطراف الشمالية من شبه الجزيرة العربية

(١) حول اللغة السومرية، تأريخها وقواعدها انظر: فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية،بغداد، ١٩٧٢ وكذلك عامر سليمان، اللغة الاكدية، موصل، ١٩٩١، ص ٢٨- ٣٦.

وانتشرت في كل من بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام. اما في بلاد وادي الرافدين، فيؤلف الجزريون الذين بدأ قدومهم الى العراق واستيطانهم في بعض اجزائه منذ عصور قبل التاريخ واستمروا بهجرتهم اليه عبر العصور التأريخية القديمة، القسم الاعظم من الاقوام العراقية القديمة في الالفين الثاني والاول قبل الميلاد. وقد اطلق على المجموعات او الهجرات الكبرى التي استقرت في العراق واثرت في تأريخه تأثيراً واضحاً تسميات مختلفة نسبة الى موضع استقرارها او طريق مجيئها او اسم القبيلة الرئيسة فيها. فاذا استثنينا الاقوام الجزرية التي دخلت الى القسم الجنوبي من العراق في عصور قبل التأريخ، كما سبق ان أشرنا، وكونت القسم الاكبر مما عرف باسم الفراتيين الاوائل واستثنينا المجموعات الجزرية الاخرى التي لابد أن هاجرت الى القسم الوسطي والشمالي من العراق في عصور قبل التاريخ الا اننا لانعرف عنها اي شيء لان الكتابة لم تكن معروفة لتنقل الينا لغتها واخبارها، فان الاقوام الجزرية الاخرى تضم كلاً من الاقوام الاكدية، نسبة الى مدينة اكد، والامورية، بمعنى الغربية، نسبة الى طريق مجيئها الى ارض العراق عن طريق الغرب وهي ذات الاقوام التي سميت من بعد استقرارها في بلاد بابل باسم البابليين نسبة الى مدينة بابل وفي بلاد آشور باسم الاشوريين نسبة الى مدينة او بلاد آشور. اما الاقوام الجزرية التي اسست الدولة البابلية الحديثة فقد سميت بالاقوام الكلدية نسبة اسم القبيلة الرئيسة وهي قبيلة كلدو، واخيراً الاقوام الارامية. وتمثل القبائل العربية آخر المجموعات الكبرى التي استقرت في ارض الرافدين منذ عصور مبكرة ومازالت بعض القبائل العربية المتنقلة تتوغل الى داخل الاراضي العراقية وتستقر في القرى والمدن الحدودية. وهكذا كانت القبائل الجزرية الوافدة الى العراق في تزايد مستمر يقابل ذلك تناقص في عدد السكان من غير الجزريين، كالاقوام السومرية وغيرها، وغدا الجزريون يؤلفون القسم الاعظم من السكان، وكانت شبه الجزيرة العربية المعين الدائم الذي رفد ارض الرافدين بالعنصر البشري منذ اقدم العصور. ومن الملاحظ ان الاقوام الجزرية التي تتابعت في هجرتها الى ارض الرافدين وعلى الرغم من اختلاف الهجرات وتباين الفترات كانت تندمج بسهولة مع الاقوام الاخرى الموجودة في العراق وتنصهر في بوتقتها وهو امر ليس بالغريب طالما كانت جميعها تنتمي الى اصل واحد وتشترك في العديد من الخصائص والصفات الفكرية وفي العادات والتقاليد واللغة وغيرها. اما في بلاد الشام، فتمثل الاقوام الجزرية الاقوام الكنعانية والامورية والارامية والعربية اهم الاقوام التي استوطنت في بلاد الشام منذ اقدم العصور والى الان.

وتختلف الاقوام الجزرية عن الاقوام الاخرى التي كانت ، ومازال بعضها ، تقطن في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية والشمالية من العراق ، اي في ايران واسيا الصغرى ، حيث تنتمي معظم الاقوام الايرانية والاقوام الجبلية وكذلك غالبية الاقوام التي استقرت في اسيا الصغرى في العصور القديمة الى مجموعة الاقوام التي تسمى بالاقوام الهندية – الاوربية . التي انتشرت في كل من اوروبا واسيا الى تخوم الهند ، ومن هنا جاءت التسمية ، وتؤلف لغاتها ايضاً على اختلافها ما يعرف بعائلة اللغات الهندية – الاوربية ، وهي اكبر العائلات اللغوية المعروفة وتليها من حيث الأهمية والانتشار عائلة اللغات الجزرية (السامية) .

تشترك الاقوام الجزرية جميعها ، سواء تلك التي عاشت في العصور القديمة كالاقوام الاكدية والبابلية والاشورية والارامية ، ام التي لاتزال تعيش في المنطقة واهمها القبائل العربية ، بعدد من الخصائص والصفات اللغوية والجسمية والفكرية والحضارية تميزها عن غيرها من الاقوام وتؤكد انتماءها الى اصل مشترك واحد . واكثر ماتظهر اوجه التشابه بين الاقوام الجزرية في الناحية اللغوية حيث تتشابه اللغات الجزرية في العديد من الخصائص اللغوية سواء من حيث المفردات او التراكيب او الاساليب النحوية والادبية او الاصوات والقواعد والى غير ذلك . ولعل ابرز تلك الخصائص :

١ – ان اصول معظم المفردات اللغوية فيها ترجع الى جذر ثلاثي وان كان هناك اصول ثنائية اورباعية الجذر وتشتق من هذا الاصل البسيط صيغ وصور مختلفة فيها معنى الأصل وزيادة .

٢ – ان اللغات الجزرية تعتمد اعتماداً كبيراً على الاصوات الصامتة لا على الاصوات المتحركة ، اي ان المعنى الرئيس للكلمة يرتبط بالاصوات الصامتة فيها ، اما الاصوات المتحركة فانها تحدد المعنى المطلوب .

٣ – تضم اللغات الجزرية مجموعة من الاصوات الصامتة لاتوجد عادة في غيرها من اللغات وهي الاصوات الحلقية (العين والغين والحاء والهمزة والهاء) واصوات الاطباق (القاف والطاء والضاد والظاء) .

٤ – ان الفعل في هذه اللغات محدود الزمن فهو اما ماضٍ او حاضر .

٥ – ليس في اللغات الجزرية إلا جنسان هما المذكر والمؤنث .

٦ – هناك ظاهرة غريبة في اللغات الجزرية هي علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة الى العشرة ، اي ان العدد يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر .

٧- تتشابه اللغات الجزرية بصورة عامة بالاساليب النحوية ، ومن ذلك تصريف الافعال وميزانها واشتقاق الاسماء وتتشابه في مفردات اللغة الاساسية[١] .

اما بالنسبة الى الموطن الاول الذي تحدرت منه الاقوام الجزرية اهو شبه الجزيرة العربية ام غيرها ، فقد ظهرت بشأن ذلك اراء عدة ومتباينة إلا أن معظم الباحثين يتفقون الان على أن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الاول لجميع الاقوام الجزرية ومنها خرجت هجرات متتابعة منذ عصور قبل التاريخ استوطنت في اطراف الجزيرة في بوادي الشام والعراق وبوادي مابين النهرين العليا ثم تغلغلت الى المناطق الاخصب مثل وادي الرافدين وبلاد الشام وهاجرت بعضها الى وادي النيل. وكانت هجرة تلك الاقوام نتيجة طبيعية لتغير مناخ المنطقة من بعد العصور الحجرية القديمة وحلول الجفاف في المنطقة وقلة الموارد مما تعذر معه العيش في شبه الجزيرة العربية فاضطر السكان الى الهجرة[٢] .

وفيما يتعلق بتسمية الاقوام التي خرجت من شبه الجزيرة العربية وانتشرت في وادي الرافدين وبلاد الشام بالاقوام الجزرية وتسمية لغاتها باللغات الجزرية ، فهي تسمية حديثة كما سبق واشرنا حيث كانت هذه الاقوام تسمى بالاقوام السامية ولغاتها باللغات السامية، وكان المستشرق الالماني شلوتزر هو اول من استخدم مصطلح ساميين ولغات سامية للدلالة على هذه المجموعة من الاقوام وعلى لغاتها وذلك عام ١٧٨١ م مقتبساً التسمية مما ورد في كتاب العهد القديم (سفر التكوين - الاصحاح العاشر) عن انساب سام بن نوح ، وقد شاعت التسمية لسهولتها ومطابقتها لما ورد في كتاب العهد القديم ، كتاب اليهود المقدس. الا ان الدراسات الحديثة بينت عدم دقة هذه التسمية من الناحية التأريخية واللغوية لذلك فقد اتجه الرأي الان ولاسيما بين الباحثين العرب من العراقيين الى ايجاد تسمية بديلة اكثر دقة ، وعرضت اراء عدة منها تسميتها باقوام الجزيرة العربية[٣] او الاقوام العربية القديمة ولغاتها باللغات العربية القديمة[٤] والاقوام العربية او الاقوام الجزرية[٥] . وعلى الرغم من اننا نفضل تسمية هذه الاقوام بالاقوام العربية القديمة الا ان

١- حول تفصيل هذه الخصائص انظر: محمود حجازي ، علم اللغة العربية ، الكويت ١٩٧٩ ص ١٣٩ - ١٥٠ ورمضان عبدالتواب ، فصول في فقه اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ٣٠-٣١.

٢- انظر طه باقر، المقدمة ، ٦٦-٦٧.

٣- طه باقر، المقدمة ، ٦٥.

٤- عامر سليمان ، محاضرات في التأريخ القديم، موصل ، ١٩٧٨، ص ١٠٠.

٥- سامي سعيد الاحمد ، اللغات الجزرية ، بغداد، ١٩٨٠ ، ص ٣.

شيوع تسمية الاقوام الجزرية الان واستخدامها من قبل اكثر الباحثين العراقيين دفعنا الى استخدامها هنا منعاً لاي ارباك او التباس[1] .

وقد قسّم الباحثون عائلة اللغات الجزرية الى ثلاثة فروع رئيسة نسبة الى أماكن انتشارها وهي :

أ- الفرع الشرقي ويتمثل باللغة الاكدية ولهجاتها البابلية والآشورية والتي انتشرت في وادي الرافدين والأقاليم المجاورة .

ب- الفرع الغربي ويضم جميع اللغات الجزرية التي انتشرت في بلاد الشام وضمت اللغة الكنعانية بفروعها الفينيقية والإبلية والعبرية والاوغاريتية والمؤابية كما ضمت اللغة الارامية بفرعيها الشرقي والغربي .

ج- الفرع الجنوبي ويضم اللغة العربية الشمالية التي تسود فروعها ولهجاتها المختلفة الآن جميع الاقطار العربية ، واللغة العربية الجنوبية والتي ضمت المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية ثم اللغات الحبشية[2] .

اللغة الاكدية

فاللغة الاكدية اذن تمثل الفرع الشرقي من عائلة اللغات الجزرية فهي تنتمي بأصولها البعيدة الى ذات الشجرة والاصل الذي تنتمي اليه لغتنا العربية ، ولذلك كان التشابه بينها كبيراً وواضحاً ليس في المفردات اللغوية فحسب بل وفي التراكيب والصيغ والقواعد والاساليب والاصوات وغيرها من اوجه الشبه مع اختلافات في التفاصيل ، وربما كانت اوجه الشبه كبيرة لان اللغة الاكدية هي أقدم لغة جزرية مدونة حافظت على صيغتها الاصلية ، واللغة العربية الشمالية هي أكثر اللغات الجزرية محافظة على اصولها البعيدة وخصائصها العامة بحكم انتشارها في منطقة معزولة نسبياً ومحافظتها على خصائصها عبر العصور التالية بفضل القرآن الكريم . لذا فأن من الضروري دراسة اللغة الاكدية والتعرف عليها والالمام ببعض سماتها ، وتزداد هذه الاهمية بالنسبة الى العراقيين على وجه الخصوص لانها تمثل لغة الاجداد لاكثر من الفي سنة . إن دراسة اللغة الاكدية ستوضح لنا العديد من الظواهر والمفردات اللغوية العربية التي عجز عن توضيحها النحاة واللغويون العرب القدماء لعدم معرفتهم آنذاك باللغة الاكدية كما انها ستعيننا في بيان اصالة بعض الظواهر

(١) حول الآراء التي قيلت حول هذه التسمية والبدائل المقدمة : عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ٦٣- ٦٨ .

(٢) حول تفصيل ذلك انظر : المصدر السابق ، ٦٩- ٨٢ ، طه باقر ، المقدمة ، ٦٩- ٧٤ .

اللغوية في لغتنا العربية ، كظاهرة الاعراب مثلاً ، وتبين لنا اصول الوافر من المفردات اللغوية العربية الفصحى والعامية التي ظن البعض انها دخيلة على العربية او انها فارسية او رومية وبذلك سنتمكن من الرد بحزم على كل من حاول الدس على اللغة العربية واراد النيل منها ومن اصالتها بنسبة بعض ظواهرها ومفرداتها الى لغات اجنبية. وفضلاً عن ذلك ، فإن دراسة اللغة الاكدية ومعرفة مفرداتها ستوضح أن هناك كثيراً من المفردات اللغوية الدخيلة في لغتنا الفصحى والعامية والتي وصفت في المعاجم بأنها دخيلة من لغات اجنبية كالفارسية والرومية واليونانية ، هي من التراث اللغوي العراقي القديم ، أي انها ترجع باصولها الى اللغة السومرية او الاكدية الا انها انتقلت الى العربية اما بصورة مباشرة او عن طريق لغة اخرى ومن هذه المفردات اسماء معظم المدن والانهار القديمة واسماء أشهر السنة والوافر من المفردات اللغوية ذات العلاقة بالحرف والمهن الاساسية والآلات والادوات المستخدمة فيها. وقد انتقل بعض هذه المفردات عن طريق اليونانية او الفارسية الى اللغات الاوربية وما زال مستخدماً بها الى الآن كما سيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن التراث العراقي القديم[1].

بعض قواعد اللغة الأكدية

الاسم في اللغة الاكدية ، كما هو في اللغة العربية ، يحدد معناه بالجنس والعدد وحالة الاعراب. فمن حيث الجنس يكون الاسم اما مذكراً او مؤنثاً وليس هناك جنس محايد كالذي نجده في اللغات الاوربية. وقد يكون الاسم في حالة المفرد او الجمع او المثنى ، وحالات الاعراب في الاسم ثلاث فاما أن يكون مرفوعاً بالضمة او منصوباً بالفتحة او مجروراً بالكسرة ، او بالالف والنون والياء والنون. وتتبع الصفة الموصوف من حيث التذكير والتأنيث وتتفق معه من حيث العدد وحالة الاعراب.

وفي اللغة الاكدية انواع عدة من الضمائر فهناك الضمائر الشخصية المنفصلة والضمائر الشخصية المتصلة بالاسم او الفعل وقد يكون الضمير في حالة الرفع او النصب او الجر.

اما الفعل في اللغة الاكدية ، فينقسم من حيث قوة احرفه الى صحيح ومعتل ومن حيث اصله الى ثلاثي ورباعي ومن حيث معناه الى متعد ولازم. وللفعل في اللغة

---

(١) انظر: عامر سليمان ، التراث اللغوي ، في حضارة العراق ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ج ١ ، ٣٠٧- ٣١٧.

الاكدية اربع صيغ رئيسة هي الصيغة البسيطة والمضعفة والسببية وصيغة المبني للمجهول ويمكن اشتقاق صيغ ثانوية اخرى.

وللفعل في الاكدية اربعة أزمنة اضافة الى صيغة الامر هي المضارع (الحال) والماضي والتام والحالة المستمرة ويشبه الفعل في العربية من حيث التصريف.

وتتشابه المفردات الاكدية مع المفردات العربية تشابهاً كبيراً، فاصول وجذور معظم الافعال والمفردات اللغوية واحدة وإن اختلفت بعض الأصوات وفق قواعد صوتية معينة ومعروفة كتبدل الشين في الاكدية الى سين في العربية والضاد الى الصاد والغين الى خاء وسقوط الحروف الحلقية واحلال حروف العلة بدلاً منها، وقد يتغير معنى الكلمة تغيراً بسيطاً الا ان المعنى العام في اللغتين يبقىٰ واحداً. وفيما يأتي قائمة منتخبة من بعض الكلمات:

الكلمة العربية	الكلمة الأكدية	
أبٌ	أبُ	abu
أمةٌ	أمةُ	amtu
بيتٌ	بيتُ	bītu
قضى، دان	دانُ	danu
ذكر	زكارُ	zakaru
طاب	طابُ	ṭabu
ارسل، طرد	طَرادُ	ṭarādu
لب، قلب	لِبُّ	libbu
لسان، لغة	لِشانُ	lišānu
مرض	مَراصُ	marāṣu
نفس، حياة	نَپشتُ	napištu
حمى، نصر	نَصارُ	maṣāru
نهر	نارُ	nâru
نور	نورُ	nuru
فم، فو	پو	pû
مسك، ضبط	صَباتُ	ṣabātu

صغير	صِخرُ	sihru
كبر، ربّى	رُبو	rabu
كتب، سطّر	شَطِارُ	sataru
سلم	شُلامُ	salamu[1]

تأريخ اللغة الاكدية :

وهي اللغة الرئيسة الثانية والاوفر اهمية بين اللغات العراقية القديمة، استخدمت للتخاطب بين الاقوام الاكدية منذ فترة مبكرة، ربما منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد عندما حلَّ الاكديون في اواسط العراق في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد أكد، واصبحت لغة رسمية للبلاد عندما تأسست الدولة الاكدية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد (٢٣٧١ ق.م). وبدأ استخدام اللغة الاكدية يزداد تدريجياً بتوسع الدولة الاكدية وسيطرتها على مختلف انحاء العراق، وكان صراعها قوياً مع اللغة السومرية التي ظلت بالاستخدام لغة للتخاطب والتدوين ولغة رسمية، الا ان ذلك الصراع لم يكن صراعاً عرقياً او سياسياً. وكان لهذا الازدواج اللغوي نتائج مهمة، فالى جانب تأثير كل من هاتين اللغتين في الاخرى تأثيراً واضحاً، فقد كان لضرورة تعلم الكتبة لكلتا اللغتين اثره في تحفيزهم على تأليف القوائم والجداول بالعلامات المسمارية وما يقابلها من معانٍ باللغتين السومرية والاكدية وذلك لتعليم المبتدئين ومساعدة الكتبة، وقد تطورت تلك القوائم والجداول الى معاجم لغوية تعد بحق اول واقدم المعاجم اللغوية المعروفة حتى الآن.

ظلت اللغة الاكدية، ومعها اللغة السومرية، لغة البلاد الرسمية ولغة التخاطب والتدوين حتى في فترة الغزو الكوتي لبلاد سومر واكد، حيث لم يكن الكوتيون، كما سنرى فيما بعد، من اصحاب الحضارات المتطورة فكانوا يقلّدون السكان المحليين من سومريين واكديين في كل شيء فاستخدموا لغاتهم وكتبوا بكتابتهم المسمارية. ومنذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢٠٠٠ ق.م)، شاع استخدام اللغة الاكدية على نطاق اوسع وبدأت تزاحم اللغة السومرية وتزيحها من امامها في كثير من المجالات، حتى كانت الغلبة والسيادة لها في معظم النصوص المدونة في العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠–١٦٠٠ ق.م) لتزايد عدد المتكلمين بها من البابليين والآشوريين. ولانها استخدمت في كل من بلاد بابل وبلاد آشور وعلى مدى مايقرب من الفي سنة او يزيد، فقد أرتأى الباحثون التمييز بين لهجات المناطق المختلفة في العصور المتتابعة، فميزوا فيها لهجتين رئيستين هما

(١) المصدر السابق، ص ٣١٠

اللهجة البابلية واللهجة الآشورية ، وميزوا في كل من هاتين اللهجتين الرئيستين ثلاث لهجات أو أربعاً حسب العصور التأريخية التي ترقى اليها النصوص المسمارية المكتشفة ، فضمت اللهجة البابلية اربع فروع هي اللهجة البابلية القديمة والوسيطة والحديثة . والمتأخرة.أما اللهجة الآشورية فضمت اللهجة الآشورية القديمة والوسيطة والحديثة . اضافة الى ذلك ، كان هناك لهجات خاصة بمناطق معينة في فترات معينة مثل لهجة رسائل العمارنة في مصر ولهجة نصوص مملكة ماري في سوريا ولهجة نوزي شرقي دجلة.

والى جانب كل هذه اللهجات ، هناك اللهجة الاكدية القديمة ، وهي اولى اللهجات الاكدية المستخدمة في العراق وذلك في عهد الدولة الاكدية (٢٣٧١ – ٢٢٣٠ ق.م) ولأن اول النصوص المسمارية التي قرأها الباحثون المحدثون من الأوربيين كانت نصوصاً آشورية ، فقد سميّت لغتها باللغة الآشورية ، وعندما تبين بأن هناك نصوصاً كثيرة اخرى بابلية ، سميت لغتها باللغة البابلية ، الا ان الباحثين وجدوا ان التسمية المناسبة هي اللغة الاكدية ، باعتبار الاكديين اول من استخدم هذه اللغة في العراق ، وعدّوا الآشورية والبابلية لهجات متفرعة عن الفرع الاكدي . وظل العلم المختص بدراسة اللغة الاكدية يسمى بعلم الآشوريات .

ومع الاختلافات الموجودة بين اللهجات الاكدية المختلفة ، البابلية والآشورية ، فأنه من الممكن للباحث المتخصص في نصوص لهجة معينة ان يقرأ ويترجم نصوصاً معروفة بأي من اللهجات الاكدية الاخرى أن هو الم الماماً بسيطاً بخصائص تلك اللهجة ومميزاتها ، فالتباين الموجود بين اللهجات الاكدية هو بالتأكيد اقل بكثير من التباين الموجود بين اللهجات العربية العامية التي انتشرت في مساحة جغرافية اوسع بكثير من المساحة التي انتشرت فيها اللغة الاكدية ، كما انها ، اي اللهجات العربية ، تعرضت لمؤثرات داخلية وخارجية أجنبية كثيرة واحتكت بلغات أجنبية متعددة أثرت كثيراً في ابتعادها عن الاصل الذي تفرعت عنه .

ولم يقتصر استخدام اللغة الاكدية على بلاد بابل وآشور، بل انتشر استخدامها في فترات معينة في غالبية بلدان الشرق الادنى القديم ، فظهرت لهجات اكدية اخرى في تلك البلدان مثال ذلك بلاد عيلام ، جنوب غربي ايران ، واقليم كبدوكيا ، جنوب شرقي آسيا الصغرى ، وشمال سوريا في الالاخ وفي مملكة ماري على نهر الفرات وغيرها . وفي اواسط الالف الثاني قبل الميلاد شاع استخدام اللغة الاكدية بخطها المسماري على النطاق الرسمي حيث غدت اشبه باللغة الدبلوماسية التي كان يتفاهم بها الحكام الحثيون والميتانيون

والكشيون وغيرهم مع الفرعون المصري : يؤكد ذلك الرسائل الملكية المكتشفة في موقع العمارنة في مصر، وهي بقايا عاصمة الفرعون المصري اخناتون ، والمدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية على الواح صغيرة من الطين ، ويبدو أنه كان لكل من هؤلاء الملوك والحكام مترجمين يعرفون قراءة اللغة الاكدية وكتابتها واستخدامها للتفاهم مع الملوك الآخرين الذين لايعرفون لغتهم المحلية وهو دليل واضح على عمق تأثير ورسوخ الحضارة العراقية القديمة خارج حدود بلاد بابل وآشور الاصلية .

٤ – اقوام اخرى

اضافة الى الاقوام السومرية والاقوام الجزرية التي استقرت في العراق في العصور التأريخية واستخدمت لغاتها السومرية والأكدية بلهجاتها المختلفة ، فقد دخل العراق اقوام كثيرة اجنبية قادمة بالدرجة الاولى وعن طريق الغزو من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية . فمنذ اقدم العصور التأريخية نقرأ في جداول الملوك السومريين وفي غيرها من النصوص السومرية والاكدية عن غزو الاقوام الكوتية لبلاد سومر واكد وسيطرتها على الاوضاع السياسية فيها لفترة تناهز المائة سنة ، والكوتيون من الاقوام القبلية الهمجية القادمة من المناطق الجبلية الى الشرق من بلاد سومر واكد . وفي حدود ١٥٩٥ ق.م . هجم الجيش الحثي على بلاد بابل قادماً من آسيا الصغرى ماراً بسوريا ، وانهى حكم اخر ملوك سلالة بابل الاولى ثم عاد وانسحب وفسح المجال للاقوام الكشية ، وهي الاخرى قبائل جبلية جاءت من منطقة جبال زاجروس ، لاحتلال بلاد بابل ، وقد تم لها ذلك وظلت تحكم في بلاد بابل لاكثر من اربعمائة سنة وفي هذه الفترة احتلت الاقوام الحورية اجزاء كبيرة من بلاد آشور وسيطرت عليها لمدة مائة سنة تقريباً في حين تغلغلت بعض الاقوام الحورية الاخرى في الجهات الشرقية من بلاد آشور في منطقة كركوك (ارابخا قديماً) واثّرت في حياة السكان فيها ، وبعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م . ونهاية الحكم الوطني في العراق ، وقع العراق ، بلاد بابل وآشور ، ولفترة طويلة جداً تحت الاحتلال الاجنبي الفارسي الاخميني والمقدوني والسلوقي والفرثي والساساني بالتعاقب (من ٥٣٩ ق.م – ٦٣٧م) الى أن تم تحرير العراق وعاد اليه ثانية حكمه الوطني ودخل في حظيرة الاسلام . كما كان للآراميين دور كبير ووجود واضح ولاسيما خلال الالف الاول قبل الميلاد على اطراف بلاد آشور الغربية ، وفي الوقت نفسه كانت القبائل العربية تنتشر في الجهات القريبة من العراق وتستوطن في بعض المدن مثل مدينة الحضر وهكذا كان لطبيعة ارض العراق الجغرافية وعدم وجود حواجز طبيعية

تمنع توغل الاقوام وقيامها بالغزو او الهجرة ، اثر كبير في التركيب السكاني وفي دخول اقوام عدة الى ارض الرافدين الا انها لم تكن مؤثرة تأثيراً كبيراً حيث كانت غالبية السكان من الاقوام السومرية والجزرية ، لذا كانت اللغات السائدة هي اللغات السومرية والاكدية في الالف الثالث والثاني قبل الميلاد ثم تفردت اللغة الاكدية بلهجاتها البابلية والآشورية . أما لغات الاقوام الاجنبية التي غزت العراق ، فقد كان تأثيرها محدوداً وبسيطاً . فالملاحظ ان معظم الاقوام التي قدمت من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية من العراق كانت اقل حضارة من سكان وادي الرافدين ، لذا كان دورها الحضاري محدوداً جداً حتى في الحالات التي سيطرت فيها على الحكم في العراق ، او على الحكم في اجزاء مهمة منه ، بل ان الملاحظ ان تلك الاقوام كانت تندمج بالحضارة المحلية وتعيش في ظلها دون محاولة تغييرها على الرغم من أنها كانت هي الغالبه والمسيطرة على الاوضاع السياسية ، ويبدو ان ذلك كان امراً طبيعياً طالما كانت حضارة العراق القديم اكثر تقدماً وأصالة واعمق رسوخاً في النفوس . وكان من جملة العناصر الحضارية الكثيرة التي اخذتها الاقوام الغازية والمحتلة عن العراقيين القدماء هي اللغة والكتابة ، فلم تدون لغتهم ولم تستخدم الا في نطاق ضيق جداً لذا لم نعثر على نصوص مدونة بلغات تلك الاقوام الى درجة اننا لانعرف الآن اي شيء عن لغة الكوتيين او لغة الكشيين مثلاً . وفي الالف الاول قبل الميلاد ، استخدمت اللغة الفارسية واللغة اليونانية ولكن على نطاق ضيق ايضاً وفي دائرة المتنفذين والحكام ثم شاع استخدام اللغة الارامية ، وهي لغة ترجع باصولها الى عائلة اللغات الجزرية ، وقد لقيت ترحيباً واسعاً لانها استخدمت خطاً ابجدياً بسيطاً في تدوينها على عكس الخط المسماري الصعب ذي العلامات الكثيرة . اما اللغة العربية ، لغة القبائل العربية المنتشرة في انحاء العراق ولاسيما في جهاته الغربية ، فقد ظلت لغة تخاطب وتفاهم محلية الا انها لم تجد طريقها للتدوين الا في فترة متأخرة نسبياً.[1]

(١) حول تفصيل ذلك انظر: عامر سليمان ، اللغة الأكدية ، ص ٤١- ٤٢.

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٦

العراق في عصوره التاريخية المبكرة

(الألف الثالث قبل الميلاد)

عصر فجر السلالات Early Dynastic Period

اعقب العصر الشبيه بالكتابي الذي شهد طلائع الحضارة الناضجة وبداية استخدام الكتابة عصر اصطلح على تسميته بعصر فجر السلالات Early Dynastic Period ، اشارة الى السلالات الاولى المعروفة التي حكمت في القسم الجنوبي من العراق ، وهو يمثل اولى العصور التأريخية الفعلية حيث زاد استخدام الكتابة فيه ودونت بواسطتها نصوص كثيرة ومهمة . ومن الباحثين من عرّف العصر نسبة الى الوضع السياسي العام الذي ساد المنطقة في هذه الفترة والذي تميز بوجود عدد من دول المدن السومرية او السلالات السومرية التي كانت كلاً منها تحكم في مدينة من المدن السومرية الرئيسة فأطلق عليه اسم عصر دول المدن السومرية Sumerian City States ، كما سُمّي العصر ايضاً بعصر ماقبل سرجون Pre – Sargonic Period ، لأهمية حكم سرجون الذي يؤشر نهاية هذا العصر. وهناك تسميات اخرى للعصر اقل شيوعاً منها (عصر اللبن المستوي المحدّب) Plano – Convex bricks اشارة الى استخدام نوع خاص من اللبن في هذا العصر فقط ، كما سمّاه البعض بعصر لجش ، نسبة الى احدى دول المدن السومرية المهمة التي قامت فيها

سلالة قوية هي سلالة لجش الاولى شغلت الفترة الأخيرة من العصر وأظهرت التنقيبات الأثرية آثارها ونصوصها المسمارية المهمة.[1]

وقد يثار التساؤل حول اسباب استخدام هذه التسميات المختلفة من قبل الباحثين وعدم الاتفاق على اسم واحد، كما هي الحال بالنسبة للعصور الأخرى التالية، ويبدو ان الجواب على ذلك ان هذا العصر على الرغم من طول فترته وازدهار حضارته وأهميته بالنسبة لتأريخ العراق القديم، الا أنه كان عصراً يكتنفه الغموض وتقل عنه المصادر الموثوقة من جهة كما اتسمت المنطقة خلاله بالتجزئة والانقسام وتعدد مراكز القوى ولم تظهر فيه دولة قوية موحدة كي يسمى العصر باسمها من جهة ثانية. وفضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من أن العصر يمثل بداية العصور التأريخية الفعلية فإنه لم يشهد تغييرات حضارية جذرية او ابتكارات مهمة كابتكار صناعة الفخار او استخدام المعادن او اختراع الكتابة او غير ذلك مما قد يعطيه صفة خاصة يختلف فيها عن العصر السابق او اللاحق.

وكما اختلف الباحثون في تسمية العصر، كذلك اختلفوا في تحديد بدايته وللأسباب نفسها التي ذكرناها. فمنهم من الحق الطور الأول من هذا العصر بالعصر الشبيه بالكتابي السابق له، ومنهم من عدّ بدايته بعد دور جمدة نصر مباشرة. وهكذا حددت بداية العصر بحدود عام ٢٩٠٠ ق.م او ٢٨٥٠ ق.م. أو ٢٨٠٠ ق.م، في حين يتفق الباحثون على جعل نهايته عند قيام الدولة الأكدية عام ٢٣٧١ ق.م (حسب التسلسل التأريخي المتبع في هذا الكتاب).

ولطول الفترة الزمنية التي شغلها العصر (اكثر من اربعة قرون)، فقد تعارف اكثر الباحثين على تقسيمها الى ثلاثة اطوار او عصور ثانوية استنادا الى بعض الخصائص والسمات الحضارية التي اتسمت بها الآثار المكتشفة في مدن ومواقع هذا العصر وخاصة اشكال وطرز الأواني الفخارية والأختام الاسطوانية وما تحمله من مشاهد والطرز المعمارية

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٢٥٢ – ٢٥٣.

الخاصة بالمعابد والقصور وغيرها من الطرز الفنية التي ميّزت فن النحت البارز والمدور والنقش على الحجر او المعدن واشكال واحجام الرقم الطينية وغيرها من الخصائص الحضارية. وقد عرفت الاطوار الثلاثة بعصر فجر السلالات الأول والثاني والثالث على التوالي وخصص لكل منها مايقرب من ثلث المدة الكلية المخصصة لعصر فجر السلالات بكامله.

مصادر معلوماتنا عن عصر فجر السلالات :

ان معلوماتنا عن عصر فجر السلالات ماتزال ، كما اشرنا ، قليلة نسبياً ولا تتناسب وطول فترة واهمية العصر من الناحيتين التأريخية والحضارية وبصورة خاصة بالنسبة لتأريخ السومريين والعناصر الحضارية التي ازدهرت في عهدهم ، فالمعروف ان اول ظهور السومريين عنصراً رئيساً في المنطقة على مسرح الأحداث السياسية والحضارية كان في هذا العصر. وقد امدتنا التنقيبات الاثرية التي اجريت في معظم المدن السومرية في بلاد سومر وبعض المدن والمواقع خارج بلاد سومر، كمواقع منطقة ديالى وبلاد آشور، بمعلومات وافية عن المنجزات الحضارية التي حققها السومريون خلال هذا العصر مكّنت الباحثين من رسم صورة عامة وتقريبية عن الحياة السومرية في عصر فجر السلالات ، الا ان معظم مالدينا من معلومات يخص الجانب المادّي من الحياة دون الجانب الفكري والثقافي نظراً لقلّة النصوص المسمارية المكتشفة والتي قد تعكس لنا هذا الجانب من الحياة. ومع اننا حصلنا على عدد كبير من النصوص المسمارية من هذا العصر فإن معظمها كان ذا طابع اقتصادي او مدرسي ولا يعكس لنا سوى جوانب محددة من الحياة انذاك.

أما معلوماتنا عن الوضع السياسي في بلاد سومر في هذا العصر وعن تأريخ السلالات والحكام والملوك الذين تتابعوا على حكم المدن السومرية ، فمستمدة بالدرجة الاولى من نصوص مسمارية دونت في فترة لاحقة ، اي انها دونت بعد عصر فجر السلالات بعدة قرون ، وتأتي في مقدمتها مايعرف عادة بجداول او اثبات الملوك السومريين التي دونت اقدم نسخة منها في عهد سلالة اور الثالثة (٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق. م) والتي سبق وتحدثنا عنها في الفصل السابق ، والنص المعروف بنص تمّال Tummal الذي دوّن هو الآخر في فترة مقاربة من تأريخ تدوين جداول الملوك. اضافة الى ذلك ، فإننا نمتلك نصوصاً مسمارية معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية وتخص الفترة الأخيرة من عصر فجر السلالات تلك هي النصوص السومرية المكتشفة في مدينة لجش والتي تعود الى عهد سلالة لجش الاولى

والتي زودتنا بمعلومات وافية عن هذه السلالة التي لم تذكر اصلاً في جداول الملوك السومريين لأسباب غير معروفة لدينا بعد.

ومع اهمية جداول الملوك السومريين بالنسبة لتأريخ هذه الفترة السياسي، فإن طبيعة هذه الجداول ووقت تدوينها وما يؤخذ عليها من مآخذ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك، يقلل من اهميتها. وفضلاً عن ذلك، فإن ماجاء فيها من معلومات عن تأريخ السلالات كان مقتضباً ويكتنفه الغموض والمبالغات ولا يتضمن سوى اسماء عدد من الحكام وسني حكم كل منهم. ومع ذلك، تبقى جداول الملوك مصدرنا الوحيد احياناً عن بعض السلالات التي حكمت في بلاد سومر ولاسيما في الفترات المبكرة من عصر فجر السلالات. اما نص تمّال فإن ماجاء فيه من معلومات تأريخية تكمل احياناً ماورد في جداول الملوك وتملأ النقص الموجود فيها بخصوص اسماء بعض الحكام الذين حكموا في مدينة نفر، وكان نص تمّال قد دوّن في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتضمن اسماء عدد من حكام عصر فجر السلالات وازمنة حكم بعضهم بالنسبة لبعض من الذين قاموا بتجديد معبد تمّال في نفر.[1]

ويعد نص انتمينا حاكم مدينة لجش الذي حكم في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد من اقدم المدونات التأريخية المعروفة لدينا حتى الآن واكثرها اهمية حيث أنه يسبق جداول الملوك السومريين عدة قرون من حيث تأريخ التدوين. ويروى لنا هذا النص تأريخ الصراع الذي خاضته مدينة لجش ضد مدينة اوما المجاورة لها لما لايقل عن ثلاثة اجيال الى ان تم عقد الصلح بينها والذي توّج بابرام معاهدة، تعد الاولى من نوعها، ثبتت الحدود بين المدينتين.

الأوضاع السياسية والعامة في عصر فجر السلالات:

تؤكد التنقيبات الأثرية التي اجريت في مدن العراق المختلفة والتي ضمت آثاراً من عصر فجر السلالات وكذلك النصوص المسمارية المعاصرة للعصر أو المتأخرة عنه على الرغم من قلّتها، أن القسم الجنوبي من العراق كان ينعم في هذه الفترة بنوع من الازدهار الحضاري والرفاه الاقتصادي كما يستدل على ذلك من نشاط الحركة العمرانية واتساع ونمو المدن التي كانت قد نشأت منذ العصر الشبيه بالكتابي حتى غدت مراكز حضارية مهمة. وقد رافق الازدهار الحضاري والنشاط العمراني زيادة ملحوظة في كثافة سكان المدن

---

(١) انظر، Kramer, S.N., The Sumerian Chicago, 1963, p.46.

ونشاط في الزراعة والتجارة ، ولاسيما الخارجية ، وحركة دائبة في تنظيم مشاريع الري التي اعتمدت عليها الزراعة في بلاد سومر واقامة السدود اللازمة لدرء اخطار الفيضانات السنوية ، وقد تطلب كل ذلك جهوداً كبيرة وتعاوناً مستمراً من السكان فكان ان تطورت الادارات المحلية التي كانت تشرف على شؤون المدينة الى حكومات منظمة يشرف على ادارة كل منها مجلس المدينة العام المؤلف من مجلسين احدهما خاص بالمسنين من سكان المدينة وضم الآخر شباب المدينة من القادرين على حمل السلاح. ويبدو ان المجلس العام كان ينتخب احد اعضائه ويخوله الصلاحيات اللازمة لادارة شؤون المدينة وكان هذا المنتخب يسمى ابن En ، اي السيد. وكان هذا النظام من ادارة المدن هو النواة الذي انبثقت عنه دول المدن السومرية حيث اصبحت كل مدينة رئيسة من المدن الكثيرة المنتشرة في بلاد سومر مركزاً لدولة صغيرة تضم المدن الصغيرة والقرى والارياف والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة الرئيسة ، وقد اصطلح الباحثون المحدثون على تسمية تلك الدول الصغيرة بدول المدن السومرية. وكان لكل دولة حدودها الاقليمية ومصادر مياهها الخاصة بها وحاكمها المستقل عن غيره ونظمها وقوانينها. كما كان لكل دولة معبدها الرئيس والهها الحامي ونظامها الكهنوتي ، وكان للمعبد وكهنته دور كبير في حياة المدينة الاقتصادية والثقافية الى جانب دوره في الحياة الدينية. وتشير الأدلة المتوفرة الى وجود عدد من دول المدن هذه في آن واحد ، اي ان بعضها كان يعاصر بعضها الآخر احياناً ، وقد يزيد عدد دول المدن القائمة في فترة معينة عن عشر دول ، وان كانت جداول الملوك السومريين قد ذكرت لنا اسماء المدن والسلالات التي حكمت في هذا العصر على نحو متعاقب وكأنَّ بلاد سومر كلها كانت تحت حكم سلالة واحدة وان الحكم لاينتقل الى السلالة الاخرى الا بعد القضاء على السلالة الحاكمة بقوة السلاح ، على حد تعبير جداول الملوك.

وتشير الأدلة الآثارية المتوافرة ، ولاسيما من دولة لجش ، ان المدن الرئيسة في بلاد سومر والتي كانت مراكز لدول صغيرة كانت في نزاع وحروب مستمرة. ويبدو ان من اسباب تلك الحروب اضافة الى الرغبة الذاتية الكامنة عند حكام المدن للاستحواذ على المزيد من الأراضي ومصادر المياه ، هو ضرورة السيطرة على الطرق التجارية ، عماد الحياة الاقتصادية من بعد الزراعة. كما كان هناك اتجاه سياسي عام غلب على سياسة الحكام والملوك البارزين الذين شعروا بانفسهم القوة يهدف الى ضم بعض الدول والمدن الصغيرة الى الدولة الأكبر والأقوى لزيادة قوتها وجعلها قادرة على تنفيذ مشاريع الري الكبيرة وضمان امن وسلامة القوافل التجارية من جهة وفي الوقت نفسه قادرة على مواجهة اي اعتداء خارجي قد تتعرض له المنطقة ولاسيما من جهاتها الشرقية. وقد حدثت بعض

المحاولات بهذا الاتجاه ونجح عدد من الحكام في ضم اراضي الدول المجاورة الى اراضيهم ، كما حدث ذلك بالنسبة لميسيلم ملك كيش وميسانيبدا مؤسس سلالة اور الاولى ، واي انّاتم حاكم لجش ، ولقب مثل هؤلاء الحكام انفسهم بلقب ملك الذي كان يدل على ان سلطاته قد تعدت حدود دولته ، الا ان المحاولة الناجحة في توحيد عدد من دول المدن واقامة دولة القطر الموحدة حدثت في اواخر عصر فجر السلالات عندما تمكن لوجال زاجيزي ، حاكم اوما من تحقيق ذلك وأسس اول دولة موحدة ضمت تحت لوائها معظم الدول السومرية التي كانت قائمة آنذاك ، الاّ انه لم يستمر بالحكم طويلاً وقبل ان يتمكن من تثبيت سلطانه ظهر زعيم آخر ، حقق وحدة ارض الرافدين من اقصاها الى اقصاها واقام اول دولة موحدة من نوعها ذلك هو سرجون الأكدي الذي عد عهده نهاية لعصر فجر السلالات وبداية لعصر جديد هو عصر الدولة الأكدية .

السلالات الحاكمة في عصر فجر السلالات :

سبق أن اشرنا الى مصادر معلوماتنا عن الأوضاع السياسية والعامة في عصر فجر السلالات وبيّنا ان النصوص المسمارية المتأخرة والمتمثلة بجداول الملوك السومريين وبنص تمّال ، هي مصدرنا الإساس في التعرف على الأحوال السياسية ، يضاف الى ذلك النصوص المكتشفة من عهد سلالة لجش . واستناداً الى هذه المصادر يمكن رسم الصورة التقريبية التالية عن السلالات الحاكمة في عصر فجر السلالات بصورة عامة دون الدخول في التفاصيل الاّ اذا كان هناك اهمية خاصة لحدث معين او ظاهرة معينة .

لقد حاول الكتبة السومريون الذين عاشوا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد (حدود ٢٠٠٠ ق.م) ان يدونوا تأريخهم من اقدم العصور التي تصوّروا وجودها . ولم يكن لدى اولئك الكتبة من النصوص القديمة او الأدلّة الاثارية مايعتد به بل كان جلّ اعتمادهم على ماسمعوه من روايات وما تناقلته الأجيال من حكايات وما اشارت اليه بعض النصوص المقتضبة من احداث وقعت في الأزمنة الماضية . وتعد جميع هذه المصادر من المصادر غير الموثوقة والتي لايمكن الاعتماد عليها على وفق أسس وقواعد كتابة التأريخ في الوقت الحاضر ، ومع ذلك ، فقد كانت المصادر الوحيدة المتيسرة لدى الكتاب السومريين الذين كتبوا اول المدونات التأريخية المعروفة حتى الآن .

لقد قسّم السومريون تأريخهم الطويل الى قسمين رئيسين تفصل بينها حادثة مهمة هي حادثة الطوفان ، فذكروا لنا في جداول الملوك التي دونوها اسماء المدن والحكام في فترة ماقبل الطوفان ومن ثم اسماء المدن والحكام ومدد حكم كل ملك في فترة مابعد الطوفان .

ومع اننا نعرف معرفة مؤكدة ان دول المدن التي حكمت في عصر فجر السلالات كان يعاصر بعضها بعضها الآخر ، كلا او جزءاً ، اي انه كان في بلاد سومر عدة دول مدن حاكمة في آن واحد ، فإن معلوماتنا عن هذا التعاصر وعن تفاصيل الأحداث والعلاقات السياسية التي كانت بين هذه الدول قليلة وان جلّ اعتمادنا في ذلك هو على ماورد في جداول الملوك السومريين التي ذكرت اسماء المدن والسلالات الحاكمة وكأنها متعاقبة الواحدة بعد الاخرى ولم تشر الى اي تعاصر بينها مما اربك الباحثين في وضع تسلسل دقيق لحكم الملوك والسلالات .

لقد تصور السومريون ان نظام الحكم الملكي هو نظام الهي وظنوا ان شاراته المتمثلة بالتاج والصولجان والقياس كانت موضوعة في السماء امام الاله آنو ، وان الآلهة من اجل ان تحكم البشر وتدير شؤونهم ، انتخبت احدهم وفوضته حكم البشر بالنيابة عنها ، وهذه النظرة الى نظام الحكم والى الملك وسلطاته المستمدة من كونه نائبا للآلهة على الارض ظلت ملازمة لنظام الحكم في العراق في العصور القديمة . وهكذا كان بدء حكم الملوك على الأرض . وقد عبّرت جداول الملوك السومريين عن ذلك بالقول ان الملكية :

"هبطت من السماء ، فكانت اريدو مركز الملوكية وحكم في اريدو الولم ملكاً (مدة) ٢٨٠٠٠ عام ..." وكان ذلك من قبل ان يحدث الطوفان . وتتابع جداول الملوك ذكر اسماء الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في خمس مدن سومرية ، وقد بلغت مدة حكمهم جميعاً ٢٤١٠٠٠ عام ومن ثم حدث الطوفان .

ومن الواضح ان هناك مبالغة كبيرة في تحديد سنوات حكم ملوك ماقبل الطوفان وربما يمكن تفسير ذلك بأنه ناتج عن رغبة كتبة الجداول اضفاء صفة القدسية والأعمار غير الاعتيادية لاولئك الملوك القدماء الذين عاشوا في الأزمنة القديمة جداً مضافاً الى ذلك جهلهم بأسماء الملوك الاخرين الذين حكموا قبل وبعد الملوك المذكورين وفي الفترات بينهم . ومن المؤكد ان السنة المذكورة في الجداول هي السنة القمرية ، او الشمسية نفسها التي ذكرت في الجداول عند تثبيت حكم ملوك مابعد الطوفان حيث جاءت عدد سنوات حكم اواخر الملوك مطابقة لما لدينا من معلومات مؤكدة عنهم من مصادر اخرى .

ومن الجدير بالاشارة ان السومريين ظنوا أن الملكية اول مانزلت في مدينة اريدو، ولقد اثبتت التنقيبات الاثرية ان اقدم آثار الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق يتمثل بالطبقات السفلى من موقع اريدو، اما آخر مدينة حكمت قبل الطوفان فهي مدينة شروباك التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش بأنها موطن بطل الطوفان (اوتو-نبشتم)[1].

ثم جاء السرفان (وجرف البلاد)، كما تقول جداول الملوك، وتعد هذه اول اشارة مدونة يرد فيها ذكر الطوفان كما تؤكد أن الطوفان كان حدثاً بلغ من عظم الاثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين القدماء بحيث ان منظمي جداول الملوك جعلوا من هذا الحدث حدّاً فاصلاً في تأريخهم يفصل بين عهد ماقبل الطوفان وعهد مابعد الطوفان. وتشير جميع الأدلة المتوافرة ان الطوفان المذكور في جداول الملوك والطوفان المذكور في ملحمة جلجامش وفي عدد من القصص والملاحم السومرية والبابلية الاخرى يشير الى طوفان واحد وانه كان "حدثاً تأريخياً واقعياً" حدث في طيات الماضي البعيد، الا اننا لانتمكن بما لدينا من معلومات في الوقت الحاضر من تحديد زمن حدوثه او مدى حدوده وان كان هناك من يرى أنه حدث بين دور جمدة نصر وعصر فجر السلالات الأول في حين يرى المنقب وولي بأن الطوفان حدث في حدود ٤٠٠٠ ق.م. وقد يرى آخرون انه حدث في عصور سحيقة في القدم.[2]

وبعد ان انحسرت مياه الطوفان، عادت الملكية وهبطت من السماء ثانية وقد حلّت هذه المرة في مدينة كيش، كما تذكر الجداول، وخصص للسلالة التي حكم فيها ٢٣ ملكاً، او ٢٢ ملكاً، مدد حكم مبالغ فيها ايضاً ولكن بنسبة اقل من المبالغة التي نجدها في مدد حكم ملوك قبل الطوفان. وتؤكد الأدلة المتوافرة من مصادر اخرى ان اسماء بعض ملوك كيش كانوا شخصيات تأريخية وانهم حكموا في الواقع في حدود الطور الثاني من عصر فجر السلالات. ومما تجدر ملاحظته ان مدينة كيش تقع في بلاد أكد وليس في بلاد سومر، اي في البلاد التي كان الاكديون، اي الجزريون، يؤلفون العنصر الغالب فيها، يؤكد ذلك ان مالايقل عن اثني عشر ملكاً من ملوك هذه السلالة جاءت اسماؤهم من اشتقاق اكدي، مما يشير الى الاختلاط العنصري بين السومريين والاكديين. كما تجدر

---

(١) انظر طه باقر، المقدمة، ص٢٩٨- ٢٩٩.

(٢) انظر طه باقر، المقدمة، ٣٠٠- ٣٠١.

الاشارة الى ان الجداول تذكر ان الملك قبل الأخير كان قد قهر بلاد عيلام ، اما ابنه أجا ، وهو الملك الاخير ، فقد ثبت من نص آخر انه حكم في عصر فجر السلالات الثاني ، كما تنسب الى هذا الملك القصة القصيرة التي تدور حول النزاع والحرب بينه وبين جلجامش خامس ملوك الوركاء والتي انتهت ، كما سيأتي ذكر ذلك ، بالمصالحة . واخيراً لابد من الاشارة الى ميسيلم الذي يرى الباحثون انه حكم في عصر فجر السلالات الثاني او الثالث وانه ربما كان ملكاً على كيش واور وقد ورد ذكر ميسيلم في النص التأريخي الشهير الذي خلّفه لنا انتمينا حاكم لجش ودون لنا فيه اخبار نزاع لجش مع المدينة المجاورة اوما وكيف ان ميسيلم الذي حكم قبل انتمينا بعدة اجيال تدخل في فض النزاع وتحديد الحدود واقامة مسلة بين المدينتين وقد لقب بأنه ملك كيش ، الا ان اسمه لم يرد في جداول الملوك السومريين ضمن قائمة اسماء ملوك كيش وربما كان اسمه مذوناً في الجزء البسيط المخروم من الجداول .

ومن السلالات المهمة الاخرى التي حكمت في عصر فجر السلالات وجاء ذكرها في جداول الملوك السومريين هي سلالة الوركاء الاولى والتي كان خامس ملوكها جلجامش معاصراً لآخر ملوك سلالة كيش الاولى أجا ، كما كان من حكام هذه السلالة اينمركار ، وهو الحاكم الثاني فيها والذي ورد ذكره في نزاعه مع حاكم اراّتا احد حكام الاجزاء الغربية من ايران وانتصاره عليه . اما جلجامش ، فيبدو من المؤكد انه هو بطل ملحمة جلجامش الشهيرة نفسه ، ويعزى له ايضاً أنه هو الذي بنى اسوار مدينة الوركاء .

اعقب سلالة الوركاء سلالة اور الاولى ، ومما يلاحظ في مدد الحكم المخصصة لملوك هذه السلالة انها ضمن مدى الاعمار الاعتيادية ، وقد ذكرت جداول الملوك اسماء ملوك هذه السلالة وايدت ذلك بعض النصوص المعاصرة الاخرى ، ومنهم مؤسس السلالة ميسا ينبدا . وبعد سلالة اور الاولى تعدد جداول الملوك اسماء احدى عشرة سلالة اخرى ذكرت بشكل متعاقب حتى يبدأ حكم السلالة السرجونية ، وكان من بين السلالات المذكورة سلالات كان مركز حكمها في بلاد عيلام ، مثل مدينة اوان ومدينة خمازي ، التي ذكرت الجداول ان الملكية انتقلت اليها ، ويبدو ان كتبة الجداول لم ينظروا الى انتقال الملكية الى مدينة تقع في بلاد عيلام على ان ذلك انتقال الى بلاد اجنبية ربما لأن بلاد عيلام تمثل في الواقع امتداداً طبيعياً للسهل الرسوبي ولا يفصلها عن بلاد سومر اي حاجز اضافة الى احتمال تواجد السومريين والاكديين ومنذ فترة مبكرة في بلاد عيلام[1] .

---

(١) حول تفصيل ذلك انظر عامر سليمان ، بلاد عيلام وعلاقتها بتأريخ العراق القديم ، مجلة آداب الرافدين ، ١٤ ، ١٩٨١ ، ص ١٧٩ - ١٨١ .

ومما يلاحظ على مدد الحكم التي خصصتها جداول الملوك للملوك والحكام الاوائل أنها كانت خيالية ، وكلما تقدمنا بالزمن نحو تأريخ تدوين الجداول كلّما قلّت المبالغة في تحديد سنوات الحكم الى ان تصبح معقولة ثم متطابقة مع ما هو متوافر لدينا من معلومات عن الملوك والحكام من مصادر اخرى .

سلالة لجش الاولى

الى جانب ما ذكرته جداول الملوك السومريين من سلالات حكمت في بلاد سومر لانعرف عن بعضها سوى اسماء ملوكها وسنوات حكمهم غير الدقيقة وما أشار اليه نص تمّال من اسماء ، فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت في مدينة تلّو في منطقة الغرّاف عن آثار سلالة مهمة كانت قد قامت في مدينة لجش وما حولها من مدن صغيرة في الطور الثالث من عصر فجر السلالات في الفترة ٢٤٥٠–٢٣٠٠ ق.م. تقريباً لم تذكر اصلاً في جداول الملوك السومريين لأسباب غير معروفة لدينا . وكانت دولة لجش هذه تضم عدة مدن اهمها ثلاث مدن متجاورة وهي مدينة جرسُ ومدينة نينا ومدينة لجش ، وتقع اراضيها الزراعية في وسط سهل خصب في منطقة الشطرة والغرّاف . والى الشمال من لجش وعلى بعد خمسين كيلومتراً تقع مدينة مهمة اخرى هي مدينة اومّا . وكان قد اسس سلالة لجش الاولى هذه اور– نانشة الذي خلّف لنا آثاراً كثيرة ، وتدل الآثار المكتشفة وبعض النصوص التذكارية على ازدهار حضاري ورخاء اقتصادي عاشت في ظله دولة لجش ولاسيما في الجزء الاول من تاريخها الطويل ، بحيث نشطت فيها الحركة العمرانية وشيدت المعابد والأسوار ونحتت التماثيل والمنحوتات والنصب واهتم حكام السلالة بمشاريع الري ، كما نشطت التجارة ، وخاصة التجارة الخارجية ، وكان كل ذلك من النتائج المتوقعة للانتصارات المتلاحقة التي حققها حكام لجش على الدول او المدن المجاورة ، ولاسيما مدينة اوما الى درجة ان بعض حكام لجش لقبوا انفسهم بلقب لوجال ، اي ملك بدلاً من لقب انسي اي حاكم . وتمدنا النصوص المسمارية المكتشفة ولاسيما النص الطويل والمهم الذي خلّفه لنا انتمينا ، احد حكام لجش ، بمعلومات تفصيلية عن الحروب والمنازعات والمناوشات الحدودية المستمرة التي كانت بين دولة لجش وجارتها اومّا والتي استمرت ، كما يذكر انتمينا ، لاكثر من ثلاثة اجيال اي لما يناهز المائة سنة . وكانت اسباب تلك الحروب اقتصادية بالدرجة الاولى وهي الرغبة في السيطرة على المزيد من الأراضي السهلة والخصبة الواقعة بين [illegible] وعلى قنال الماء الذي يفصل بينها . وقد خلّد لنا احد حكام لجش

اخبار انتصاره على اومّا على هيئة نحت بارز على مسلة من الحجر عرفت لدى الباحثين بمسلة النسور او النّصبان [1] في حين يذكر لنا انتمينا ، الذي جاء الى الحكم في فترة تالية ، أنه كان قد وضع حدا للنزاع بين الدولتين وذلك بابرام معاهدة صلح قام بدور الوسيط فيها حاكم يسمى ميسيلم ، وهو حاكم دولة ثالثة يظن انها كيش ، كما سبق أن أشرنا. وقد ثبتت بنود المعاهد على مسلات من الحجر وضعت على الحدود بين الدولتين، غير ان حاكم اومّا نقض المعاهدة وازال المسلات وشن حرباً على لجش واستمرت الحرب بين الدولتين سجالاً الى ان تمكن انتمينا من تحقيق الانتصار، وان كان مؤقتاً كما اثبتت ذلك الاحداث التالية ، على مدينة اومّا.

ان اهمية نص انتمينا كبيرة جداً فاضافة الى كونه من اقدم النصوص التأريخية المتوفرة لدينا حتى الان فهو يسجل لنا اخبار اقدم معاهدة دولية معروفة لدينا كانت قد عقدت بين دولتين مستقلتين بتوسط دولة ثالثة. وتعد هذه المعاهدة من اولى الجهود البشرية في تنظيم العلاقات الدولية ووضع الضوابط اللازمة لها بحيث تعترف بها الاطراف المعنية ، لذا كانت دراستها على قدر كبير من الاهمية عند دراسة تأريخ القانون الدولي [2] ، كما ان النص يشير الى بعض الطقوس والمراسيم والاجراءات التي كانت تتبع عند عقد المعاهدات ، منها وضع مسلات على الحدود وترك ارض حاجزة بين حدود الدولتين ، اي ارض حياد ، واداء القسم بالالهة القومية والى غير ذلك من المراسيم التي ظلت ملازمة لعقد المعاهدات في الفترات التالية.

لم تستمر انتصارات لجش العسكرية طويلاً حيث مالبث ان دبّ الضعف فيها فحلّت فيها الازمات الاقتصادية وقلت الغنائم والضرائب التي كانت تتدفق عليها وربما رافق ذلك اهمال الحكام ادامة مشاريع الري ، وللتعويض عن النقص في الواردات اتجه الحكام الى زيادة مختلف انواع الضرائب وابتداع ضرائب جديدة للمحافظة على حياة البذخ والاسراف التي اعتادوا عليها في عهود الانتصارات ، كما يفهم ذلك من نص اصلاحات اوروانيمجينا (اوروكاجينا) ، فعم الارتباك الاقتصادي وشاع الفساد فقامت ثورة في البلاد كان من نتائجها ان تولى الحكم والسلطة حاكم جديد يظن انه كان من طبقة الكهنة ، وهو اوروكاجينا ، الذي بادر باصدار اصلاحات اقتصادية واجتماعية تعد

(١) وهي مسلة اي- انّا- تم وقد سميت بهذا الاسم لان نسوراً او عقباناً صورت في المسلة وهي تنهش جثث القتلى من جيش اوما ، وقد مثل حاكم لجش بعدته الحربية مرة واقفاً ومرة في عربته الحربية قائداً لجيشه المنتصر كما مثل اله المدينة الحامي تنجرسُ وقد نشر شبكته العظيمة فاصطاد بها جيش الاعداء (انظر تفصيل ذلك طه باقر، المقدمة ، ٣١٦).

(٢) انظر عامر سليمان ، العلاقات السياسية الخارجية ، في حضارة العراق ، ج٢ ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ١١٤-١١٧.

الاولى من نوعها في التأريخ وقد ترك لنا نصاً مفصلاً يتحدث فيه عن محاولاته اصلاح الاوضاع المتردية التي وجدها عند توليه الحكم وعدّد المفاسد التي كانت تعم البلاد بتسع نقاط رئيسة ثم ذكر الاجراءات الجذرية التي اتخذها للقضاء على تل المفاسد ، كما سيأتي تفصيل ذلك في مكان آخر[1] . غير ان الفترة القصيرة التي حكم فيها اوروكاجينا ، وهي ثماني سنوات ، لم تتح له فرصة تنفيذ تلك الاصلاحات واصلاح الاوضاع الفاسدة والمتردية حيث مالبث ان ظهر في مدينة اوما ، عدوة لجش التقليدية ، حاكم قوي طموح عاد فشن حرباً جديدة على لجش وقضى على حاكمها بصورة سريعة ومفاجئة مستغلاً اضطراب الاوضاع الداخلية في لجش وهكذا امكن القضاء على دولة لجش القوية والمهمة ، وقد كان لهذه الحادثة اثر وصدى كبير في النفوس ، ولاسيما الكتاب والادباء ، مما دفع احدهم الى تأليف رثاء مؤثر لمدينة لجش ولمعابدها مبيناً فيه ماحل بها وبأهلها من دمار اثر هجوم حاكم اومّا ، وهو لوجال زاجيزي عليها ، وهو اسلوب ادبي ظل شائعاً في رثاء الدول والممالك القوية التي كانت تسقط لاسباب مختلفة .

كان لوجال زاجيزي من الشخصيات التي اثبتت مقدرتها السياسية والعسكرية وكفاءتها العالية ، ويبدو انه كان يطمح الى توحيد جميع دول المدن السومرية في دولة واحدة ، وهو الاتجاه الذي غلب على سياسة الملوك البارزين في الفترات التالية لذلك ايضاً . وهكذا تمكن من بعد قضائه على دولة لجش ان يضم الى حدود مملكته كل من مدينة الوركاء وكيش ونفر وادب واريدو ولقب نفسه لذلك بملك الاقليم ، اي ملك البلاد lugal kalama ويلقب ملك سومر وملك كيش وملك الوركاء ، وكلها القاب تشير الى سعة نفوذه وسلطانه . وقد حاول ايضاً ان يمد نفوذه الى مناطق بعيدة اخرى حيث ادعى انه وصل بنفوذه من البحر الاعلى (البحر المتوسط) الى البحر الاسفل (الخليج العربي) حيث : "جعل الاله انليل جميع البلدان ، من البحر الاسفل على طول نهري دجلة والفرات الى البحر الاعلى تقع تحت سلطته" .

ولايعرف الى اي مدى كان لوجال زاجيزي صادقاً في ذلك وربما قصد بذلك ان تجارته المباشرة قد وصلت الى هناك حيث ان ليس هناك مايؤكد امتداد حدود مملكته الى تلك المناطق البعيدة[2] .

---

(١) انظر عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٣- ١٤٦ وكذلك الفصل الخاص بالقانون من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) انظر: جين بوترو وآخران ، ص : ٩٣- ٩٤ .

ويعد النص المسماري الذي خلّفه لنا لوجال زاجيزي اقدم واطول كتابة ملكية من نوعها واكثرها تفصيلاً حكم لوجال زاجيزي ٢٥ سنة ، كما تذكر جداول الملوك تمكن خلالها من اقامة دولة مركزية موحدة ضمت ولأول مرة في تاريخ بلاد سومر ، عدداً كبيراً من المدن السومرية ، وكانت محاولته هذه في توحيد جميع انحاء بلاد سومر وأكد تمهيداً لقيام دولة القطر الموحدة في عهد سرجون الاكدي الذي استطاع ان ينتزع السلطة والزعامة ويؤسس اول دولة موحدة مبتدأ حكمه عام ٢٣٧١ ق . م . وتؤشر نهاية حكم لوجال زاجيزي نهاية عصر فجر السلالات .

اهم مواقع عصر فجر السلالات :

تشير التنقيبات الأثرية التي قامت بها البعثات الاجنبية والعراقية في ارجاء العراق ، ان حضارة عصر فجر السلالات كانت قد ازدهرت في العديد من المناطق والمواقع وانها لم تقتصر على القسم الجنوبي من العراق ، اي بلاد سومر واكد ، وان كانت في هذا الجزء من العراق اكثر ازدهاراً ، بل ان آثار حضارة العصر وجدت في مواقع كثيرة في منطقة ديالى وشرقي دجلة وفي بلاد بابل وغربي نهر الفرات وفي بعض اجزاء سوريا ايضاً . فكما هو معروف ان بعض المواقع والمدن القديمة ، مثل اريدو واور وكيش ونينوى وماري وغيرها ، بدأ استيطان الانسان فيها منذ بداية العصر الشبيه بالكتابي او قبل ذلك ، واستمر استيطان الانسان فيها في العصور التالية ، بل ان بعضها ضم طبقات سكنية من العصر الحجري المعدني والعصر الشبيه بالكتابي وعصر فجر السلالات والعصور التأريخية التالية حتى العصور المتأخرة ، مثل مدينة نينوى مثلاً ، وبعضها الآخر بدأ الاستيطان فيه منذ عصر فجر السلالات ، كمدينة آشور . وقد اظهرت التنقيبات الاثرية في كل من مدينة اريدو . وتل العبيد واور وشروباك وكيش ونفر ومنطقة لجش عن طبقات سكنية تعود الى هذا العصر وكشفت فيها عن بقايا معابد وزقورات وقصور وابنية اخرى ومقابر مهمة كما كشف عن طبقات سكنية من هذا العصر في كل من تل اسمر وتل خفاجي وتل اشجالي وتل اجرب كشف فيها عن معابد مهمة جداً ولاسيما في تل خفاجي اما في الاجزاء الشمالية من العراق ، فقد عثر على آثار عصر فجر السلالات في كل من اشور التي تبين بانها كانت قد

اسست في هذا العصر، ونينوى وفي مدينة ماري (تل الحريري) على نهر الفرات شمال غربي البوكمال في الحدود السورية الان اضافة الى موقع جغار بازار جنوب غربي القامشلي وتل براك جنوب شرقي جغار بازار في سوريا[1] ، اضافة الى عدد آخر من المواقع الكثيرة الواقعة في بلاد اشور غربي نهر دجلة.

١ – حول تفاصيل نتائج التنقيبات في هذه المواقع انظر طه باقر، المقدمة، ٢٦٢–٢٨٥.

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول

٧ العراق في ظل دولة القطر الواحدة

١ – العراق في ظل الدولة الأكدية
(٢٣٧١ – ٢٢٣٠ ق. م)[١]

هوية الاقوام الاكدية :

تعد الدولة الاكدية اول دولة مركزية انضوت تحت لوائها جميع مدن العراق من اقصى شماله الى اقصى جنوبه ، بل وامتدت بسعة نفوذها وسيطرتها الى خارج حدود بلاد بابل واشور الاعتيادية فشملت اجزاء من بلاد الشام واسيا الصغرى وضمت بلاد عيلام جنوب غربي ايران مما دفع بعض الباحثين الى وصفها بانها اول امبراطورية عرفها التأريخ القديم .[٢] وبذلك حق لاحد ملوكها تلقيب نفسه بلقب "ملك الجهات الاربعة" اضافة الى الالقاب الاخرى كلقب "ملك القطر" او "ملك بلاد سومر" الذي كان قد استخدم

---

(١) لقد اعتمدنا في تثبيت تواريخ حكم الملوك والسلالات في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد على التأريخ التي وضعها سدني سميث Sidny Smith واتبعها من بعده ساكز في كتابه عظمة بابل في حين ان هناك مدرسة اخرى تعطي تأريخ مختلف ولاسيا بالنسبة الى الالف الثالث قبل الميلاد والى عهد حمورابي ، انظر OppenheimL. Ancient Mesopotomia Chicago, 1964 .

(٢) انظر مثلا ساكز، عظمة بابل ، ص ٦٩ ، طه باقر، المقدمة ، ٣٥٢ ومابعدها .

من قبل حكام اخرين. وقد حكمت الدولة الاكدية مدة تقرب من قرن ونصف قرن، حكم خلالها عشرة ملوك[٣] اشتهر منهم الخمسة الاوائل.

اسس الدولة الاكدية زعيم من الاقوام الجزرية التي كانت تعيش في العراق، ولاسيما في قسمه الوسطي، منذ اقدم عهود الاستيطان في القسم الوسطي والجنوبي في العراق، وكان الموطن الاول للاقوام الجزرية هذه هو شبه الجزيرة العربية كما تؤكد ذلك جميع الدراسات الحديثة، وبعد ان هاجرت الاقوام الجزرية الى وادي الرافدين وتغلغلت بين السكان، عاشت حياة سلمية جنباً الى جنب مع بقية الاقوام التي كانت تعيش في العراق وفي مقدمتها الاقوام السومرية، واختلطت معها واندمجت فيها، الا انها كانت، كما يبدو، تتكلم بلغتها الجزرية الخاصة التي عرفت فيما بعد باللغة الاكدية.ان معلوماتنا عن الاقوام الجزرية في العراق قبل تأسيس الدولة الاكدية في حدود ٢٣٧١ ق.م. قليلة جداً حيث انها لم تظهر على مسرح الاحداث السياسية او تتسلم السلطة كما انها لم تستخدم لغتها الاكدية للتدوين فتخلف لنا نصوصا خاصة بها تعكس لنا جوانب من حياتها. ومع ذلك، يمكن تلمّس وجودها، ولاسيما في الجزء الوسطي من العراق في المنطقة التي عرفت فيما بعد ببلاد اكد، من خلال تأثيراتها الحضارية واللغوية على الاقوام السومرية الى درجة جاءت اسماء بعض الملوك السومريين وهي تحمل صيغاً جزرية (اكدية).

---

(٣) وهم: سرجون ٢٣٧١-٢٣١٦ ق.م
ريموش ٢٣١٥-٢٣٠٧
مانشتوسو ٢٣٠٦-٢٢٩٢
نرام-سين ٢٢٩١-٢٢٥٥
شاركالي شاري ٢٢٥٤-٢٢٣٠
ايكبكي- تانيؤم- ايمن ٢١٩٢-٢١٩٠
دودو ٢١٨٩-٢١٦٩
شودورل ٢١٦٨-٢١٥٤
انظر ساكز، عظمة بابل، الملحق، ص ٦.

تمكن لوجال زاجيزي حاكم مدينة اوما ، كما سبق أن اشرنا ، من القضاء على مدينة لجش ، عدوّة اوما التقليدية ، وعلى عدد اخر من المدن السومرية وضمها الى حدود مملكته المتنامية ، فأنجز بذلك اول محاولة ناجحة في توحيد عدد من دول المدن السومرية . ويبدو انه كان في هذه الفترة بالذات احد زعماء الاقوام الجزرية ، وهو الذي عرف فيما بعد باسم سرجون ، يعمل ساقياً في بلاط ملك كيش المدعو اور– زبابا أ. وقد استغل سرجون ارتباك الاوضاع السياسية في المنطقة الذي احدثته حروب لوجال زاجيزي ، وانشغال لوجال زاجيزي نفسه في حروبه مع المدن الجنوبية ، فاعلن نفسه ملكاً وذلك في حدود عام ٢٣٧١ ق . م ، في ظروف غامضة لانعرف عنها الا القليل . وتشير جداول الملوك السومريين الى ان سرجون لم يقض على ملك كيش حيث تتابع على الحكم في مدينة كيش خمسة ملوك اخرين من بعد اور–زبابا ثم انتقلت الملكية ، كما تذكر جداول الملوك ، الى مدينة اوروك التي حكم فيها ملك واحد ، هو لوجال زاجيزي ، مدة ٢٥ عاماً ثم دحرت اوروك ونقلت ملوكيتها الى اكد .

وقد يفسّر هذا الغموض الذي يكتنف مجيئ سرجون الى الحكم وبناؤه عاصمة جديدة له هي مدينة اكد ، انه كان قد استقل عن ملك كيش واسس سلالة جديدة تحكم في مدينة اكد وتنافس مع السلالة الحاكمة في كيش وغيرها من السلالات الحاكمة في المدن السومرية المختلفة . وقد تسمى مؤسس السلالة باسم سرجون الذي يلفظ باللغة الاكدية على هيئة شرُّم كين ، اي "الملك الصادق" ، او "الملك الثابت" ، ولايعرف اسمه الحقيقي قبل ان يصبح ملكاً .

اتخذ سرجون مدينة اكد عاصمة لملكه ، ونسب هو ومن تبعه من الاقوام الجزرية اليها فعرف بسرجون الاكدي وعرف اتباعه بالاكديين كما عرفت المنطقة التي تواجدوا فيها والمتمثلة بوسط العراق حاليا باسم بلاد اكد mat Akkadim التي يقابلها باللغة السومرية ki. uri . ولايعرف حتى الان اين تقع بقايا مدينة اكد بالضبط حيث لم يكشف عنها بعد الا انه يمكن القول بشيء من الثقة إنها تقع في موضع مابين المحمودية وبابل وربما اسست بالقرب من كيش او بالقرب من مدينة سپار او انها اسست في موضع مدينة بابل نفسها . وبالتأكيد فان سرجون قد اختار لها موقعاً متوسطاً من البلاد وقريباً من شواطئ نهر الفرات .

شخصية سرجون :

كانت شخصية سرجون من بين الشخصيات القليلة البارزة التي عرفت في تأريخ العراق القديم، كشخصية حمورابي وسنحاريب وآشوربانيبال ونبوخذنصر، فقد كان قائداً عسكرياً اضافة الى انه كان ادارياً من الطراز الاول اثبتت انجازاته العسكرية والادارية ذلك، ان هذا الوصف لايمثل رأي المؤرخين المحدثين فقط بل ان هناك العديد من القصص والروايات القديمة التي نسجت حول شخصية سرجون ومنجزاته الى درجة ان اثنين من الملوك الاشوريين تسموا باسم سرجون، ربما تيمناً به، وذلك بعد اكثر من الف سنه من تأريخ حكمه.

لقد دأب سرجون، وكذلك فعل عدد من الملوك الاكديين الاخرين، على تخليد اعمالهم ومنجزاتهم المهمة، ولاسيما العسكرية منها، باقامة التماثيل والنصب والمسلات بتلك المناسبات ووضعها في معبد الاله انليل في مدينة نيبور (نفّر)، الا اننا لم نعثر على تلك التماثيل والنصب بل إن احد الكتبة القدامى، ولاسباب غير معروفة حتى الان، قام بعد عدة قرون من تأريخ وضع التماثيل والمسلات في المعبد باستنساخ جميع الكتابات المدونة عليها وتدوينها على رقيم طين تم الكشف عن معظم اجزائه، فأعاننا ذلك على رسم صورة تقريبية للوضع العام في العراق في فترة الدولة الاكدية. اضافة الى ذلك امكن الكشف عن عدد من النصب والمسلات والتماثيل الاكدية في مواقع عدة اكملت الصورة التي رسمت عن تأريخ سرجون وتأريخ الدولة التي اقامها. كما ان هناك بعض النصوص الاخرى التي دونت في العصر الاشوري الحديث (حدود ٩١١-٦١٢ ق.م)، اي بعد حكم سرجون بمئات من السنين، تشير الى بعض القصص الخيالية الخاصة بمولد سرجون وارتفاع شأنه حتى صار ملكاً على اكد. فقد ذكر احد نصوص العصر الاشوري الحديث (من القرن السابع قبل الميلاد) قصة مولد سرجون وجاءت القصة بضمير المتكلم حيث تقول على لسان سرجون :

«إن امي كانت كاهنة (؟) ولم اعرف ابي وكان متجولاً، واصلي من مدينة آزوفيرانو على الفرات. وحملت بي امي ووضعتني سّراً، فاخفتني في سلة من الحلفاء مقيّرة، وغطتها ورمتني في الماء الذي لم يغرقني. وحملني الماء الى «اكي»، ساقي الماء، فانتشلني «اكي» وربّاني واتخذني ولدا وعينني بستانيا عنده. وبينما كنت اعمل بستانياً احبتني عشتار وتوليت الملوكية طوال اربع و... سنة ...».

تشير القصة الى ان أم سرجون كانت قد ولدته سّراً ، ربما لانها كانت كاهنة عليا (إنتوم entum) من الكاهنات اللائي لم يكن يسمح لهن بالزواج والإنجاب ؛ الا انها حملت به سراً وولدته سّراً فاضطرت الى التخلص منه فوضعته في سلة ورمته في النهر ، وقد اشار بعض الباحثين الى الشبه الكبير بين ماورد في هذه القصة وبين ماوردفي قصة مولد موسى عليه السلام[1] وربما يمكن تفسير التشابه في اسلوب التخلص من الوليد ان الطريقة المعتادة التي كان الناس يتخلصون بواسطتها من الاطفال غير المرغوب فيهم ، لاي سبب كان ، هو وضع الطفل في سلّة من القصب وتركها تطفو في النهر ، نهر النيل او الفرات اودجلة او غيرها ، طالما كانت معظم المدن تقع على شواطئ الانهار ، املاً في ان ينتشل الطفل احد ممن يعمل او يقف على ضفاف النهر. وفضلاً عن ذلك لابد من الاشارة ان النص الذي اورد القصة الخاصة بسرجون الاكدي كان قد دوّن في القرن السابع قبل الميلاد ، اي بعد تأريخ ولادة النبي موسى بأكثر من ستة قرون كاملة (عاش النبي موسىٰ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، وان الآشوريين كانوا على اتصال دائم ووثيق بوادي النيل وبلاد الشام في هذه الفترة وربما كانوا قد تعرفوا على قصة مولد موسى ، كما وردت في التوراة ، وتأثروا بها ونسبوا قصة مشابهة لها الى شخصية سرجون الاكدي ، تمجيداً له ورغبة في اضفاء القدسية على ولادته وحياته ثم ملوكيته.

انجازات سرجون العسكرية :

تبقى المعلومات المتوافرة عن حكم سرجون وحكم خلفائه قليلة على الرغم مما دونه بعض الكتبة القدماء عنها وما استنسخوه من نصوص قديمة ، الا انها لاتعطي تفاصيل الأحداث التي وقعت في عهد الدولة الأكدية وتسلسلها وربما ستكشف لنا التنقيبات المقبلة عن مدينة اكد نفسها وما يتوقع ان تضمه من آثار ونصوص مهمة.

حكم سرجون ٥٤ سنة ، وهي فترة حكم طويلة جداً مما يشير الى انه لابد أن نصب نفسه ملكاً على بلاد اكد وهو شاب في مقتبل العمر وانه ظل يحكم ملكاً حتى جاوز السبعين من عمره. وتشير كل المعلومات المتوافرة ان طموحات سرجون كانت بعيدة وان السياسة التي وضعها واراد تحقيقها كانت تهدف ، كما يبدو ، الى توحيد جميع المدن السومرية والأكدية في دولة مركزية واحدة والى اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على اي تمرد

---

(١) انظر: طه باقر، المقدمة ، ٣٦٠

او عصيان او ثورة ضد الحكومة المركزية اضافة الى ضمان امن وسلامة الطرق الموصلة الى مصادر المواد الخام ، وكان عليه ان يعمل على بناء جيش قوي قادر على تنفيذ هذه السياسة وعلى مواجهة اخطار الغزو المتوقع دائماً ، ولاسيما من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية لبلاد اكد.

ومع قلة المعلومات المتيسرة يمكن القول ان سرجوناً حاول ، بعد ان استقل عن ملك كيش واعلن نفسه ملكاً ، تثبيت مركزه بالسيطرة على المناطق الواقعة الى الشمال والشمال الشرقي من بلاد اكد ، ومن ثم بدأ بمنازلة خصمه الرئيس لوجال زاجيزي وتمكن منه في حرب خاطفة وهجوم مباغت ثم شرع بعد ذلك باخضاع المدن السومرية الواحدة تلو الاخرى وضمها الى حدود مملكته حتى تم له توحيد جميع بلاد سومر واكد.ووصل الى سواحل الخليج العربي ، حيث قام ، كما يذكر احد النصوص ، «بغسل اسلحته في مياه الخليج» . ويبدو ان نفوذ سرجون امتد ليشمل بعض بلدان الخليج وما وراءها حيث يشير احد النصوص الى ان سفن ميلوخا وسفن ماكان وسفن دلمون اصبحت تلقي مراسيها في مرفأ مدينة اكد . فاما ميلوخا فربما كانت تعني بلاد الصومال او الحبشة في حين تتفق الآراء على ان ماكان هي عمان وان دلمون هي البحرين . وقد تطلب تحقيق وحدة بلاد سومر واكد من سرجون الدخول ، كما يذكر احد النصوص الاكدية ، في اربع وثلاثين معركة انتصر فيها على جميع المدن وضمها الى حدود مملكته :

"لقد انتصر سرجون ، ملك كيش ، في اربع وثلاثين معركة (على المدن الممتدة) الى حافة البحر ، وهدم اسوارها ..." .

توجه سرجون بعد ذلك بنشاطاته العسكرية الى الجبهات الاخرى حيث تذكر النصوص انه ضم مدينة اتو (هيت) وماري (تل الحريري) وجبال الارز (جبال الامانوس) وجبال الفضة (جبال طوروس) وبارموتي (جنوب جبيل) ومدينة إبلا (شمال سوريا) . كما تذكر نصوص اخرى انه وصل الى جزيرة كفتارة ، وهي جزيرة كريت .

أما بالنسبة للقسم الشمالي من العراق اي بلاد آشور ، فيبدو ان سرجون قد ضمه الى حدود مملكته في وقت مبكر من حكمه حيث اظهرت التنقيبات التي اجريت في كل من نينوى وآشور ، وهما اهم المدن الآشورية ، انها كانتا من المراكز الادارية الاكدية المهمة ، كما كشفت التنقيبات عن بقايا ابنية كانت مكرسة للملوك الاكديين وعلى قطع فنية تحمل طابعاً اكدياً واضحاً منها الرأس البرونزي الذي يظن انه يمثل رأس سرجون او رأس حفيده ترام . سين .

وتؤكد نشاطات سرجون العسكرية وضمه هذه المدن الكثيرة الى حدود مملكته المتنامية السياسة العامة التي اتبعها الملوك الاكديون والتي وضع خطوطها الرئيسة سرجون والهادفة الى اقامة دولة القطر الواحدة التي كانت تدار في عهد سرجون من العاصمة اكد. ولضمان نجاح تنفيذ هذه السياسة الطموحة والمحافظة على حدود المملكة الجديدة التي امتدت بنفوذها الى مناطق بعيدة، كان على سرجون ان يواجه التحديات التي جاءته من جهة الشرق. فلقد كانت الجهات الشرقية من بلاد سومر وأكد والتي ضمت بلاد عيلام والمناطق الجبلية المتاخمة تكوّن خطراً متزايداً على الدولة الاكدية. فلقد كانت الحدود الشرقية ومنذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد مرتعاً للأقوام الجبلية التي كانت تثير القلاقل والاضطرابات في بلاد سومر وتتحين الفرص للقيام بغزو المدن السومرية والأكدية. وعندما قامت الدولة الأكدية ووحّدت جميع المدن تحت لوائها، كان لابد لها من مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والحد من غارات الاقوام الجبلية على المنطقة الحدودية فقام سرجون بالسيطرة على القبائل المناوئة في سلسلة من الحملات العسكرية وفرض سيطرته عليها وعلى بلاد عيلام ومرخشي ولقب نفسه "ملك كيش، قاهر عيلام ومرخشي" وربما قام سرجون بحملة عسكرية جديدة على بلاد عيلام في السنوات الاخيرة من حكمه، كما تشير الى ذلك نصوص الفأل البابلية. وبعد ان تمت السيطرة على بلاد عيلام عين سرجون ممثلاً شخصياً له في بلاط سوسا (الشوش) عاصمة عيلام واصبحت عيلام ضمن حدود الدولة الاكدية وانتشرت الحضارة الاكدية في بلاد عيلام واستخدمت اللغة الاكدية بخطها المسماري للتدوين الى درجة ان جميع النصوص المكتشفة في سوسا، باستثناء بضع نصوص فقط، جاءت مدونة بالأكدية.[1]

من جهة اخرى تشير احدى القصص التي جاءتنا مدونة على رقيم طيني عثر عليه في تل العمارنة في مصر الوسطى، وهي عاصمة الملك اخناتون، والذي يرقى بتاريخه الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، الى ان سرجوناً ربما سيطر على الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى التي عرفت فيما بعد باقليم كبدوكيا، حيث تذكر هذه القصة التي وردت بعنوان (ملك الحرب) ان جماعة من التجار الأكديين كانوا يقيمون في مدينة بورشخندا في اقليم كبدوكيا، وانهم ارسلوا الى سرجون يستغيثونه ويطلبون منه التدخل لحمايتهم من اضطهاد احد الحكام المحليين، فاستجاب سرجون واغاثهم وخف لنجدتهم، إذ جهز حملة

(١) انظر تفاصيل ذلك: عامر سليمان، الجيش في العصر الأكدي في: الجيش والسلاح بغداد، ١٩٨٨؛ ج ١، ص١٠٧ – ١٥٠.

عسكرية وجهها الى تلك المنطقة النائية مما اضطر حاكمها المحلي الى الاستسلام والتوقيع على معاهدة تبعية وقد عثر على نسخة من هذه القصة مدونة باللغة الحثية ، لغة آسيا الصغرى المحلية في عهد الدولة الحثية ، كما اشار الى وصول سرجون الى تلك المناطق البعيدة الملك الحثي حاتوشيليش الاول (حدود ١٦٥٠ ق.م) مما يدل على انه كان للقصة شيء من الحقيقة .

وهكذا حق لسرجون ان يتفاخر ويقول : "والآن ايّا كان الملك الذي يدعي انه نظير لي ، فليصل الى حيث وصلت انا !" وان يقول إنه كان يطعم ٥٤٠٠ محارب كل يوم في قصره .

خلفاء سرجون :

اجتاحت الدولة الاكدية الفتن والاضطرابات في اعقاب وفاة سرجون ، وقد اعتلى العرش الأكدي من بعده ابنه ريموش الذي حكم تسع سنوات ، وكان عليه ان يقضي سنوات حكمه الاولى في القضاء على تلك الفتن والاضطرابات ، وكانت بلاد عيلام ومراخشي من الاقاليم التي تمردت على السلطة الأكدية ، فقام ريموش بتجهيز حملة عسكرية باتجاه الشرق سالكاً الممرات الجبلية الصعبة نفسها التي كان ابوه قد سلكها من قبل ، وحقق انتصارات حاسمة حيث يخبرنا في احدى كتاباته عن هذه المعركة انه احصى "اكثر من ١٧٠٠٠ قتيلاً واكثر من ٤٠٠٠ اسيراً" وهناك اشارات الى ان ريموش قام ببناء مدينة تحمل اسمه بالقرب من مدينة نينوى .(١)

جاء بعد ريموش في الحكم اخوه مانشتوسو ، وربما كان توأمه ، الذي حكم خمس عشرة سنة ، وباستثناء السنوات الاولى من حكمه التي سادها الهدوء ، فقد اتبع السياسة نفسها التي نهجها اخوه من قبل فجهز الحملات العسكرية للقضاء على الفتن والاضطرابات واعادة تثبيت سلطانه ولاسيما في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية .

وتؤكد النصوص المسمارية ان نرام – سين ، حفيد سرجون ، الذي اعقب مانشتوسو في الحكم ، كان ذا شخصية قوية جداً تضاهي شخصية جده مؤسس السلالة الأكدية حيث قاد الدولة الأكدية على الرغم مما كان فيها من فتن وتمردات ، الى الذروة في قدراتها

(١) جين يوترو وآخران ، الشرق الأدنى ص١٣٢ .

العسكرية والادارية ، وحكم فترة تقرب من اربعين سنة امتدت خلالها حدود الدولة الأكدية الى اقصاها. وكان من اولى انجازاته العسكرية قضاؤه على التمردات التي عمت ارجاء الامبراطورية فقام بحملات عسكرية متتابعة بدأها بحملة باتجاه الغرب والشمال الغربي بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل الى جبال الارز وجبال الفضة وسيطر على اعالي مابين النهرين وأقام بعض الحصون في المواضع المهمة مثل حصن تل براك.

وبرز نشاط نرام – سين الحربي في الجبهة الشرقية والشمالية الشرقية حيث خاض اعنف المعارك في المناطق الجبلية ضد القبائل التي ورد اسمها في النصوص على هيئة لولوبو ثم قبائل الكوتيين ، وهي قبائل جبلة غير متحضرة ، وكان على نرام – سين ان يجهز جيشه ويتسلق الجبال لكي يمكن احراز النصر على تلك الأقوام ، وقد حقق ذلك وخلّد انتصاراته على منحوتة اقامها على سفح الجبل كما عثر على مسلّة مشابهة لهذه المنحوتة من حيث الموضوع وذلك في مدينة سوسا عرفت باسم مسلة النصر.

أما بالنسبة لبلاد عيلام ، فقد اخمد نرام – سين في بداية حكمه التمرد الذي قامت به اربع مدن عيلامية ثم اتصفت العلاقات مع بلاد عيلام بالهدوء حيث عقدت معاهدة مع ملك اوان دونت في ستة أعمدة على وجهي لوح طيني عثر عليه في مدينة سوسا. وقد دونت المعاهدة باللغة الأكدية بخطها المسماري. وينص احد بنود المعاهدة على ان ملك اوان يعد نفسه عدواً لمن يعادي نرام – سين وصديقاً لكل صديق له.

أما بالنسبة الى بلاد آشور، فيبدو انها كانت تؤلف جزءاً مهماً من اراضي الدولة الأكدية. ويتأكد ذلك اثارياً في عهد خلفاء سرجون حيث تم الكشف في كل من نينوى وآشور على ابنية وآثار مكرسة للملوك الأكديين في حين قام بعض الملوك الأكديين انفسهم بتشييد بعض الأبنية. وربما قام ريموش خليفة سرجون بتشييد مدينة تحمل اسمه على بعد بضعة كيلومترات الى الشمال من مدينة نينوى[1] وتشير بعض النصوص الى ان آشور كانت قد اتخذت قاعدة انطلاق عسكرية الى المناطق المجاورة. كما تم الكشف عن قصر مهم في مدينة آشور يشبه في طرازه القصور الأكدية. ولابد من الاشارة هنا الى القناع البرونزي الذي عثر عليه في نينوى ويظن انه يعود الى الملك سرجون او الى حفيده ، كما تم العثور في السنوات الاخيرة في محافظة دهوك على تمثال شاب جالس القرفصاء مصنوع من البرونز وقد فقد رأسه والجزء العلوي من الجسم ، وهو اصغر حجماً من الحجم الطبيعي وعليه كتابة

---

(١) انظر جون برنزو وآخران ، الشرق الأدنى ، ص ١١٢.

تحمل اسم نرام- سين.[1] وهكذا تؤكد الآثار المكتشفة ان بلاد آشور كانت جزءاً من الدولة الأكدية.

ومما يذكر عن حكم نرام- سين انه يبدو ان كان اول ملك في تأريخ العراق القديم كتب اسمه مسبوقاً بالنجمة، وهي علامة دالّة كانت توضع عادة قبل اسماء الآلهة، مما يشير الى انه الّه نفسه خلافاً لما كانت عليه العادة حيث كان الملك في نظر العراقيين القدماء من البشر الا انه كان ممثلاً للآلهة على الأرض ونائباً عنها. كما ان نرام- سين لقب نفسه بملك الجهات الأربعة، وهو لقب كان يستخدم في وصف الآلهة فقط.

وهكذا ارتفع شأن الدولة الأكدية في عهد نرام- سين، ومعها ارتفع شأن مدينة أكد، العاصمة. وان كنا لانعرف الكثير عن مدينة اكد وعن الحياة فيها لأننا لم نكتشف بعد بقاياها، فإنه من الممكن ان نقرأ عنها ما كتبه احد الكنبة القدماء وهو يرثي مدينة اكد التي دمّرها الكوتيون، ويصف لنا المدينة قبل ان تمتد اليها يد الغزاة فيقول.

«في تلك الأيام كانت مساكن اكد مملوءة بالذهب
بيوتها الساطعة اللامعة مملوءة بالفضة
والى مخازنها كان يحمل النحاس والرصاص وحجر اللازورد...
عجائزها وهبن سداء الرأي
وشيوخها وهبوا وضاحة اللسان
وشبابها عرفوا ببطش السلاح
وصغارها منحوا قلوباً مرحة...
البلاد كلها كانت تعيش في امان
وملكهم الراعي نرام- سين
يخطو كالشمس نحو عرش اكد المقدس
اجل! لقد كانت اسوارها تطاول السماء كالجبال الشاهقة...»[2]

كان نرام- سين آخر الملوك الأقوياء، وتشير الاخبار المتأخرة إلى ان حكمه انتهى بتجمع الاعداء عليه وحدوث الاضطرابات فدبّ الضعف في ارجاء الامبراطورية.

---

(١) طارق مظلوم وفوزي رشيد، دراسة تمثال اكدي من البرونز، سومر، ٣٢ (١٩٧٦) ص٤١- ٥٨.

(٢) انظر فاضل عبدالواحد، وثيقة حرب التحرير، في: الجيش والسلاح، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص١٥٤.

خلف نرام– سين في الحكم ابنه مشاركالي شاري "ملك كل الملوك" ، وقد استغلت بلاد عيلام فرصة وفاة نرام– سين ونقضت المعاهدة واستقلت عن الدولة الأكدية بل انها هاجمت الأراضي الاكدية اكثر من مرة. كما صادف في هذه الفترة بداية تدفق اقوام جزرية جديدة من جهة الغرب عرفت بالأقوام الامورية التي اصبح لها دور رئيس في الأحداث السياسية فيما بعد. الا ان الخطر الرئيسي الذي كان يواجه الدولة الاكدية كان قادماً من الشرق ، من الأقوام الكوتية القاطنة في المنطقة الجبلية الى الشرق من بلاد اكد. وكانت هذه القبائل الكوتية تغير على حدود الدولة الاكدية الشرقية وتنهب وتسلب المدن الحدودية الى ان تمكنت اخيراً من شن هجوم كبير وكاسح قضى على الدولة الاكدية. فحلت الفوضى والارتباك السياسي في ارجاء البلاد الى درجة ان جداول الملوك السومريين تذكر انه في السنوات التي اعقبت حكم شاركالي شاري مباشرة لم يكن يعرف (من كان الملك ومن كان غير الملك) ، وتستمر جداول الملوك في ذكر اسماء اربعة ملوك آخرين حكموا جميعهم ثلاث سنوات واعقبهم ملكان حكما مدة طويلة نسبياً ومهما كانت الاوضاع متردية ، فيظهر ان الكوتيين لم يسيطروا الا على بلاد اكد ، وهي القسم الوسطى من العراق. ويبدو ان حكم الملكين الاخيرين من السلالة الاكدية كان معاصراً لوجود الكوتيين اما لأنهما كانا تابعين للسلطات الكوتية او انهما حكما في الأجزاء التي لم يسيطر عليها الكوتيون.

وهكذا اسدل الستار على اول امبراطورية عرفها التأريخ القديم ووقعت بلاد سومر واكد تحت الاحتلال الأجنبي لما يقرب من مائة سنة.

سياسة الملوك الاكديين :

كان توحيد دول المدن السومرية وضمها في دولة مركزية واحدة مالبثت ان غدت امبراطورية مترامية الاطراف تعد الاولى من نوعها في التأريخ القديم من الاحداث الجسام التي مرت على العراق القديم. لم يكن تحقيق ذلك ، كما رأينا ، من الامور الهينة والبسيطة بل تطلب الدخول في صراعات عنيفة وحروب طاحنة ومواجهة تحديات كبيرة ووضع سياسة ادارية جديدة ، وهذا ماشرع سرجون مؤسس الدولة الاكدية تنفيذه.

كما ان حقيقة ان سرجوناً كان من الأقوام الجزرية الاصل واعتماده على العناصر الاكدية في ادارة المقاطعات والاقاليم وقيادة الوحدات العسكرية له اثره في الطابع العام الذي اتسمت به الحضارة في هذه الفترة. والى جانب سيادة الاقوام الاكدية الجزرية الاصل التي لابد وان ادخلت معها عناصر حضارية خاصة بها ، فقد غدت اللغة الاكدية لغة رسمية في البلاد الى جانب اللغة السومرية ودونت بالكتابة المسمارية التي كان قد ابتدعها السومريون لتدوين لغتهم . ومع ذلك ، وعلى الرغم من سيادة الاقوام الاكدية ، فان ذلك لايعني انه كان هناك صراع قومي بين السومريين والاكديين بل ان دراسة النصوص السومرية والاكدية المكتشفة ومتابعة تطور الاحداث تشير الى عدم وجود اي صراع قومي اساسه التمييز بين العناصر السومرية والعناصر الاكدية وان الاجراءات التي اتخذها الحكام الاكديون في قمع واخماد الفتن والتمردات لم تقتصر على المدن السومرية بل شملت المدن التي يمثل الاكديون غالبية سكانها ايضاً ، كما ان قوائم اسماء الاشخاص واسماء الحكام تشير هي الاخرى الى ان السومريين كانوا يعيشون بسلام جنباً الى جنب مع الاكديين دونما تمييز عرقي ، وكذلك كانت الحال في عهد سلالة اور الثالثة التي كان حكامها من السومريين.

ومع قلة المعلومات المتوافرة لدينا عن الحياة العامة في عهد الدولة الاكدية ، فان النصوص المكتشفة بالرغم من انها مقتضبة وذات مواضيع محددة الا انها تشير الى انه لم يكن هناك صراع ديني بين الاقوام الاكدية والسومرية او بين المدن المختلفة ، ربما لان سرجوناً واتباعه لم يأتوا بمعتقدات جديدة او يركزوا على عبادة اله قومي معين ، حيث كان العراقيون القدماء يعتقدون بتعدد الالهة وكان لكل مدينة الهها الحامي في تصور القوم .

ولتحقيق طموحاته الواسعة في تأسيس دولة مركزية مترامية الاطراف ، عمد سرجون الى هدم الاسوار التي كانت تتحصن بها المدن الرئيسة والتي كانت تمثل عواصم الدويلات السومرية السابقة . ويبدو ان الهدف من هذه السياسة اضافة الى أن المدن لم تعد بحاجة الى اسوار تحميها من هجوم الاعداء طالما اصبحت جزءاً من دولة كبيرة واحدة تحمي حدودها الخارجية قطعات عسكرية ثابتة ، فأن هدم الاسوار يمنع احتمال وقوع اي تمرد او ثورة ضد السلطة المركزية من قبل حكام المدن وحكامها معتمدين في ذلك على تحصين المدينة وسهولة حمايتها ومقاومة السلطة المركزية .

وبالنسبة الى الجيش ، فقد كان على سرجون ان يبني جيشاً قوياً بعدده وعدته كفوءً بتدريبه وادارته مقتدراً على خوض معارك في مناطق وبيئات مختلفة بعيدة عن مركز الدولة . فكان ان استحدث الجيش الدائم ، او النظامي ، ليكون مستعداً طوال الوقت لحماية حدود الدولة الواسعة ويعمل على اخماد أية ثورة او فتنة قد تحدث في الاقاليم المختلفة ، كما زود الجيش باسلحة خفيفة يمكن حملها بسهولة والتنقل بها الى مسافات بعيدة وادخلت اساليب جديدة في القتال تتلاءم والبيئات المختلفة التي كان على الجيش الأكدي ان يقاتل فيها وتواجه اسلحة الاعداء المختلفة ايضاً بأختلاف المناطق والبلدان ، وربما كان اعتماد سرجون وخلفائه على بعض القطعات الخاصة ، التي كانت نواة الحرس الملكي ، المجندة من العناصر الاكدية . ولابد ان كان لطبيعة الاقوام الاكدية الجزرية الاصل اثره في ادخال بعض اساليب القتال الجديدة التي لم تكن معروفة في العصور السومرية السابقة كالمبارزة الفردية وسرعة الحركة في القتال مما ينسجم وطبيعة الحياة البدوية .

أما بالنسبة الى النظام الاداري الذي اتبعه الملوك الاكديون ، فقد كان نظاماً مركزياً بالتأكيد حاول توحيد الانظمة التي كانت سائدة في دول المدن السومرية السابقة بقالب جديد ذي طابع اكدي ، الا ان معلوماتنا عن ذلك قليلة وذلك لقلة النصوص المكتشفة ومع ذلك فانها تشير الى توحيد التقويم المستخدم في المدن المختلفة وتوحيد اسلوب المحاكمات من خلال القسم باسم الملك الى جانب اسم الاله .

وأخيراً لابد من الاشارة الى النتائج الحضارية التي اسفرت عن قيام الدولة الاكدية وامتداد نفوذها الى مناطق بعيدة حيث انتشرت الحضارة العراقية واثرت في المناطق التي وصل اليها الاكديون الى درجة شاع استخدام اللغة الاكدية وخطها المسماري في بعض تلك المناطق ، مثل بلاد عيلام وآسيا الصغرى وتأثرت مناطق اخرى بالافكار والمعتقدات والفنون العراقية القديمة كما تؤكد ذلك المكتشفات الأثرية فيها .

٢٠ـ الغزو الكوتي وحرب التحرير الاولى

الغزو الكوتي

كانت بلاد سومر واكد ، كما سبق أن أشرنا اكثر من مرة ، اقليماً مفتوحاً امام القبائل الجبلية وغيرها القاطنة الى الشرق منها لايفصلها عنها اي حاجز طبيعي حتى شواطىء نهر دجلة الشرقية ، كما كان لغنى ارض العراق الزراعية الخصبة ومياهها العذبة الوفيرة اثره في ان تتطلع تلك القبائل دائماً للسيطرة على السهل الرسوبي ومدنه العامرة وتشير جداول الملوك السومريين التي دونت في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد الى ان الملكية انتقلت من بلاد سومر الى مدن عيلامية الى الشرق من بلاد سومر اكثر من مرة ، وهذا يشير الى غزوات كانت قد قامت بها الاقوام العيلامية الى بلاد سومر وقضت على السلالات الحاكمة فيها وانتزعت منها الملكية ، كما تذكر الجداول كما كان من مهام الملوك الاكديين الرئيسة والاولى القيام بحملات عسكرية تأديبية الى المنطقة الجبلية الواقعة الى الشرق والتي كانت قبائلها تغير على الحدود الاكدية كلما سنحت لها الفرصة ووجدت ضعفاً في الحكومة ، او الحكومات ، المركزية في بلاد سومر واكد .

ولقد انتهزت القبائل الجبلية فترة ضعف الدولة الاكدية عندما تولى الملك شاركالي شرّي الحكم فيها وبدأت تتحرش بحدود الدولة الاكدية الشرقية ، ويشير اسم احدى سنوات حكم هذا الملك بانه جرّد حملة على الكوتيين وانتصر عليهم واسر ملكهم ، الا ان الاخبار التالية تؤكد أن الكوتيين قاموا بعد ذلك وفي عهد هذا الملك نفسه بهجومهم الكاسح على بلاد سومر واكد وقضوا على السلالة الاكدية ، فحلت الفوضى في البلاد وقد عبّرت جداول الملوك عن هذه الفوضى بالعبارة (من كان الملك ومن كان غير الملك) .

وكان الكوتيون من الاقوام الجبلية غير المتحضرة ولا يعلم اصلها العرقي وهل كانت من الاقوام الهندية – الاوربية ام لا ، حيث لم تدون اللغة الكوتية ولا يعرف عن الكوتيين الا اسماء ملوكهم الواردة في جداول الملوك السومريين وما كتبه السومريون والاكديون عنهم . وقد ورد ذكرهم في الفترات المتأخرة على هيئة «قوتو» واشير اليهم في اخبار الملوك الآشوريين وحملاتهم العسكرية . ولم يترك لنا الكوتيون اثاراً مادية يمكن التعرف من خلالها عليهم حيث كانوا اقل حضارة من سكان بلاد سومر واكد .

وقد رافق هجوم الكوتيين على بلاد اكد تخريب وتدمير لمعظم المراكز الحضارية وفي مقدمتها مدينة اكد. ويصف لنا اوتو حيكال، القائد السومري الذي حرر البلاد من الاحتلال الكوتي كما سيأتي ذكر ذلك فيما بعد، جموع الكوتيين البربرية حيث يقول عنهم:

الكوتي افعى وعقرب الجبل
الذي رفع يده ضد الالهة
ونقل ملوكية سومر الى بلاد اجنبية
وملأ سومر بالعداوة والبغضاء
لقد اختطف الزوجة ممن كان له زوجة
واختطف الولد ممن كان له ولد
واقام العداوة والعصيان في البلاد...[1]

وتعد فترة الاحتلال الكوتي فترة مظلمة في تأريخ العراق القديم لتوقف عجلة التقدم الحضاري اولاً ولندرة مالدينا من معلومات عن هذه الفترة ثانياً. ويبدو ان التسلط الكوتي لم يكن عاماً وشاملاً حيث ان الكوتيين لم يسيطروا على جميع انحاء الدولة الاكدية ولعلهم بعد ان قاموا بتدمير وتخريب المدن، انسحبوا الى الجهات الشمالية ولا سيما منطقة كركوك، واختاروا مدينة اراًنخا (كركوك) مركزاً لهم على ما يرجح[2].

ونذكر جداول الملوك السومريين اسماء واحد وعشرين ملكاً من الملوك الكوتيين الذين حكموا في بلاد سومر واكد مدة ١٢٥ سنة، ولايعرف عن هؤلاء الملوك الا اسماؤهم وبعض المعلومات القليلة جداً عن بعضهم. وقد اتسمت هذه الفترة في تأريخ العراق القديم بالفوضى السياسية والارتباك حيث كان الكوتيون يعبثون بأمن البلاد وينهبون اموال المواطنين كما تشير الرسالة الاتية التي ارسلها شخص يدعى اشكون – دكان الى شخص آخر يقول فيها:

«احرث حقلك واحرس ماشيتك، وقبل كل شيء لاتقل لي ان الكوتيين من حولي وانني لا استطيع حرث الحقل... واذا حاول الكوتيون الهجوم عليك فاجلب الماشية الى المدينة، لانه عندما أخذ رجال من الكوتيين

(١) فاضل عبد الواحد، وثيقة حرب التحرير، ص ١٦٤
(٢) طه باقر، المقدمة، ٣٧٤

وفي مدائن بوابات البلاد اصبحت الابواب مغطاة بالتراب
واطلقت كل البلاد صرخة حزن من اسوارها ... (١)

سلالة لجش الثانية

وعلى الرغم مما احدثه الغزو الكوتي لبلاد سومر وأكد من تخريب وتدمير وما نتج عن ذلك من ارتباك وفوضى سياسية ، فلقد تمكنت بعض المدن السومرية القديمة الاستقلال عن سيطرة الكوتيين. وكانت مدينة لجش التي كان الاكديون قد اعادوا بناءها من بعد التدمير الذي اصابها في عهد لوجال زاجيزي ، احدى تلك المدن التي استعادت سالف اهميتها ميناءاً نهرياً ولعدم وجود حكومة مركزية قوية ، فقد تمكن حكام لجش من توسيع حدود سلطانهم الى خارج حدود دولتهم الاعتيادية واسسوا سلالة جديدة عرفت لدى الباحثين بسلالة لجش الثانية ، وقد امدتنا النصوص السومرية التي خلفها لنا حكام لجش انفسهم بمعلومات مفصلة عن نشاطاتهم العمرانية والعسكرية والاقتصادية على الرغم من ان جداول الملوك السومريين لم تذكر شيئاً عن هذه السلالة وكان حاكم لجش الرابع جوديا اشهر اولئك الحكام واكثرهم نشاطاً حيث امتدت سلطته لتشمل نيبور والوركاء وجهز حملة على بلاد عيلام وتؤكد النصوص التي خلّفها على تقواه ونشاطاته في بناء وتجديد المعابد وقيامه بواجباته الدينية . كما ادعى علاقات تجارية واسعة مع عدد من البلدان التي تقع ماوراء الخليج العربي ، وهي مگان وميلوخا ودلمون السابق ذكرها اضافة الى مناطق اخرى في آسيا الصغرى وايران(٢) . الا ان قوة لجش لم تستمر طويلاً بعد جوديا وان اعقبه في الحكم ابنه ثم حفيده ثم عادت لجش لتقع تحت نفوذ قوى محلية اخرى .

يعد عهد سلالة لجش الثانية بحق انبعاثاً جديداً للتراث الحضاري السومري حيث نشطت التآليف الادبية وازدهرت الحركة العمرانية ونشطت التجارة الخارجية ولاسيما في عهد جوديا . وتعد النصوص التي خلفها لنا جوديا فضلاً عن اهميتها الادبية واللغوية ، اطول نصوص ادبية سومرية وصلت الينا لحد الآن وخير ما يمثل لنا اللغة السومرية ابان نضجها (٣). وقد دونت بعض هذه النصوص على اسطوانات من الطين في حين دونت نصوص اخرى على تماثيل جوديا الشخصية .

---

(١) فاضل عبد الواحد علي ، اقدم حرب للتحرير عرفها التأريخ ، سومر ، ٣٠ (١٩٧٤) ، ص ٥٣
(٢) انظر ساكز ، عظمة بابل ، ٧٣.
(٣) طه باقر ، المقدمة ، ٣٧٦.

وعلى الرغم من الاستقلال الذي كانت تتمتع به مدينة لجش والذي ربما كان مرهوناً بالاعتراف بسيادة الحكام الكوتيين الاجانب، فقد كانت عامة السكان المحليين، من سومريين واكديين، ينظرون الى الوجود الكوتي في بلادهم بانه احتلال اجنبي يجب التخلص منه باسرع مايمكن، لذا كانت الظروف مهيأة، كما يبدو، للثورة على الغزاة وشن الحرب على المحتلين. وكانت مدينة الوركاء من المدن السومرية المهمة في هذه الفترة حيث ظهر فيها حاكم وقائد عسكري اعلن الثورة ضد الكوتيين وجنّد جيشاً كبيراً لمقاتلتهم واثار الحماسة في النفوس للتخلص من الاحتلال. وقد وصلت الينا تفاصيل ذلك مدونة على وثيقة سومرية تعود لهذا الحاكم السومري وهو اوتوحيكال، الذي قاد الحرب ضد الكوتيين وانتصر عليهم ونصب نفسه ملكاً على الوركاء وحكم فيها مدة ثمان سنوات فقط.

وجرياً على عادة العراقيين القدماء المعتمدة على معتقداتهم الدينية فقد نسبت وثيقة التحرير شن الحرب على الكوتيين الى الالة حتى تذكر ان الاله انليل هو الذي امر اوتوحيكال بشن الحرب على الكوتيين وطردهم من البلاد لانهم امعنوا في ظلمهم وتعسفهم في معاملة الناس. "فوّض الاله انليل ملك البلدان، الرجل العظيم اوتوحيكال ملك الوركاء، ملك الجهات الاربع، الملك الذي لايخالف احد امره ان يحطّم اسم "الكوتي" افعى وعقرب الجبال الذي رفع يده ضد الالهة، الذي نقل ملوكية سومر الى بلاد اجنبية، وملك بلاد سومر بالعداوة، الذي ابعد الزوجة عمن كانت له زوجة، وابعد الطفل عمن كان له طفل والذي اقام العداوة والعصيان في البلاد..." . لذا بادر اوتوحيكال وقدم الصلوات والادعية ملتمساً تحقيق الانتصار عليهم وبدأ بتجميع قواته لخوض المعركة. وتتحدث وثيقة التحرير عن لقاء بين القائد اوتوحيكال وجنده المحتشدين من ابناء المدينة وخطابه فيهم واثارته لحماسهم واعدادهم لخوض المعركة. وقد سار الجيش بقيادته وتجمع الجند من حوله، وكان يقوم في كل يوم بتقديم القرابين والصلوات الى الالهة حتى كان اليوم الخامس حيث التقى باثنين من مبعوثي الملك الكوتي لاسباب غير معروفة. وفي اليوم السادس بدأ زحف الجيش واخيراً تتحدث الوثيقة عن المعركة الفاصلة بين الجيش السومري بقيادة اوتوحيكال والجيش الكوتي بقيادة تريكان، وكيف احرز السومريون نصراً حاسماً على المحتلين وانهزم الملك الكوتي تريكان والتجأ الى مدينة دبروم "ثم سار اوتوحيكال الملك الذي منحه انليل القوة والذي اختارته الالهة اينانا الى قلبها، الرجل العظيم... الى

المعركة من الوركاء ضد (تريكان) ... عندئذ تملك الفرح اهالي مدينة الوركاء واهالي مدينة كولاب وتبعه رجال مدينته وكأنهم رجل واحد ... وفي اليوم السادس وصل الى كاركار ... وكان الكوتيون قد جمعوا قواتهم في ذلك المكان ... غير ان اوتوحيكال ، الرجل العظيم ، تمكن من دحرهم واسر قائدهم . وعندئذ فرّ تريكان والتجأ الى مدينة دبروم".

وسرعان ماالقى رجال المدينة القبض عليه وعلى افراد عائلته وسلموهم الى مبعوثي الملك اوتوحيكال .

وتختتم الوثيقة بالقول انه جيئ بالملك الكوتي ليركع عند قدمي اوتوحيكال في الوركاء وان الملك السومري وضع قدمه على رقبة تريكان تعبيراً عن اندحاره وهزيمته :

"ولكن رجال دبروم ... القوا القبض على تريكان وعائلته ووضعوا القيد في يديه ... ولما جلب تريكان امام اوتوحيكال القى بنفسه عند قدميه ... فوضع اوتوحيكال قدمه على رقبته ... وهكذا اعاد الملوكية الى بلاد سومر."[1]

وقد ظل هذا الانتصار الذي حققه اوتوحيكال وطرده للكوتيين من بلاد سومر واكد خالداً في ذاكرة الاجيال ولأزمان طويلة حيث ذكر في بعض نصوص الفال البابلي التي تشير الى ان الانتصار الحاسم وقع في اليوم الرابع عشر من شهر تموز حيث حدث في ذلك خسوف للقمر، لذلك اتخذ سكان وادي الرافدين من ذكرى النصر على الكوتين فالاً حسناً حيث ورد ذلك كما يأتي :

" اذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز فهو نذير للملك الكوتي : سوف يسقط الكوتيون في المعركة وتتحرر البلاد".

وعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققه اوتوحيكال على الكوتيين ، فان حكمه كان قصيراً حيث لم يستمر اكثر من سبع سنوات انتقلت بعدها السلطة الى احد موظفيه المسمى اور– نمو الذي كان حاكماً على اور. ولايعرف ماإذا كان اور– نمو قد ثار على سيده واغتصب منه السلطة ام انه جاء الى الحكم بعد وفاة اوتوحيكال .

---

(١) انظر: فاضل عبدالواحد ، السومريون والاكديون في العراق في التأريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٧٩–٨٠.

٣- سلالة اور الثالثة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م)

تعد سلالة اور الثالثة ، او امبراطورية اور الثالثة كما يسميها بعض الباحثين[١] آخر سلالة سومرية تولت السلطة السياسية وبانهيارها في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ينتهي دور السومريين السياسي ، الا ان ذلك لايعني نهاية لدور السومريين الحضاري بل أن تأثيرهم الحضاري ظل واضحاً وعميقاً في مختلف جوانب الحياة ، وبنحو خاص في المجالات الدينية والعلمية ، الى فترة متأخرة نسبياً ، بل ان اللغة السومرية التي توقف استخدامها لغة رسمية بعد عهد سلالة اور الثالثة ظلت تستخدم لتدوين بعض النصوص الدينية والعلمية ذات الاهمية الخاصة حتى اواخر الالف الاول قبل الميلاد[٢] حكمت سلالة اور الثالثة اكثر من مائة سنة (٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م) تعاقب على الحكم فيها خمسة ملوك من اسرة واحدة.

فقد تمكن اوتو حيكال من طرد الكوتيين والقضاء على آخر حكامهم وذلك في حدود عام ٢١٢٠ ق.م ، واتخذ من مدينة اوروك (الوركاء) عاصمة له ، وقد خصصت له جداول الملوك السومريين حكماً دام سبع سنوات ونصف ثم تذكر الجداول : «دُحرت اوروك ونقلت ملوكيتها الى اور» ، ومن ثم تذكر اسم مؤسس السلالة الجديدة في مدينة اور وهو الملك اور-نمّو وتخصص له فترة حكم دامت ثماني عشرة سنة.

اور- نمّو مؤسس سلالة اور الثالثة

وتشير النصوص المتوفرة من جانب آخر الى ان اور- نمّو، وهو سومري الاصل كما يشير الى ذلك اسمه ، كان حاكماً في مدينة اور في فترة الاحتلال الكوتي لبلاد اكد وربما كان احد الزعماء السومريين الذين تعاونوا على طرد الكوتيين مع اوتو حيكال كما يمكن استنتاج ذلك من حقيقة ان اوتو حيكال نفسه عيّنه شاجناً sagin ، اي حاكما ، او حاكما عسكرياً ، على مدينة اور. ولاسباب وظروف غير معروفة ، ثار على اوتو حيكال واستقل عنه ، وهذا ما تشير اليه عبارة جداول الملوك الآنفة الذكر والتي تنص على ان اوروك دحرت

---

(١) جين بوزو واخران ، الشرق الادنى ، ص ١٣٥

(٢) انظر عامر سليمان ، اللغة الاكدية ، ص ٣٣- ٣٦

ونقلت ملوكيتها الى اور، الا ان هذه العبارة قد لاتعني مايفهم منها ظاهرياً حيث انها العبارة التي استخدمتها جداول الملوك مراراً للدلالة على انتقال الملكية من مدينة الى اخرى سواء كان الإنتقال نتيجة اندحار عسكري ام لا وليس من المستبعد ان اور-نمّو استقر بمدينته اور واعلن نفسه ملكاً فيها من بعد وفاة سيده اوتو حيكال [1]

وبقيام سلالة اور الثالثة [2] واعادة وحدة بلاد وادي الرافدين الى ما كانت عليه في عهد الدولة الاكدية، عاد استخدام اللغة السومرية لغة رسمية في البلاد. ومع ذلك فقد ظلّت اللغة الاكدية مستخدمة على نطاق واسع، ولاسيما في بلاد اكد، لغة مخاطبة وتدوين، فكان هناك صراع لغوي استمر لفترة طويلة وكانت الغلبة في نهاية المطاف الى اللغة الاكدية، وهو امر طبيعي طالما كانت الاقوام الجزرية القادمة من جهة الغرب والتي كانت تتكلم لهجة جزرية قريبة من اللهجات الاكدية، مستمرة في تدفقها نحو بلاد وادي الرافدين وتغلغلها بين السكان حتى غدت العناصر الجزرية التي تتكلم اللغة الاكدية تؤلف الغالبية العظمى من السكان وذلك في العصر البابلي القديم في حين كان عدد السومريين في تناقص مستمر نتيجة اندماجهم مع الاكديين وقد استحدث ملوك سلالة اور الثالثة لقباً جديداً هو لقب «ملك بلاد سومر واكد» فضلاً عن الالقاب القديمة الاخرى، تأكيداً منهم على عدم وجود صراع قومي بينهم وبين الاكديين، كما تسمى ثلاثة من ملوك السلالة، وكذلك احدى ملكاتهم، باسماء اكدية. وقد يفسر ذلك ايضاً على نحو عكسي بالقول انه لولا وجود نوع من الصراع القومي بين السومريين والاكديين لما لجأ الملوك السومريون الى التأكيد على انهم ملوك بلاد سومر واكد ولما تسمى بعضهم باسماء اكدية، ومع ذلك فإن الاحداث التالية تؤكد عدم وجود مثل هذا الصراع.

ومع كثرة عدد النصوص المسمارية المكتشفة من عهد سلالة اور الثالثة، وغالبيتها معروفة باللغة السومرية، حيث هناك اكثر من عشرين الف من الرقم القانونية والادارية والاقتصادية التي تم نشرها حتى الآن وربما اكثر من مائة الف رقيم آخر من الرقم المكتشفة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧

(٢) توالى على الحكم في سلالة اور الثالثة كل من: اور- نمو ٢١١٣- ٢٠٩٦ ق.م
شولجي ٢٠٩٥- ٢٠٤٨
امار-سين ٢٠٤٧- ٢٠٣٩
شو-سين ٢٠٣٨- ٢٠٣٠
ابي-سين ٢٠٢٩- ٢٠٠٦ ق.م

غير المنشورة ، الا ان معلوماتنا عن هذه الفترة التي دامت اكثر من مائة سنة قليلة ولا تتناسب واعداد الرقم الطينية المكتشفة ومع اهمية الفترة بالنسبة الى تأريخ العراق القديم . ومن اسباب ذلك ان الرقم الطينية المكتشفة جاءت مقتضبة جداً ومليئة بالمصطلحات الفنية الشائعة الاستعمال والتي لاتعطي الا القليل من المعلومات[1] حيث انها غدت اشبه بالكلايش او المصطلحات التي فقدت معانيها الاصلية وظلت تستخدم كصيغ فنية ، كالعبارات المقتضبة التي ترد عادة في عقود الدين والايجار والبيع وعقود الزواج والتبني وغيرها . كما ان غالبية الرقم المكتشفة هي ذات طبيعة اقتصادية او ادارية في حين كان نصيب الرقم التي تتطرق الى الاحداث التأريخية قليل جداً منها . ومع ذلك ، افاد الباحثون من التأريخ المسجلة على هذه الرقم ، حيث ارخت السنون بالنسبة لاهم الاحداث كما افادوا من بعض النصوص البنائية او تلك المدّونة على التماثيل والمسلات وتشير جميع الادّلة الكتابية والآثارية الى رخاء اقتصادي عمّ هذه الفترة تؤكده النشاطات المعماريه التي اضطلع بها اوررنمو وخلفاؤه والتي شملت معظم مدن بلاد سومر واكد ولكن كان نصيب مدينة اور، عاصمة المملكة بالتأكيد اكثر من غيرها من المدن .

ومن النصوص التأريخية المهمة التي دونت في هذه الفترة والفترة التالية لها مباشرة جداول الملوك السومريين التي سبق ان أشرنا اليها . وقد ذكرت هذه الجداول ان اور–نمّو حكم ثماني عشرة سنة . وتشير احد التراتيل الدينية الى انه طارد فلول الكوتيين ، ويذكر اور–نمّو نفسه انه اخضع حاكم لجش في حين تشير احدى الحوادث المؤرخ بها انه مهد الطريق من الجهات السفلى الى الجهات العليا ، اي انه سار من البحر الاسفل (الخليج العربي) الى البحر الاعلى (البحر المتوسط) واذا ماجمعنا هذه النتف من المعلومات مع ما لدينا من دلائل عن الرخاء الاقتصادي الذي عم البلاد في هذه الفترة ، امكن الاستنتاج ان تولي اور–نمّو الحكم كان بداية عهد جديد تميز بقوة الادارة المركزية التي اعادت وحدة بلاد وادي الرافدين الى ماكانت عليه في عهد الدولة الاكدية وان الملك اور–نمّو قضى سنوات عدة من حكمه من اجل توحيد البلاد والقيام بالحملات العسكرية لاخضاع المناطق المختلفة ، وانه كان من نتائج تلك الحملات ايضاً تدفق الغنائم الكثيرة التي كانت من اسباب الرخاء الاقتصادي .

---

(1) ساكز ، عظمة بابل ، ٧٤

وتؤكد الأدلة المتوافرة الى ان اور- نمو اتبع سياسة ادارية كفوءة للمحافظة على وحدة المملكة مترامية الاطراف وتقليل احتمالات حدوث تمردات داخلية وذلك من خلال السيطرة المحكمة على حكام المدن ونقلهم من مدينة الى اخرى وعدم اعطائهم الفرصة لتقوية علاقاتهم المحلية وارتباطاتهم بالسكان ومن ثم تقوية مراكزهم مما قد يساعد على احتمال التمرد والعصيان ضد السلطة المركزية. كما حاول ملوك اور الثالثة الفصل بين الادارات العسكرية والادارات المدنية وربط القطعات العسكرية بادارات خاصة ترتبط بالملك مباشرة. وللاشراف المستمر على ماقد يحدث في المدن المختلفة فقد اتبع نظام مراسلي الملك ومبعوثيه الى المدن والمقاطعات المختلفة في حين تمت المحافظة على علاقة المملكة بالممالك والبلدان الواقعة خارج حدود بلاد سومر واكد من خلال الممثلين الدبلوماسيين وربما تمت مصاهرات سياسية من اجل ذلك.

وكان طبيعياً ان تقع بلاد آشور ضمن حدود امبراطورية اور الثالثة غير ان معلوماتنا عن تطور الاحداث في بلاد آشور قليلة وإن كان لدينا بعض الاشارات الى المنطقة في الرسائل الملكية التي كان قد ارسلها خليفة اور- نمو الى حكامه في آشور تؤكد ان آشور ونينوى واربيل كانت مراكز ادارية تابعة لملك اور، كما كشف عن آثار معابد شيدت من اجل ملك اور، مثل المعبد الذي شيده زريقوم في نينوى من اجل سيده امار-سين.

ولعل من اهم منجزات اور- نمو المعمارية بناؤه الزقورة في مدينة اور والتي لاتزال بقاياها ماثلة الى اليوم تفصح عن فخامة مشاريع البناء التي اضطلع بها ملوك هذه السلالة، وتعد زقورة اور هذه الاولى من نوعها في تأريخ العراق القديم ثم شاع بناء الزقورات في الفترات التالية وغدت سمة من سمات الحضارة العراقية القديمة لاتخلو مدينة من المدن المهمة منها. ويرى الباحثون ان بناء الزقورة كان تطوراً للمصاطب التي كانت تشيد عليها المعابد عادة في العصور السابقة. والزقورة شكلاً معمارياً عبارة عن صرح مدرج ضخم يتألف من عدة مصاطب ذات قاعدة مربعة او مستطيلة تتناقص من حيث المساحة وتنتهي المصاطب، ثلاثة في العصور المبكرة ووصلت الى سبع مصاطب في العصور المتأخرة، بمصطبة يقام عليها المعبد العالي ويرقى الى هذه المصاطب بواسطة درج خارجي والزقورة بصورة عامة بناء أصم مشيد باللبن وتغلف المصاطب من الخارج بالآجر المفخور والمختوم باسم الملك عادة. اما من الناحية الدينية، فتؤلف الزقورة جزءاً مكملاً للمعبد الارضي حيث كان يظن القوم ان الالهة تنزل في مناسبات معينة، كاعياد راس السنة والزواج المقدس، وكان لابد من اعداد مكان لاستراحتها، فكان ان شيدت الزقورة العالية وفوقها معبد صغير خصص لاستراحة الالهة.

اما قياسات زقورة اور المؤلفة من ثلاث طبقات، فمساحة المصطبة السفلى ٦٢,٥×٤٣ متراً وارتفاعها ١١ متراً والمصطبة الثانية ٣٦×٢٦ متراً وارتفاعها ستة امتار والمصطبة الثالثة التي لم يبق منها الاّ جزء قليل يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار، اي ان ارتفاع الزقورة الكلي كان اكثر من عشرين متراً. وقد خلد اور– نمو بناء لزقورة على منحوتات من الحجر صور عليها الملك واقفاً امام الاله ننا– الاله القمر، اله مدينة اور، وقفة الخاشع المتعبد وهو يتسلم الاوامر المقدسة الخاصة بتشييد الزقورة.

وفضلاً عن ذلك، قام اور– نمو بعدد من مشاريع البناء ولاسيما بناء المعابد وترميمها في عدد من المدن كما تشير الى ذلك تماثيله الصغيرة المكتشفة والمنحوتة من الحجر او مصنوعة من البرونز المسبوك وعلى هذه التماثيل كتبت نصوص بنائيه قصيرة وكانت التماثيل توضع عادة في اسس الابنية. كما اهتم اور– نمو بحفر القنوات والجداول لري الانهار وقد دوّنت مثل هذه الاعمال على مخاريط من الطين وجد بعضها في مدينة لجش وغيرها، وكانت مشاريع الري قد اهملت وتخربت ابان الاحتلال الكوتي مما اثر على الحياة الاقتصادية تأثيراً واضحاً.

واخيراً لابد من الاشارة الى الواح الطين التي عثر عليها في مدينة نفر والتي تمثل نسخاً غير كاملة من قانون كان اور– نمو قد اصدره وهو مدون باللغة السومرية ويعد اقدم قانون مدون مكتشف حتى الان ليس في بلاد سومر وأكد فحسب بل وفي العالم قاطبة حيث انه يسبق قانون حمورابي بأكثر من مائتي سنة وقد بقي منه ما يقرب من ثلاثين مادة فقط.

خلفاء اور–نمّو

انتهى حكم اور–نمّو ربما بمقتله في ساحة المعركة واعتلى العرش من بعده ابنه شولجي الذي حكم ثمان واربعين سنة. وقد سنحت لشولجي الفرصة خلال هذه السنوات الطويلة من حكمه ان ينجز الكثير من الاعمال العمرانية ويقوم بالعديد من الحملات العسكرية لتوطيد اركان الامبراطورية. ويبدو ان الوضع السياسي العام في انحاء الامبراطورية كان مستتباً في القسم الاول من حكمه مما فسح له المجال للاهتمام بمشاريع البناء والتعمير والعناية بمشاريع الري، فاكمل بناء زقورة اور وزقورة الوركاء اللتان كان ابوه قد بدأ بها كما جدد معبد نفر في حارة تمأل.

اما النشاطات الحربية ، فعلى الرغم من أن معلوماتنا عنها قليلة لقلة النصوص المسمارية عنها فان الحوادث التي ارخّت بها السنون تؤكد قيام شولجي بالعديد من الحملات العسكرية الى الجهات المختلفة بهدف ضمان امن وسلامة الطرق التجارية المؤدية الى مصادر المواد الخام التي يفتقر اليها العراق اولاً ولقمع التمردات التي كانت تهدد حدود المملكة الشمالية الشرقية والشرقية وتحرشات الاقوام الجبلية والاقوام التي عرفت بالحوريين التي كانت تهدد الاجزاء الشمالية من المملكة . وهكذا قام شولجي بعدد من الحملات لتثبيت سيطرته على هذه المناطق وقد اضطر احياناً الى ترحيل بعض القبائل المتمردة واقامة مستوطن لاسرى الحرب بالقرب من مدينة نفر.[1] وفي احيان كثيرة ، وطّد شولجي علاقاته مع البلدان والممالك الاخرى المجاورة بعلاقات دبلوماسية قوية من خلال المصاهرات السياسية حيث زوج ابنته الى ملك ماراخشي شمال غربي عيلام وزوج ابنته الثانية الى حاكم انشان في عيلام ايضاً .

لقب شولجي نفسه بلقب ملك الجهات الاربع ، وهو لقب سبق ان تلقب به نرام-سين حفيد سرجون الاكدي ، وهو اللقب الخاص عادة بالالهة مما يشير الى ان شولجي كان قد آله نفسه كما فعل نرام-سين من قبله ؛ وتؤكد النصوص المكتشفة من عهده ان القرابين كانت تقدم له في المعبد وان اسمه كتب مسبوقاً بالعلامة الدالّة الخاصة بالالهة وان تراتيل دينية قد نظمت لتمجيده ، وعندما مات دفن في قبر فخم في مدينة اور شيد فوقه معبد فخم لتقديم القرابين له من بعد مماته . ومع ذلك ، فإن تاليه الملك في العراق القديم لايعني ان الملك اصبح مساوياً للالهةالاخرى التي اعتقد القوم بوجودها بل كان في نظرهم ارتفاع شأن الملك الى درجة اله ثانوي حام مما حدا ببعض الافراد ان يسموا اولادهم باسماء يدخل في تركيبها اسم شولجي.[2]

من جانب آخر ، ادعى شولجي انه اتقن فن الكتابةوالادب وانه كان يعزف على ما لا يقلّ عن ثمان الات موسيقية ؛ وبذلك فهو اول ملك موسيقار ومثقف . ومن منجزاته الادارية توحيد التقويم في انحاء الامبراطورية حيث كانت العاصمة اور تصدر سنويا الاسم الذي تؤرخ به السنة وتوزع على المدن كافة لاتباعه ، كما عمل على توحيد الاوزان والمكاييل

---

(١) جين بوتر وآخران ، الشرق الادنى ، ص ١٤٤

(٢) طه باقر ، المقدمة ٣٨٧

وربما جعلها رسمية ومراقبة ، وقد عثر المنقبون على نماذج من الاوزان التي كانت تستخدم وهي غالباً على شكل بطة ملتفة الى الوراء باحجام مختلفة ومصنوعة من الحجر وقد نقش عليها اسم الملك ووزن البطة .

توالى على الحكم من بعد شولجي كل من امار–سين ، اويور–سين حسب القراءة الاكدية للعلامات ، وشوسين وقد حكم كل منها تسع سنوات . اهتم الملكان ايضا باقامة المشاريع العمرانية في بناء المعابد او ترميمها مما يشير الى الرخاء الاقتصادي واستتباب الامن في عهدهما بصورة عامة ومع ذلك فقد قاما بنشاطات عسكرية ولاسيما في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية حيث ارسلت عدة حملات عسكرية لتوطيد الامن والقضاء على تمردات بعض القبائل الجبلية . وقد قدس كل من هذين الملكين نفسيهما كما فعل شولجي من قبل وفي عهد شوسين بدأ تدفق القبائل الامورية القادمة من جهة الغرب ، وهي قبائل جزرية جاءت اصلاً من شبه جزيرة العرب ، وقد حاول شوسين صد هذه القبائل واقامة سور طويل سمي بسور الاموريين او السور الذي يصد الاموريين ، وقد تمكن فعلاً من صدهم ولكن لفترة مؤقتة حيث استمر تدفق تلك القبائل وزاد ضغطها على حدود المملكة الغربية في عهد ابي–سين اخر ملوك سلالة اور الثالثة .

ابي–سين وانهيار سلالة اور الثالثة :

كان ابي–سين آخر ملوك سلالة اور الثالثة وقد حكم ٢٤ سنة مليئة بالاحداث التي واجهتها المملكة في الداخل والخارج . فمع ان ابي–سين قام ببعض الاعمال العمرانية في السنوات الاولى من حكمه ، كما تشير الى ذلك الحوادث التي أرخت بها السنون ، الا انه كان منشغلاً بالنشاطات العسكرية ومحاولاته اليائسة في توطيد الامن في ارجاء الامبراطورية مما دفعه الى ارسال الحملات العسكرية ولاسيما الى الجهات الشرقية والشمالية الشرقية . ومع ذلك ، كانت بوادر الضعف والانهيار تدب في اوصال المملكة وتعمل على انهيارها بالتدريج .

وكانت عوامل الانهيار على نوعين منها الداخلية ومنها الخارجية . فاما الداخلية فتتمثل بضعف السلطة المركزية وضعف السيطرة على المدن والاقاليم المختلفة التابعة للمملكة مما دفع بعض حكام المدن الى الاستقلال والانفصال عن الحكومة المركزية ونبذ الاعتراف بها وبسيادتها ، والدليل على ذلك ان تلك المدن لم تعد تؤرخ السنين بالاحداث التي تقرها وتؤرخ بها العاصمة اور بل استخدم كل حاكم من حكام هذه المدن احداثا خاصة بمدينته

لتأريخ السنين ، كما ان حكام المدن لم يستمروا في ارسال القرابين الخاصة بمعبد الاله القمر ننا ، الى مدينة اور الرئيس ، مما يؤكد عدم احترامهم واعترافهم للملك الحاكم في اور وهكذا ظهرت التمردات وعم العصيان في المدن المختلفة رافق ذلك اهمال في مشاريع الري ، العمود الفقري للحياة الاقتصادية ، حيث لم نعد نسمع عن فتح قنوات اوكري انهار في السنوات الاخيرة من عهد سلالة اور الثالثة ، فقلت المواد الغذائية وارتفعت الاسعار ارتفاعاً فاحشاً حتى لم يعد بالامكان توفير مايلزم لاطعام سكان العاصمة فبعث الملك الى بعض حكامه في المدن الاخرى ، مثل حاكم مدينة ايسن المدعو اشبي-ارّا طلباً بارسال الحنطة والشعير وشراءها حتى وان كان السعر مضاعفاً . وقد استغل الحكام ذلك في ابتزاز الملك ومحاولة القضاء عليه وهذا مافعله اشبي-ارّا كما تشير الى ذلك الرسائل التي تبادلها مع الملك ابي-سين.

اما العوامل الخارجية فتتمثل بضغط القبائل الامورية من الغرب وتحرشات ثم هجوم العيلاميين من الشرق. فقد سبق ان اشرنا الى بدء تدفق القبائل الامورية من الغرب ومحاولات شوسين صد هجمات تلك القبائل وبنائه سور على طول الجبهة الغربية ، وقد زادت ضغوط تلك القبائل في عهد ابي-سين وبدأت تتغلغل في اطراف المدن وتنتشر حولها مستغلة الارتباك السياسي وضعف السلطة المركزية في اور ونشوب التمردات في المدن المختلفة . الا ان الضربة القاضية التي انهت سلالة اور الثالثة جاءت من جهة الشرق حيث قامت مملكة عيلام التي كانت قد انفصلت عن اور واستقلت عنها بهجوم عسكري مفاجئ دمّروا خلاله مدينة اور واسروا ملكها ابي-سين وتركوا حامية عسكرية فيها ثم عاد وانسحب الجيش. وقد كان ذلك ايذاناً بنهاية عهد شهد توحيد ارض وادي الرافدين وبداية عهد تمزق سياسي واضطراب في الاوضاع وعودة الى التجزئة استقلت خلاله المدن الرئيسة واقامت كل منها لها سلالة حاكمة كما ستتابع ذلك عند الحديث عن الفترة التالية . كما يشير سقوط سلالة اور الثالثة إلى نهاية السومريين السياسية ونهاية اور كعاصمة للبلاد . وقد وصلتنا قصائد سومرية خصصت لرثاء هذه المدينة التي شهدت عنفوان قوة السومريين وازدهار حضارتهم .

المادة – موجز تاريخ العراق القديم
تاليف – د عامر سليمان
الجزء الاول